تجارب إشتراكيّة

اشترك في التأليف

سارتر ، دويتشر ، دوبريه ، بوبون ، ديليني ، نيرن

حسن أبو يوسف اللويثي

دار الآداب

تجارب إشتراكية

تجارب إشتراكية

اشترك في التأليف

سارتر ، دويتشر ، دوبريه ، بويون ، ديبيني ، نيرن

ترجمة : جورج طرابيشي

منشورات دار الآداب - بيروت

الطبعة الأولى
يناير (كانون الثاني) ١٩٦٦

مقدّمة

هنالك نوع من شمولية كاذبة وظاهرية ليس إلا ، هي على وجـــه التحديد الشمولية التي لا تنطلق من أي موقف عيني خاص ، أو لا تتطابق معه . إن مثل هذه الشمولية الـكاذبة هي شمولية فاقدة لشمولها . هذه الشمولية هي التي أنكرت في المـــاضي – وإلى اليوم أيضاً – وجود « التجربة » : وحتى إذا اعترفت بها ، فإن مهمتها الأولى هي إفقادها ، من خلال هذا الاعتراف بالذات ، ماهيتها كتجربة ، أي إفقادها عينيتها وتفردها وخصوصيتها ، تلك الخصوصية التي هي الطريق الجدي إلى الشمولية الحقة ، وإذا ما حاولت « التجربة » أن تتمرد على هذا المخطط ، كان مصيرها اتهامها بالخصوصية الصرف ، أي بالتحريف والانحراف والخيانة . هكذا كان مصير « التجربة اليوغوسلافية » في عام ١٩٤٨ ..

إن المطلق ليس طباق النسبي ، بل تتويجه . والشمولي ليس نقيض الخصوصي بل مساره الجدلي. وإذا كانت المعرفة شمولية بماهيتها أو أن ماهيتها هي السعي إلى الشمول ، فإنها لا تصل إلى الشمول إلا من خلال ما هو خصوصي . ومن هنا فإن شمولية المعرفة لا تكمن في تلخيص ما هو خاص وتجريده وتعميمه ، بل تكمن في تحليله وتركيبه الجدلي . إنها اغتناء بالخصوصي بقدر ما هي إغناء له . إن « الملخصات الستالينية » – وستالين لم يفعل من شيء على الصعيد النظري سوى انه لخص .. ولخص – هي مثال بات كلاسيكياً عن إصابة المعرفة بفقر

الدم عندما تسعى إلى الشمول عن طريق نفي الخصوصية .

هذه الاعتبارات هي التي أملت علينا أن نختار كعنوان لهـذه المجموعة من الدراسات « تجارب إشتراكية » .

إن التجربة هي بالتعريف اعتراف بخصوصية السؤال لمحاولة الرد عليه بجواب خاص ، انطلاقاً من منظور شمولي وعبره ووصولاً إليه . لنأخذ المنهج الماركسي كمثالي . إننا لو قرأنا مؤلفات ماركس وانجلز بأكملها ، ولو أتبعناهـا بقراءة مؤلفات لينين البالغ تعدادها أربعين مجلداً ضخماً ، لما ألفينا فيها وصفاً ولا معطيات للسؤال الذي يطرحه علينا الواقع العربي ، ولما ألفينا فيها على الأخص جواباً لهذا السؤال . ذلك هو الجانب الخصوصي من التجربة . لكن إذا كان الجواب غير متضمن في أي كتاب من كتب الماركسية ، فإننا نستطيع أن نجده – بالمقابل – بالتوازي مع مجمل التراث الماركسي . أي نستطيع انطلاقـاً من مجمل هذا التراث ، من منهجه بالذات ، أن نتقرى السؤال الذي يطرحه علينا الواقع العربي ، وأن نمسك به من أطرافه وناصيته ، لنعمل من ثم على إيجـاد الجواب المناسب له على ضوء ذلك المنهج بالذات الذي أتاح لنا أن نصوغ السؤال. وعندما نصل إلى صياغة الجواب ، فإننا نكون قد أغنينا المنهج بالذات . نكون اولاً قد منعناه من التصدؤ من قلة الاستعمال ، ونكون ثانياً قد طورناه وعمقناه إذ مكناه – ومكننا – من صياغة سؤال وجواب جديدين . وبعبارة أخرى : نكون قد أضفنا صيغة أخرى جديدة إلى مجموعة الصيغ التي يتألف منها التراث الاشتراكي العلمي . وذلك هو الجانب الشمولي للتجربة .

يقيناً ، قد تفشل التجربة . تفشل في صياغة السؤال أو الجواب ، أو كليهما معاً . وفي مثل هذه الحال تقع التبعة على قصورها الذاتي أو كسلها . لكن هذا الفشل بالذات يمكن أن يتحول إلى إغناء إذا ما اتخذ وسيلة لتقليل هامش الخطأ في محاولة جديدة .

بهذا المعنى نقول عن دراسات هـذا الكتاب إنها تمثل تجارب ، الماوتسية

والـكاستروية ، والخروتشفية والاشتراكية الانـكليزية.. تجارب ناجحة أو فاشلة. ناجحة لأنها عرفت كيف تغتني وتغني . وفاشلة لأنها لم تعرف كيف تغتني أو تغني ، لكن يمكن مع ذلك الإغتناء منها إذا ما حُوِّل فشلها بالذات إلى درس .

وهذه الدراسات ، بالرغم من أنها لكتّاب مختلفين، يجمع بينهـــا أنها نشرت جميعاً في مجلة « الأزمنة الحديثة » التي يصدرها جان بول سارتر . وبذلك فهي لا تتقارب في منهجها الاشتراكي العلمي فحسب ، بل أيضاً في روحها . انها تبدو ، من أكثر من جانب ، وكأنها لـكاتب واحد . انها تصب كلها ، بروحها ومواضيعها وكتّابها ، في مصب واحـــد : الثورة الاشتراكية ، مهما تعددت ظروف المـكان والزمان .

جورج طرابيشي

المَـاوتسّـية

بقلم : إسحق دويتشر

(١)

ما الماوتسية ؟ ماذا تمثل بوصفها فكرة سياسية وتياراً في قلب الشيوعية المعاصرة ؟ إن ما يعجل في ضرورة توضيح هذه الأسئلة كون الماوتسية تناضل الآن مع سائر مدارس الفكر الشيوعية للحصول على الاعتراف بها على الصعيد الدولي . لكن وراء الماوتسية ثلاثين أو خمسة وثلاثين عاماً من الوجود ، في البداية كمحض تيار فكري بين تيارات أُخرى ، ثم كاتجاه رئيسي في الشيوعية الصينية . ولقد خاضت تحت رايتها معظم قوى الثورة الصينية أطول حرب أهلية في التاريخ الحديث ، وحققت انتصار ١٩٤٩ الذي سدد إلى الرأسمالية العالمية أقسى ضربة منذ ثورة ١٩١٧ ، والذي سمح في الوقت نفسه للاتحاد السوفياتي بالخروج أخيراً من عزلته . ولا غرو إن تخطت الماوتسية ، على الصعيد السياسي ، حدودها القومية وطالبت بأن يعير العالم قاطبة أفكارها أذناً صاغية . إنما المدهش أنها لم تفعل ذلك قبل الآن ، وانها ظلت محصورة طوال تلك الحقبة المديدة داخل تجربتها القومية .

ومن هذه الزاوية تمثل الماوتسية تضاداً باهراً مع اللينينية . لقد كانت هذه الأخيرة في بدايتها أيضاً مدرسة فكرية روسية خالصة . لكن هذا لم يدم بها طويلاً . ففي ١٩١٥ ، بعد انهيار الاممية الثانية ، لم تكن البولشفية ، كشيعة في قلب الحزب الاشتراكي — الديموقراطي الروسي ، قد تجاوزت العاشرة من العمر . ومع ذلك كان لينين يمثل الوجه المركزي للحركة بالنسبة إلى الأممية الثالثة التي رأت النور بفضله . وقبل ذلك ، كان البلاشفة ، كسائر الاشتراكيين الروس ، قد عاشوا بزخم جميع مشكلات الماركسية الدولية ، وتشبعوا بتجربتها كلها ،

وساهموا في مساجلاتها كافة ، وعقدوا معهـا أواصر متينة من التضامن الفكري والمعنوي والسياسي. ولقد كانت الماوتسية من البــدء نداً للبولشفية في الحيوية والديناميكية الثوريتين ، لكنها كانت تفترق عنها بضيق أفق نسبي وبغياب كل تماسّ مباشر مع آخر أعمال النقد الماركسي. وصحيح أن الثورة الصينية– ونحن نقول ذلك مترددين – التي هي من حيث اتساعها في الصف الأول من جميــع ثورات التاريخقد صنعها أكثر الأحزاب الثورية قرويةً وعزلة ، لكن قوة الثورة بالذات قد برزت أكثر بكثير نتيجة لذلك .

ما تفسير هذه المفارقة ؟ إن المؤرخ يلاحظ في المقام الأول غياب كل تأثـير ماركسي أو شيوعي في الصين قبل ١٩١٧(١) . فمنذ مستهل القرن التاسع عشر، ومنذ حروب الأفيون وتمرد التايبينغ(٢) ، مروراً بفتنة الملاكين(٣) إلى الإطاحة بالسلالة الملكية المنشورية (٤) عــام ١٩١١ ، كانت الصين بؤرة لحركات معادية للامبريالية وثورات زراعية . لكن الحركات والجمعيات السرية التي قامت بهـذه الفتن والثورات كانت تحتفظ بطابع تقليدي وتستند إلى عبادات دينية قديمة . وحتى الليبيرالية والراديكالية البورجوازيتان لم تتخطيا « السور الكبير » قبل مطلع هذا القرن . وصن يات سن لم يصغ برنامجه الجمهوري إلا في عام ١٩٠٥ . وفي ذلك العصر كانت الحركة العمالية اليابانية ، التي كان سن كاتاياما الشهير هو

---

(١) : الترجمة الأولى لـ « البيان الشيوعي » لم تظهر إلا في عــام ١٩٢٠ . ويومذاك قرأه ماو الذي كان في السابعة والعشرين للمرة الأولى . وكان في العــام السابق قد ذهب يحج إلى ضريح كونفوشيوس بالرغم من أنه لم يكن مؤمناً .

(٢) : شيعة دينية صينية ثارت عام ١٨٥٠ على السلالة المالكة وقمعت .
« هامش المترجم »

(٣) : إسم أطلقه الإنكليز على المتمردين الذين عرضوا للخطر السفارات الأوروبية عام ١٩٠٠ . « هـ. م. »

(٤) : سلالة حكمت الصين بين القرن الشابع عشر ومطلع القرن العشرين .
« هـ. م. »

الناطق بلسانها في « الأممية الاشتراكية » قد انتمت رسمياً إلى الماركسية ، وفي روسيا كان غزو الأفكار الإشتراكية الغربية قد بدأ منذ منتصف القرن التاسع عشر ، ولم تكفّ الماركسية مذ ذاك عنالتأثير على جميع العقول الثورية والشعبية والاشتراكية – الديموقراطية . وعلى حد استعارة لينين ، كانت البولشفية تقف على أكتاف عـــدة أجيال من الثوريين الروس الذين تنشقوا هواء الفلسفة والاشتراكية الأوروبيتين. ولقد كان الصينيون يفتقدون هؤلاء الأسلاف. وكانت البنية القديمة البالية للمجتمع الصيني واستقلال تراثـــه الثقافي العميق الجذور ، يجعلانه كتيماً دون الخمائر الايديولوجية الأوروبية . وقد تمكنت الامبرياليـــة الغربية من تقويض هــذه البنية وهــذا التراث ، لكن لم تستطع أن تنفح الصين بأيديولوجيــة محررة . والإنفجار الثوري في روسيا التي كانت دانية ونائية معاً هو وحدهالذي استطاعأنيوقظ الأمة الكبيرة من عطالتها. لقد نجحتالماركسية في التسرب إلى الصين بواسطة روسيا . والسرعة المذهلة التي تم بها هذا التسرب ١٩١٧ ، والتأصل المتين الجذور للماركسية في التربة الصينية ، هما أسطع مثال على « قانون التطور المركب »: فقد راحت أقدم أمم العالم تلتهم بشراهة أحدث المذاهب الثورية وتضعه موضع تنفيذ. ونظراً إلى عدم وجود أسلاف ماركسيين من أبناء البلاد ، تهبط الشيوعية الصينية مباشرة من ذرية البولشفية . إن مــاو يقف على كتفي لينين .

هناك عاملان في تأخر وصول الماركسية إلى الصين ثم ظهورها فيهـــا تحت شكل بولشفي : من جهة أولى الحرب العالميـــة الأولى التي كشفت وأججت التناقضات الداخلية للامبريالية الغربية ، وأساءت إلى سمعة هذه الأخيرة في الصين ، وانضجت هذا البلد للثورة وجعلته على أكبر استعداد لتلقي الأفــكار الثورية ، ومن جهة ثانية اللينينية التي ألحت بأصالة وتصميم علىمناهضةالامبريالية وعلى المشكلة الزراعية ، فأتاحت للماركسية ، لأول مرة في التـــاريخ ، أن تتجاوب بصورة مباشرة وفورية مع حاجات وجهود شعوب مستعمرة أو نصف

مستعمرة . وبمعنى ما نقول إن الصين حرقت المرحلة ما قبل البولشفية للماركسية لتكون قادرة على تلقي هذه الأخيرة .

بيد أن هيمنة اللينينية الخالصة على الصين كانت قصيرة للغاية . فهي لم تدم إلا حتى بداية الثورة « القومية » عام ١٩٢٥ . ولم يطلع أحد على برنامج اللينينية ويتبنّـه سوى نخبة صغيرة جداً بين الطبقة المثقفة الراديكالية . (في المؤتمر التأسيسي للحزب الشيوعي الصيني عام ١٩٢١ كان حاضراً إثنا عشر منـدوباً فقط – من بينهم ماو تسي تونغ – يمثلون سبعة وخمسين منتسباً ! وفي المؤتمر الثاني ، في العام التالي ، حضر نفس العدد الرسولي من المندوبين الذين يمثلون مئة وثلاثة وعشرين منتسباً . ولم يكن الحزب يضم سوى تسعمئة عضو في كل الصين في مستهل عام ١٩٢٥، وقبل فترة وجيزة من التاريخ الذي سيتولى فيه الشيوعيون قيادة ملايين المتمردين) ولقد كان لأفكار اللينينية الأساسية أثرها العمقي البالغ في حلقات الدعاية الشيوعية الأولى هذه . وبالرغم من كل ما فعله الكومنترن الستاليني فيما بعد ليزرع البلبلة في أذهان الشيوعيين الصينيين ، بقيت بذرة اللينينية حية ونمت وانتجت في النهاية الماوتسية .

كانت اللينينية تقدم لمريديها الصينيين بعضاً من حقائق كبيرة بسيطة أكثر مما تقدم لهم استراتيجية محددة أو شعارات تكتيكية دقيقة . كانت تعلمهم أن الصين لا يمكن أن تتحرر إلا بثورة من القاعدة ، وأن عليهم أن يعدوا العـدة لهذه الثورة بنفس ما أعد البلاشفة لثورتهم من مثابرة واستماتة ورجاء ، وأن عليهم أن يأخذوا حذرهم من كل نزعة إصلاحية بورجوازية وألا ينتظروا شيئاً من تسوية مع الدول الكبرى التي كانت تستعبد الصين ، وان عليهم ، ليمكنهم النضال ضد هذه الدول ، أن يتحالفوا مع العناصر الوطنيـــة من البوارجوازية الصينية ، لكن بشرط ألا ينسوا أن هؤلاء الحلفاء المؤقتين يمكن في كل لحظة أن يخونوا وأن عليهم بالتالي أن يكونوا دوماً على حذر ، وأن على الشيوعية أن تبحث عن الدعم لدى الجماهير الفلاحية البـائسة وألا تكف عن الوقوف إلى

جانبهم في النضالات ضد « سادة الحرب » أي الملاكين العقاريين والمرابين ، وان الفئات الكادحة من سكان المدن هي القوة الثورية الوحيدة الثابتة، والأكثر ديناميكية من حيث الطاقة ، والوحيدة القادرة على قيادة نضال الأمة في سبيل تحررها ، وان ثورة الصين الديموقراطية - البورجوازية هي مرحلة من ثورة « متصلة »أو « دائمة » ، مرحلة من التمرد الشامل الذي لا يمكن للاشتراكية إلا أن تنتصر فيه على الامبريالية والرأسمالية والاقطاعية وعلى مختلف الأشكال الاجتماعية البالية في آسيا ، وان شعوب الشرق المضطهدة يجب أن تعتمد على تضامن الاتحاد السوفياتي والطبقات العاملة في أوروبا الغربية ، وأن على الحزب الشيوعي ، طليعة الحركة ، أن يظل دوماً على تماس مع جماهير العمال والفلاحين ، بشرط أن يهتم باستباقها ، وانه من الواجب في النهاية الدفاع بغيرة عن استقلال الحزب أزاء سائر الأحزاب في مختلف المسائل السياسية والتنظيمية [١] . وزبدة اللينينية هذه هي التي تشرب بها الرواد القلائل للشيوعية الصينية قبل ثورة ١٩٢٥ - ١٩٢٧ .

أما الماوتسية فكانت ما تزال بعد في « ما قبل تاريخها » ولم تبدأ بأخذ شكل واضح المعالم إلا عند بداية الثورة ، ولم تبدأ في تكوين اتجاه خاص داخل الشيوعية إلا بعد فشل تلك الثورة . بيد أن المرحلة « ما قبل التاريخية » تظل مع ذلك أساسية ، لأن بعض المبادىء المأخوذة من مدرسة اللينينية ستشكل أساس الماوتسية ، بالرغم من تغطيتها فيما بعد بعناصر إيديولوجية أخرى .

(١) اهتم المؤتمر الثاني للأممية الشيوعية ، بوجه خاص ، بمشكلات البلدان المستعمرة ونصف المستعمرة ، وكان لينين أول منقدم أطروحات وقرارات حول هذا الموضوع للمؤتمرعام ١٩٢٠.

(٢)

التأثيرات الأخرى التي ساهمت في تكوين الماوتسية كانت الثورة نفسها وعاقبة الجرح الناجمة عن هزيمتها . لقد فجرت أعوام ١٩٢٥ – ١٩٢٧ جميع التناقضات القومية والدولية التي مزقت حتى ذلك اليوم الصين . وقد تصرفت جميع الطبقات الاجتماعية – وجميع الدول المعنية – حسب توقعات اللينينية . لكن أبرز سمات الأحداث – وهي سمة لم ترافق الثورة الصينية التالية ، وبالتالي هناك ميل لتناسيها أو إهمالها – كانت ظهور الديناميكية الاستثنائية للطبقة العاملة الصينية بالرغم من ضعفها العددي [١] . فقد كانت المراكز الرئيسية للثورة المدن الصناعية والتجارية في الصين الساحلية ، ولا سيما كانتون وشانغهاي . وكانت أنشط المنظمات النقابات (التي أصبحت بين عشية وضحاها حركة جماهيرية) . وكانت الاضرابات العامة ومظاهرات الشوارع والتمردات العمالية ، على نطاق واسع ، هي الأحداث المميزة ، الأحداث المحركة للثورة في مرحلتها الصاعدة . أما خلفيتها فكانت العصيان الزراعي ، تلك الحركة الواسعة عمقياً التي تأخرت في الاعلان عن نفسها وامتدت إلى أقاصي البلاد ، وعرفت تنوعاً في الايقاع والشدة . لقد كان هذا العصيان ، على الصعيد القومي ، صدى لعمل

(١) يقدر ماو بمليونين عدد العمال الصينيين العاملين في المنشآت الكبرى . وكان هناك حوالي عشرة ملايين من عمال الأعمال الشاقة وسائقي العربات .

ويفسر ماو الدور الحاسم للعمال في الثورة بتمركزهم الشديد في المصانع الكبيرة ، وبشروط عملهم الفظيعة ، وبنضاليتهم الاستثنائية . ولم يكن في روسيا سوى ثلاثة ملايين عامل في الصناعة الحديثة في زمن الثورة ، وتروتسكي يفسر دورهم بنفس الطريقة تقريباً .

بروليتاريا المدن ، لكنه لم يستطع أن يؤثر في الأحداث بنفس الصورة المباشرة والدراماتيكية . ولا نبالغ إذا قلنا أن الطبقة العاملة الصينية برهنت على طاقة ومبادرة سياسية وقدرة على القيادة في أعوام ١٩٢٥ – ١٩٢٧ ، بصورة لا تقل عن العمال الروس إبان ثورة ١٩٠٥ . لقد كانت هذه الأعوام بالنسبة إلى الصين ما كانه عاما ١٩٠٥ – ١٩٠٦ بالنسبة إلى روسيا : مراجعة عامة للثورة ، مع فرق زهيد وحيد هو أن النتائج التي استخلصها حزب الثورة في الصين لم تكن النتائج نفسها التي استخلصها الروس . وهـــذه الواقعة ، بالاضافة إلى عوامل موضوعية أخرى سنناقشها فيما بعد ، كان لا بد أن تنعكس في الفروق بين بُنى الصين الاجتماعية – السياسية عام ١٩٤٩ وبنى روسيا عام ١٩١٧ .

ففي زمن « المراجعة » الصينية ، كانت موسكو تحطم أوهامهـــا الذاتية والصبوات الثورية الأممية لعهد لينين. فقد أعلن الروس آنذاك مذهب الاشتراكية في بلد واحد . وكانت الكتلتان الستالينية والبوخارينية ، اللتان كانتا مـــا تزالان تتقاسمان السلطة ، تشكان في حظوظ الشيوعية الصينية ، ولا تريدان « تعقيدات » دولية ، وتؤثران موقف الحذر والاحتراز . وقد اعترف ستالين وبوخارين ، حتى يتجنبا تحدي الدول الغربية وإغـاظة البورجوازية الصينية ، اعترفا للكيومنتانغ بصفة القائد الشرعي للثورة ، وأقاما علاقات « صداقة » مع تشان كاي شك ، وأعلنا عن ضرورة « تحالف الطبقات الأربع » في الصين ، وأصدرا الأمر إلى الحزب الشيوعي بالإنضمام إلى الكيومنتانغ وبالخضوع لتعليماته وانضباطه . وكانت هذه السياسة تبرر نفسها إيديولوجياً بالطابع البورجوازي للثورة الصينية وبضرورة إرغامها على البقاء في حـــدود ثورة بورجوازية . ولم يكن الشعار دكتاتورية البروليتاريا ، إنمـــا فقط « دكتاتورية العمال والفلاحين الديموقراطية » ، وهو شعار غامض ومتناقض أطلقه لينين عام ١٩٠٥ حين كان ما يزال يرى أن الثورة الروسية ستكون «ديموقراطية – بورجوازية» فحسب .

ولا تباع هذا الخط ، توجب على الشيوعيين أن يتخلوا تقريباً عن جميع المبادىء

التي لقنتهم إياها موسكو . توجب عليهم ، كحزب ، أن يتنازلوا عن استقلالهم وحرية حركتهم . توجب عليهم أن يتخلوا ، بالفعل إن لم يكن بالحق ، عن تطلعهم إلى القيادة البروليتارية ، ويقبلوا بدلاً عنها بالقيادة البورجوازية ،توجب عليهم ، ليضمنوا تحقيق ودوام « تحالف الطبقات الأربع » ، أن يلجموا ديناميكية العمال المناضلة ، وأن يعرقلوا روح التمرد لدى الفلاحين الذين كانوا يهددون دوماً بنسف هذا التحالف . توجب عليهم أن يتخلوا عن فكرة الثورة المتصلة (أو الدائمة) لأنه كان عليهم أن « يوقفوا » هذه الثورة في كل مرة تتجه فيها إلى تجاوز هامش السلامة بالنسبة إلى النظام البورجوازي ، وهذا ما كان يحدث غالباً . توجب عليهم أن يحطموا الإندفاع البروليتاري والإشتراكي للحركة وإلا اتهمتهم موسكو بالتروتسكية . إن الاشتراكية المقتصرة على بلد واحد ، الاتحاد السوفياتي ، انما كانت تعني : لا اشتراكية في الصين .

وبدءاً من هنا أصبح الشيوعيون الصينيون فريسة ضعفهم الذاتي وفريسة انتهازية الروس وإنانيتهم القومية على حد سواء . وأقر رواد الشيوعية الصينية ، نظراً إلى أنهم لا يملكون تراثاً ماركسياً مستقلاً يعتمدون عليه ، ونظراً إلى تبعيتهم لموسكو فيما يتعلق بالأفكار الموجهة ووسائل تنفيذها العملي ، ونظراً الى اعتيادهم على ظلمة حلقتهم الدعائية ، الصغيرة في الوقت الذي وجدوا فيه أُنفسهم بين عشية وضحاها على رأس ملايين المتمردين ، ونظراً إلى افتقارهم للخبرة السياسية وللثقة في النفس ، ونظراً الى أنهم كانوا محاصَرين بأوامر موسكو القطعية وتعليماتها وتقريعاتها ، ونظراً إلى خضوعهم لتهديدات وشانتاج ممثلي ستالين والكومنترن ، نظراً إلى هذا كله أقروا بأنهم غلبوا على أمرهم . ولم يكن في وسعهم ، هم الذين يستمدون من موسكو كل لينينيتهم ، أن يقولوا ولا حتى أن يفكروا بأن موسكو تخطىء إذ تسعى إلى أن تنسيهم إياها (أي اللينينية) . وعلى أحسن الفروض ، كانوا سيلقون عناء كثيراً ليكونوا على مستوى مهمتهم ، وكانوا سيحتاجون إلى نصائح حازمة ، واضحة ، لا لبس فيها . والحال أن النصائح الوحيدة غير المكتسبة التي كانوا يتلقونها من موسكو كانت

تحثهم على إخفاء الحقيقة ، وعلى التنصل من مسؤولياتهم والتنازل عنهـا . وما كانوا يعرفون أن المعارضة التروتسكية تتحدى « الخط العام » لستالين وبوخارين ، وان تروتسكي نفسه يعارض فكرة انضمام الحزب الصيني الى الكيومنتانغ وتلقي أوامره منه . (لم تكن لهم أي صلة بالمعارضة ، وكانت انتقـادات تروتسكي لـ (« الصداقة » مع تشان كاي شك لا تتخطى جدران المكتب السياسي) . إذن وفي نظر الصينيين ، كان ستالين وبوخارين يتكلمان باسم مجموع البولشفية .

في تلك الفترة بالذات ، فترة الخضوع للكيومنتانغ ، أبدى مـاو لأول مرة معارضته . وقد عبر عنها بصورة حازمة وقطعية وإن غير مباشرة ، ففي نهاية ١٩٢٥ وبداية ١٩٢٦ أمضى ماو الكثير من وقته في مسقط رأسه في إقليم هونان ، ينظم التمردات الفلاحية ، في نفس الوقت الذي كان يناضل فيه في كانتون وشانغهاي كممثل للحزب داخل بعض منظمات الكيومنتانغ الرئيسية . وقادته تجربته إلى تقييم العلاقات الاجتماعيـــة ، وبخاصة الصراع الطبقي في الأرياف ، في دراستين : « طبقـــات المجتمع الصيني » التي كتبت في أيار ١٩٢٦ و « دراسة عن الحركة الفلاحية في اقليم هونان » التي كتبت في آذار ١٩٢٧ . انه لم يحاول أن يحلل البنية الاجتماعية للصين عمقاً ولا أن ينتقد خط الحزب بوجه عام . انما عبر عن وجهات نظره بعبارات تتعارض ضمنياً لكن قطعياً ، مع الأسس المذهبية والخطوط الكبرى لسياسة الكومنترن .

كتب في آذار ١٩٢٦ : « لا وجود في التاريخ لمثال ثورة لم تفشل عندمـــا يحيد بها عن الصراط المستقيم الحزب الذي يقودها . وحتى نكون على ثقة من أننا لن نحيد بالثورة عن الصراط المستقيم ، علينا أن نحرص على الاتحـــاد مع أصدقائنا الحقيقيين ، وألا نتخلف عن ضرب أعدائنـــا الحقيقيين » وكان « الأصدقاء الحقيقيون » للبروليتاريا الثورية الفلاحـــين الفقراء والعناصر نصف البروليتارية في القرى . وكان أعداؤهـــا الحقيقيون » الملاك والفلاحين الأغنياء والبورجوازية ، والجناح اليميني من الكيومنتانغ . وقد حدد ماو مواقف هذه

الطبقات وهذه الفئات بصحو فكر وروح تحليلية وصرامة بدا معها « تحالف الطبقات الأربع » وخضوع الحزب للكيومنتانغ وفكرة كبت القوى الثورية في الحدود البورجوازية أخطاء سيكون لها أبلغ الضرر على الحزب والثورة . ولم يكن اهتمامه قد انصرف عن المدينة لينصبّ على الأرياف وحدها ، وهذا ما حدث فيما بعد ، لكنه أظهر منذ ذلك الحين تحسساً بأعمال الفلاحين وردود أفعالهم أكبر بكثير من تحسسه بحركة العمال . ومع ذلك ظل يلح ، بوصفه لينينياً صالحاً ، على أولوية العمال في الثورة ، وكان هذا الإلحاح يعكس الميزان الحقيقي للقوى بين العمال والفلاحين في تلك المرحلة .

وفي تلك الفترة أيضاً لم يكن قد تبقى في الاتحاد السوفياتي من يتكلم على هذا النحو سوى التروتسكيين[1] والزينوفيفيين . فكان ماو أشبه بالسيدجوردان[2] يمارس التروتسكية من غير أن يدري . ولم يكن دوره في الحزب هاماً بما فيه

---

(١) : ان مقارنة بين الوثائق التي يتضمنها كتاب تروتسكي « مشكلات الثورة الصينية » وبين كتابات ماو في ١٩٢٦ – ١٩٢٧ تظهر أن وجهات نظرهما حول هذه المسائل كانت متماثلة كلياً . ويعطينا هو – كان – شيه في كتابه«تاريخ الثورة الصينية الحديثة » (الذي هو التقرير الماوتسي الرسمي عن الثورة الصينية) ، بغير قصد ، أمثلة أخرى كثيرة عن ذلك التماثل . ومن قبيل ذلك أنه يروي كيف أن ماو احتج ، في مستهل ١٩٢٦ ، على قرار الحزب الصيني بالتصويت لانتخاب تشان كاي شك للجنة التنفيذية للكيومنتانغ ، وبتأييد ترشيحه لمنصب القائد الأعلى للقوات المسلحة . وفي الوقت نفسه تقريباً كان تروتسكي يحتج في موسكو على انتساب كاي شيك عضو شرف في المكتب التنفيذي للكومنترن . إن المؤرخ الماوتسي لا يلوم غير شن – نو – هسيو على السياسة « الانتهازية » ، زاعماً أنه لا يعرف أن سلوك شن – تو – هسيو يتفسر بأوامر موسكو وان تشان كاي شك كان مرشح ستالين لمنصب القائد الأعلى .و« التاريخ » الماوتسي لا يتعرض بالذكر البتة لانتخاب تشان كاي شك عضو شرف في المكتب التنفيذي للكومنترن .

(٢) السيد جوردان : بطل مسرحية « البورجوازي النبيل » لموليير . كانت دهشته عظيمة عندما علم أنه كان يقول النثر من غير أن يدري منذ أربعين عاماً لمجرد أنه كان يتكلم كسائر الناس . « هـ. م »

الكفاية حتى يلاحظ الكومنترن هرطقته . لكنه بات منذ ١٩٢٦ ، على خلاف عميق مع اللجنة المركزية الصينية ومع شن ـ تو ـ هسيو ، قائد الحزب الذي لا منازع له ، والذي كان في البداية مرشد ماو الفكري والسياسي .

وفي « دراسة عن الحركة الفلاحيـــة في هونان » المكتوبة قبيل انقلاب تشان كاي شك ، يطلق ماو العنان لسخطه على قادة الكيومنتانغ أو الرفاق الحزبيين الذين يسعون إلى عرقلة غضب الفلاحين أو إلى وضع العقبات أمام الثورة الزراعية . انه يلومهم قائلاً : « من الواضح أن مثل هذا الموقف مناهض للثورة ولا يمكن أن يفيد غير الطبقة المالكة . إن من الواجب ألا يتبنى أي رفيق مثل هذه الأخطاء . وإذا كان المرء يملك وجهة نظر ثورية صريحة . ولو ذهب إلى الأرياف ولو لفترة وجيزة من الزمن ، لما أمكنه إلا أن يداخله السرور من رؤيته كيف أن ملايين الفلاحين المستعبدين يسوون هنا حساباتهم مع ألد أعدائهم . إن على جميع الرفاق أن يفهموا أن ثورتنا القومية تتطلب تمرد البلاد قاطبة .. ويجب أن يساهم الجميع في هذا التمرد ، وإلا وجدوا أنفسهم في معسكر الثورة المضادة » . ولقد كلف هذا الموقف ماو مقعده في اللجنة المركزية . وبالرغم من انه استعاده بعد عام ، إلا أن ذلك الأساس من الجذرية أو اللينينية الأصليـــة الذي كان فيه بقي حياً ، وهو الذي جعله عرضة للاتهام بالتروتسكية .. بعد ستة وثلاثين عاماً .

بيد أن فشل الثورة هو الذي أعطى الماوتسية نقطة انطلاقهـــا الحقيقية وصفتها النوعية بالنسبة إلى سائر تيارات الشيوعية وبالنسبة إلى اللينينية .

لقد انكفأ كثيرون من الشيوعيين الصينيين يفحصون ضمائرهم على أثر هزيمة الثورة ، وبخاصة عندما اطلعوا على حقيقة المساجلات التي أثارتها المشكلة الصينية في قلب المكتب السياسي الروسي . وقد حدثت ردود أفعال متباينة ومتناقضة . واضطر شن - تو - هسيو إلى الاعتراف بأنه ورط حزبه في طريق خاطىء ،

لكنه قال دفاعاً عن نفسه إن موسكو هي التي ضللتهم هو ورفاقه في اللجنة المركزية . كما اعترف أثناء عرضه بصورة دراماتيكية التاريخ الداخلي للثورة ، وفي سرده مناورات الضغط والشانتاج العديدة التي فرضتها عليه موسكو ، اعترف بأن تروتسكي كان صاحب وجهة النظر الصائبة . وقد عاد عليه هذا الكلام بالفصل من الحزب ، وافتري عليه واضطهد من قبل الكيومنتانغ والكومنترن على حد سواء[1].

وانطلاقاً من التشابه مع الثورة الروسية ، وقبولاً بالاتجاه الذي يقول به تروتسكي ، ارتأى شن – تو – هسيو وأصدقاؤه النادرون ان الصين ستمر بفترة من الجمود السياسي ، كمرحلة وسيطة بين ثورتين ، واقترحوا سلوك نفس مسلك البلاشفة إبان الفترة الوسيطية بين ١٩٠٧ و ١٩١٧ : أي التراجع الدفاعي ، والصمود في المصانع بخاصة ، وإعادة تشكيل الخلايا القديمة في المدن ،وتدعيمها، وخلق خلايا جديدة ، وتهيئة المراكز المستقبلة للثورة ، والتوفيق بين العمل السري والدعاية والتحريض المكشوفين ، والنضال من أجل « المطالب الجزئية » كالأجور والحريات الديموقراطية ، والضغط في سبيل توحيد الصين والمطالبة بجمعية وطنية تأسيسية ، ودعم نضالات الفلاحين ، والاستفادة من مختلف مظاهر الاستياء ضد دكتاتورية تشان كاي شك ، وتجميع القوى عن طريق مختلف هذه الوسائل للثورة القادمة التي ستكون أخيراً الثورة المتصلة التي بشر

---

(١) : كان مصير شن – تو – هسيو (الذي فضحه الكومنترن كـ «خائن» والذي سجنه واغتاله بوليس الكيومنتانغ) تحذيراً رهيباً لماو الذي بات يتجنب منذ ذلك الحين فصاعداً كل اعتناق مكشوف للارثوذكسية الستالينية ، حتى أثناء خلافه مع المدافعين المتعاقبين عنها في الصين . وفهم أن عليه ألا يجازف أبدا بصراع ضد ستالين وتشان كاي شك في آن واحد. وكان موقفه الحذر ، الملتبس ، تجاه الستالينية يعكس إلى حد ما الشعور بالضعف والتبعية حيال الدعم السوفياتي الذي كان قد دفع بشن - تو - هسيو إلى القبول بأوامر ستالين وبوخارين في ١٩٢٥ – ١٩٢٧ . لكن ماو ، بخلاف شن ، وبالرغم من كل احترامه الخارجي لستالين ، لم يتبدل قط رأيه في القضايا الصينية ولا خط سلوكه .

بها لينين وتروتسكي .

كان هذا يمثل نظرياً على الأقل ، منظوراً إجمالياً وبرنامج عمل متسقاً، وعلى العكس ، كان ما يعرضه الكومنترن ، بواسطة ممثليه لي لي – سان ووانغ مينغ خليطاً غير متجانس البتة من الانتهـازية الراسخة ومن تكتيك اليسار المتطرف الذي كان يهدف (التكتيك) إلى تبرير سياسة ١٩٢٥ – ١٩٢٧ والسماح لستالين بإنقاذ ماء وجهه . فقد كان الكومنترن يزعم على نحو إيماني بأن الثورة القادمـة لن تكون هي أيضاً سوى ثورة « ديمـو – بورجوازية » ، وكان من الممكن أن تستخدم هذه العقيدة الإيمانية فيما بعـد لتبرير العودة إلى سياسة مناصرة الكيومنتانغ و « تحالف الطبقات الأربع » من جديد . (كان ستالين يحتفظ دوماً بهذه السياسة كاحتياط حتى في أعنف سورات تطرفه) . وفي الوقت نفسه كان الكومنترن ينفي أن تكون الثورة الصينية قـد منيت بهزيمة ، ويشجع الحزب الصيني على القيام بعمليات وتمردات خاسرة سلفاً . وكان هذا التكتيك الذي بدأ مع العصيان المسلح في كانتون في كانون الأول ١٩٢٧،يتفق كل الاتفاق مع « الخط العام » الجديد للكومنترن ، الذي كان يتنبأ بأن الثورة وشيكة في الغرب والشرق على السواء ، ويدعو إلى « النضال المباشر في سبيل الاستيلاء على السلطة » وإلى رفض كل جبهة شعبية في أوروبا وإلى عدم الدفـاع عن الحريات الديموقراطية وإلى نشر الشعارات عن « الاشتراكية الفاشية » الخ . وقـد أدت هذه السياسة في ألمانيا إلى كارثة ١٩٣٣[١] . وفي الصين أدت العمليات الخاسرة سلفاً وغيرها من المغامرات السخيفة إلى تحطيم معنويات وتنظـيم ما تبقى من الحركة العاملة الصينية بعد هزيمة ١٩٢٧ .

على هذه الخلفية التاريخية أعلنت الماوتسية عن ظهورها . وبالرغم من أن المؤرخين الرسميين (بما فيهم ماو) يرفضون الاعتراف بذلك ، إلا أن ماو كان

(١) : عام استلام هتلر للسلطة . « هـ. م »

يشاطر شن – تو – هسيوفكرة أن الثورة هي في مرحلتها الهابطة وان الصين على عتبة جمود سياسي كبير . كان يرفض تكتيك الكومنترن المتطرف ، الذي بدأ مع عصيان كانتون وانتهى إلى « اللي – ليسانية » تحت أشكال شتى . بيد أنه كان يقول ، بخلاف شن – تو – هسيو ، أن الشيوعية لن تتاح لها لمدة طويلة من الزمن فرصة القيام بتراجع دفاعي في المدن واكتساب الطبقة العاملة من جديد نظراً ، في رأيه ، إلى عمق الهزيمة التي تلت استسلامـــات ١٩٢٥ – ١٩٢٧ . وصحيح انه لم يتخل البتة عن الأمل في رؤية بروليتاريا المدن تتمرد ذات يوم من جديد ، لكن اهتمامه بات منصباً منذ ذلك الحين فصاعداً على الفلاحين الذين لم يتوقفوا عن النضال وعن التمرد . ان ما كان يفترض فيه ، في البدء ، أنه محض صدى لثورة المدن في الأرياف ، كان ما يزال يدمدم مهدداً ، بينما كانت المـدن قد لاذت بالصمت . وراح ماو يتساءل : أمن الممكن في مثل هذه الحال أن يكون الأمر محض صدى ، أليس ممكناً ، على العكس أن يكون تمرد الفلاحين لا ترجيعاً لجزر ثوري ، بل موجة صاعدة لثورة أخرى ستجتاح الصين الريفية هذه المرة ؟ .

إن مؤرخ الماوتسية يستطيع أن يتتبع المراحل التي مرّ بها ماو ليعطي في النهاية لهذا السؤال جواباً إيجابيـــاً . ويكفي أن نذكر كيف انه انسحب في أواخر ١٩٢٧ ، بعد خصومته مع اللجنة المركزية ، إلى مسقط رأسه في هونان ، ثم كيف انسحب بعد سحق « تمرد حصاد الخريف » على رأس عصابات صغيرة مسلحة إلى الجبال على الحدود الفاصلة بين هونان وكيانغسي ، وكيف حث من هناك اللجنة المركزية على إخلاء المدن ونقل الحزب وقيادة أركانه وإطاراته الى الريف . ان كتب التاريخ الرسمية الصينية تعترف لماو بالفضل في انه وضع منذ ١٩٢٧ – ١٩٢٨ الاستراتيجية البصيرة التي حققت النصر بعـد عشرين عاماً . لكن ما كتبه ماو في تلك الحقبـــة يسمح لنا بالافتراض بأنه كان يعتبر ذلك التراجع إلى الأرياف حلاً مؤقتاً ، مجازفة لا بد من ركوبها ، لها حظ من النجاح

بينما لم يكن هناك أي حظ من النجاح لجهود الحزب لدفع العمال من جديد في عمل تمردي. ولم يكن يكف عن الترديد بأن «القاعدة الحمراء» التي أقامها هو وشوتيه في جبال هونان وكيانغسي ليست إلا « ملجأ موقتاً » لقوى الثورة. بيد أن هذا الحال المؤقت كان بشيراً بالاستراتيجية الماوتسية للأعوام التالية. وقد رد جميع قادة الحزب، من الانتهازيين إلى الجذريين المتطرفين، فكرة ماو، زاعمين أنها تعادل قطيعة مع اللينينية. وبالفعل من كان يستطيع أن يتصور لينين يغادر بترسبورغ وموسكو مع الحزب بعد هزيمة ١٩٠٥، ويذهب على رأس عصابات مسلحة صغيرة الى صحارى القفقاس أو الأورال أو سيبيريا؟ ان التقاليد الماركسية التي كانت تعطي المدن المكان الأول في الثورة الحديثة كانت عميقة الجذور في الاشتراكية الروسية بصورة لا يمكن معها لأي جماعة اشتراكية روسية أن تجازف أبداً بركوب مثل هذه المغامرة. ولم تخطر قط مثل هذه الفكرة حتى في بال الاشتراكيين - الثوريين، وأحفاد النارودنيك، الشعبيين والاشتراكيين الزراعيين.

(٤)

مع مرّ الزمن راح ماو يدرك على نحو أفضل مستلزمات موقفه، ويعترف بصراحة أكبر، في تبريره ضرورة التقهقر خارج المدن، بأن طبقة الفلاحين هي القوة الوحيدة الفعالة في الثورة. إذن فقد أدار ظهره، على الصعيد العمالي، للطبقة العاملة. واعتبر هذا الطريق الجديد إلى الاشتراكية ظاهرة صينية صرفاً، طريقاً ممكناً لأن الصين لم تكن بلداً مستقلاً أو خاضعاً لدولة امبريالية واحدة، بل كانت على العكس بلداً يجد نفسه عرضة لمزاحمة شديدة بين مختلف الدول، تملك كل منها منطقة نفوذها الخاصة وتجارها الكومبرادور و « زلمها » الذين تحركهم كما تشاء. وكان يؤكد أن هذه المزاحمة ستحول بين الصين وبين تحقيق

وحدتها القومية ، وان الكيومنتانغ لن يكون قادراً على النجاح حيث أخفقت الحكومات السابقة ، ولا على خلق إدارة وطنية متينة . كان في وسع تشان كاي شك ، ببضعة انتصارات عسكرية ، أن يسحق قوة العمال المتمركزة ، لكنه ما كان يستطيع أن يفعل الشيء نفسه مع الفلاحين الذين كانوا أقل عرضة ، نظراً إلى تشتتهم ، للارهاب الأبيض ، ويستطيعون الاستمرار في النضال عدة سنوات . إذن فقد كان من الواجب الحفاظ على « جيوب » في الصين الريفية تستطيع فيها قوى الثورة أن تعيش وتنمو . وهكذا تخلت الماوتسية عن منظور يقظة ثورية في المدن لتضع أملها في استمرار الثورة الزراعية . وكان ماو يتوقع أن تقوم هدنة طويلة الأمد بين الثورة المدينية المقهورة وبين ثورة مضادة مشلولة ، توازن مهتز لكن طويل الأمد بين الامبرياليين المنقسمين وبورجوازية الكيومنتانغ العاجزة والطبقة العاملة الغافلة . وكانت الهدنة تسمح للطبقة الفلاحية باستثمار حيويتها الثورية وبدعم الشيوعيين و« قواعدهم الحمراء » بوصفهم العناصر الأولى لنظام المستقبل . ومن هذه الفرضية استنتج عام ١٩٣٠ التعميم التالي بصدد الآفاق الدولية للشيوعية :

« إذا .. كانت القوى الذاتية للثورة الصينية ضعيفة في الوقت الراهن ، فكذلك هي الحال بالنسبة إلى الطبقات الرجعية الحاكمة وبالنسبة إلى تنظيمها.. القائم على نظام اجتماعي ـ اقتصادي وغير مستقر .. وربما كانت القوى الذاتية للثورة .. في أوروبا الغربية .: أكبر في الوقت الراهن مما هي عليه في الصين ، لكن الثورة لا يمكن أن تقوم فيها مباشرة لأن قوى الطبقات الرجعية الحاكمة في أوروبا أكبر بكثير مما هي عليه في الصين .. **إن الثورة ستقوم بلا شك في الصين بأسرع مما في أوروبا الغربية** » .

إن هذه الفكرة ، التي هي من السمات المميزة الأساسية للماوتسية ، لم تكن مبتكرة بتمامها ، فقد ظهرت عرضاً في بعض محاكمات لينين وتروتسكي وزينوفييف وستالين قبل عشرة أعوام . لكن ماو جعل منها حجر الزاوية في استراتيجيته في وقت

لم تكن فيه أي مدرسة فكرية شيوعيــة مستعدة لفعل ذلك . وقد أيدت الأحداث فيما بعد وجهات نظره . بيد اننا قد نستطيــع أن نبدي تحفظات لو وضعنا أنفسنا ، حتى يكون في مقدورنا الحكم على الاتجاه والعمل الماوتسيين ، في منظور العصر . إذ يمكننا أن نفترض أن تفوق « الطبقات الرجعية الحاكمة » في أوروبا الغربية ما كان سيكون ساحقاً إلى هذا الحد ، بل كان من الممكن أن ينهار لو لم تساهم السياسة الستالينية والاشتراكية — الديموقراطية بأخطائها (السلبية أزاء النازية الصاعدة ، واجهات الجبهات الشعبية الـكاذبة) في تدعيمه .

ويمكننا الافتراض كذلك أن الحل الماوتسي لم تكن تفرضه بالضرورة وبصورة مسبقة العلاقات الموضوعية بين القوى الاجتماعية في الصين ، وإن الطبقة العاملة الصينية كان في وسعها أن تعيد توكيد ذاتها سياسياً لو لم يفرط الكيومنتانغ دونما حذر بقواها ولو لم ينسحب الحزب الصيني خارج المدن ، متخلياً عن العمال في وقت كانوا أحوج ما يكونون فيه إلى المساعدة. والحق، وكما يحدث غالباً في التاريخ ، نجد هنا أن العوامل الموضوعية والذاتية متداخلة على نحو صميمي بصورة يستحيل معها للفصل بين تلك العوامل لتحديد أهميتهــا النسبية .

كما ينبغي أن نلاحظ أن وضع الماوتسية حوالي عام ١٩٣٥ كان في غــاية الحرج . فالأحداث قد دحضت تقريباً أو وضعت موضع تساؤل مبادئهــا الأساسية .

وفي جنوب الصين ، المنطقة الوحيدة التي مارس فيها ماو نشاطه حتى ١٩٣٥، كانت الطبقة الفلاحية قد أنهكتها نهائياً تمرداتها الكثيرة ، وسحقتها حمــلات تشان كان شك التأديبية .

و « القواعد الحمراء » في هونان وكيانغسي ، التي قاومت طوال سبعة أعوام

عمليات الإبادة التي شنها تشان كاي شك سقطت في النهاية في الحصار والمجاعة . وبالكاد أتيح لماو وشو تيه أن يخرجا بالأنصار من الفخ ويشرعا في المسيرة الطويلة . وهكذا اعترفا بهزيمتهما في ذلك الجزء من الصين الذي كان المسرح الرئيسي لعملياتهما . ولقد جرى كل شيء كما لو أن الثورة المضادة قد برهنت لا على ضعفها في الأرياف بل على تفوقها . وفي الوقت نفسه استيقظ عمال شانغهاي وغيرها من المدن الساحلية ونظموا إضرابات وتظاهرات عنيفة . لكنهم غلبوا في كل مرة على أمرهم نظراً إلى افتقادهم القيادة والتنظيم . والمؤرخون الماوتسيون يحذفون هذا الفصل حتى يتجنبوا التساؤل عما لو لم يكن في مقدور تلك النضالات العمالية في المدن ، لو توفرت لها قيادة فعالة ، أن تشق الطريق للثورة على نحو أسرع بكثير مما تمت به بدءاً من الأرياف . هل كان من المحتم أن تطول المرحلة المتوسطة بين الثورتين لا عشر سنوات ، كما حدث في روسيا ، بل أكثر من الضعف ، أم أن هذا له علاقة بالانسحاب الماوتسي خارج المدن ؟ مهما يكن من أمر (إن المؤرخ لا يستطيع إلا أن يكتفي بطرح السؤال من غير أن يجيب عليه) ، فإن الاستراتيجية الماوتسية كانت على شفا الإفلاس حوالي عام ١٩٣٥. ولقد أوردت هذه الوقائع لا بقصد الجدال ، بل بالأحرى لأن الاستنتاج الذي يمكننا أن نستخلصه منها يهمنا ، وأعني به أن الماوتسية كاستراتيجية للثورة تدين بتبريرها النهائي لمجموعة من الظروف البالغة التعقيد غير قابلة للتنبؤ بها إلى حد كبير .

في عام ١٩٣٥ خرج ماو من المأزق بفضل المسيرة الطويلة التي ستصبح فيما بعد الأسطورة البطولية للشيوعية الصينية . ومع ذلك لم يكن تحت أوامر ماو ، عند نهاية المسيرة الطويلة ، سوى عشر القوات التي كانت لديه في بداية المسيرة : ثلاثين ألف نصير من أصل ثلاثمئة الف . وقد نجت الماوتسية (بغض النظر عن إرادتها المستميتة في البقاء) بفضل حدثين أو سلسلتين من أحداث بالغة الأهمية ساهمت مساهمة حاسمة في تطورها فيما بعد : الغزو الياباني وتحطيم الغازي لصناعة الصين الساحلية بصورة منهجية . لقد عمق الفتح الياباني التناقضات بين الدول

الأمبريالية ، وأوقف عملية توحيد الصين التي كان قد بدأها الكيومنتانغ .

وقد أغرق هذا الفتح من جديد الطبقة الحاكمة الرجعية في العجز الذي بنى عليه ماو حساباته. كانت الصين الشمالية تغلي غلياناً ، وكان الكيومنتانغ عاجزاً عن تأمين الرقابة العسكرية عليها وعن منع ظهور وتوطد « مجالس السوفييت » في الشمال . وقد استمدت الماوتسية قوى جديدة من عجز الكيومنتانغ عن حماية استقلال الأمة ، ومن مقاومتها « اليعقوبية » الذاتية ، الثورية والوطنية ، ضد اليابان . ومن جهة أخرى اختفت الطبقة العاملة القليلة العدد عن المسرح السياسي على أثر التحطيم المنهجي لصناعة الصين الساحلية . فحين مزقت اليابان الشبكة الصناعية في شنغهاي أو في المدن الأخرى ، تفرق العمال وقد فقدوا كل شعور طبقي أو اختفوا في الأرياف . وقد كسبت الماوتسية من ذلك نوعاً من تبرير إرتجاعي . إذ لم يعد هناك أي أمل بصعود « موجة بروليتارية » جديدة في المدن . ولم يكن هناك أي حظ للبنية الطبقية لأعوام ١٩٢٥–١٩٢٧ في معاودة الظهور في الثورة القادمة. وبات المخطط الماركسي — اللينيني عن الصراع الطبقي غير قابل للتطبيق على الصين . فقد كان الفلاحون هم وحدهم الذين يناضلون لتقويض النظام القديم ، وكان حزب ماو يجمّع ويسلح اندفاعهم الثوري . ويومذاك ، أي في عام ١٩٣٧ ، توصل ماو إلى صياغة المبدأ الأساسي والأكثر ابتكاراً في استراتيجيته : إن الثورة الصينية ، بخلاف سائر الثورات ، ستبدأ من الأرياف لتجتاح المدن [١] .

---

(١) ينجم بوضوح مما سبق أن قيمة المنهج الثوري الماوتسي محدودة بالضرورة . وقد نوه بذلك ماو نفسه في بداية حرب الانصار ، فقد تكلم عن « الشروط الصينية الفريدة » التي يمكن لمنهجه أن يطبق عليها . ففي البلدان البدائية وحدها ، حيث لم تحقق الهيئة السياسية وحدتها القومية (أو عندما تكون هذه الوحدة قد تفسخت) وحيث لا وجود لبورجوازية قادرة على تأمين قيادة قومية ، يستطيع الأنصار الذين يتمتعون بدعم الفلاحين أن ينقلوا الثورة من الأرياف إلى المدن . وآنذاك تصبح مسألة قدرة الثوريين على إعطاء طابع اشتراكي لثورتهم مسألة منوطة =

(٥)

كانت العلاقات بين الماوتسية والستالينية ملتبسة من البداية والدوافع التي قادت الماوتسية إلى الاحتماء بظل الارثوذكسية الستالينية معروفة . ففي نهاية أعوام ١٩٣٠ أدرك ماو وزفاقه أن إحدى نتائج الحرب العالمية الثانية في حال اندلاعها ستكون زيادة نفوذ حكومة ستالين على القضايا الصينية . ولقد توجسوا من أن يُمارس هذا النفوذ بنفس الصورة المغرضة ، وبنفس الانتهازية التي مورس بها في ١٩٢٥ - ١٩٢٧ . وكانوا يعلمون أن مصيرهم معلق بحسن إرادة موسكو. لكنهم كانوا مصممين بحزم على ألا يتركوا موسكو تستخدمهم كما استخدمت من

= بأيديولوجيتهم وبالوضع الدولي . ان تحليل العلاقات الاجتماعية في الثورتين الكوبية والجزائرية ، وفي سائر الانتفاضات الأفرو - الأسيوية ، يمكن أن يبين إلى أي حد تكررت أو لم تتكرر الشروط « الصينية » في هذه البلدان . ومما لا ريب فيه أن القادة الظافرين لحركة من حركات الانصار يميلون إلى الاعلاء من شأن تجربتهم . وهكذا يوصي تشي غويفارا ، في دراسته عن حرب الانصار ، جميع ثوريي أميركا اللاتينية بالاستراتيجية الكاسترونية . بيد أن نصائح تشي غويفارا يمكن أن تؤدي إلى هزائم في تلك البلدان الأميركية اللاتينية التي يتمتع فيها النظام البورجوازي بوضع أمتن وأكثر مركزية مما كان عليه نظام باتيستا في كوبا .

ونستطيع أن نذكرهنا المثال المضحك لزعماء الثورة المضادة في الجزائر ، ضباط منظمة الجيش السرية ، الذين حاولوا بدورهم « أن يطبقوا بعض دروس الماوتسية » . ولا شك في أن ماو مرجع أساسي فيما يتعلق بالمظاهر العسكرية لحرب الأنصار . لكن السر الكبير لنجاح استراتيجيته يكمن في ارتباطها الوثيق بالثورة الزراعية . ومن المستحيل تطبيق تعليماته العسكرية منفصلة عن استراتيجيته الاجتماعية ، وهذا ما تعلمه زعماء منظمة الجيش السرية على حسابهم الخاص .

قبل تشان -تو- هسيو-ولي- لي – سان ووانغ مينغ . لن يسمحوا بأن يحال بين الثورة الصينية وبين المضي حتى غايتها . وهكذا لعبوا بحذر شديد ، متابعين استراتيجيتهم الخاصة المستقلة ومتجنبين إثارة شكوك ستالين أو غضبه . ومن غير الممكن أن يكون ستالين قد انخدع كلياً بهذه اللعبة . بيد أن الكومنترن لم يلجأ إلى فرض العقوبات . ولم يدن استراتيجية ماو « غير الماركسية » و « غير اللينينية » . وما كان ستالين ليسمح قط بشيء ما يشبه الهرطقة الماوتسية داخل حزب شيوعي يعمل في دائرة سياسية يعتبرها ستالين أكثر حيوية بالنسبة إلى مصالحه . لكن الماوتسية كانت بدأت عملها في منطقة كانت تبدو لستالين نائية وهامشية ، وكان ماو يتصرف كما تصرف بعض الهراطقة ، داخل حظيرة الكنيسة الكاثوليكية ، ممن كانوا يتحدون أسقفهم أو كاردينالهم مع تجنبهم بأي ثمن الصدام مع البابا . وفيما بعد ، عندما أصبحت الماوتسية عاملاً رئيسياً في القضايا الصينية السياسية ، كانت جذورها قد ترسخت عميقاً ، مع تجنبها في الوقت نفسه رفع راية التمرد العلني ، بحيث أن ستالين وجد نفسه مرغماً على اعتبار إقصاء ماو عملاً لا مجدياً وخطراً على حد سواء . وهو لم يكن يؤمن بالأصل حتى في عام ١٩٤٨ ، بأن أنصار ماو سيتمكنون ذات يوم من فتح الصين بأكملها ومن إنجاز الثورة . وكان يفكر باستخدامهم أما كقيمة تبادلية في المساومات مع تشان كاي شك الذي اعتبره من جديد حليفه الرئيسي في آسيا ، وإما كوسيلة للضغط عليه .

أما بالنسبة إلى الكومنترن ، فقد كانت الأعوام التي تلت ١٩٣٥ مرحلة « اعتدال » جديدة ، مرحلة الجبهات الشعبية . وكانت سياسة الجبهات الشعبية تعني ، في حال ترجمتها إلى الصينية ، إعادة « تحالف الطبقات الأربع » وإعادة « الصداقة » بين الكيومنتانغ والشيوعيين ، لكن في هذه المرة في جبهة متحدة ضد الغازي الياباني .

وكانت العقيدة الايمانية القديمة بصدد الطابع الديمو- البورجوازي المحض

للثورة الصينية ، وهي عقيدة لم تتلاشَ قط نهائياً في يوم من الأيام بل على العكس جرى التأكيد عليها مجدداً ، كانت تستخدم كتبرير « ايديولوجي » للسياسة الجديدة . وكانت المطالب الجديدة للكومنترن امتحاناً قاسياً للماوتسية التي كانت تخوض حرباً أهلية ضد الكيومنتانغ . ولم يكن في وسع ماو ورفاقه أن يبرهنوا على وفائهم للستالينيـــة إلا إذا أظهروا أنهم يقبلون بلا شروط بخط الكومنترن . وهكذا « اعتدل » ماو في نظامه في ينان وفي نشاطه الدعائي والتحريض . ووجه نداء الى تضامن الكومنتانغ الوطني وطالب بعمل مشترك ضد اليابان ، بل استخدم نفوذه لينقـــذ وضع تشان كاي شك ، وعلى الأرجح حياته في حادث سيان . لكن الأنصار لم يتخلوا قط للكومنتانغ عن شبر من الأرض أو السلطة اللتين استولوا عليهما .

بيد أن ستالينية ماو كانت مع ذلك ، وبمعنى ما ، أكثر من مجرد قناع . فإلحاح ماو على التأكيد على الطابع البورجوازي المحض للثورة الصينية كان يتطابق مع اندماج شخصية الأنصار بشخصية الطبقة الفلاحيـــة . ان منظور ثورة « متصلة » ، أي ثورة تحل المشكلة الزراعية وتوحد الصين **وتفتح الطريق لانتفاضة اشتراكية** كان فارغاً من المعنى أو غـير مقبول بالنسبة إلى الجمهرة الكبرى من الفلاحين . ولم يكن هناك من مجال لتطبيق تدابير اشتراكية في مجتمع شنسي ونينفسيا ما قبل الصنـاعي ، حيث كان الحـكم لماو إبان مرحلة ينان . وإنما بعد غزو المدن عام ١٩٤٩ وجدت الماوتسية نفسها مرغمة على مواجهة الطابع الذي لا مفر منه للثورة الدائمة وعلى الخضوع لقوانين هذه الثورة .

(٦)

السؤال الرئيسي الذي تطرحه جميع هذه الأحداث ، من وجهة نظر النظرية الماركسية ، هو معرفة كيف أمكن لحزب اعتمد لمدة طويلة من الزمن على الفلاحين وحدهم ، وناضل من غير أن تكون خلفه طبقة عاملة ، ان يتجاوز الطابع « البورجوازي » والزراعي للتمرد ويباشر المرحلة الاشتراكية من الثورة. لقد تجنب المؤرخون الشيوعيون حتى الآن المناقشة الصريحة لهذا السؤال المحرج ؛ وتركوه لـ « خبراء الماركسية » المعادين للشيوعية . يقول هؤلاء الأخيرون : ألم يدحض سير الأحداث في الصين مرة واحدة ونهائية جميع التصورات الماركسية واللينينية عن الثورة والاشتراكية ؟ ويضيفون: من المؤكد أن فكرة ثورة بروليتارية في الصين هي من عالم الأساطير ، والتجربة الصينية تثبت أن التجربة الروسية كانت هي أيضاً من عمل الأنتلجانسيا (« الشرهة إلى السلطة و « التوتاليتارية ») التي استخدمت الشغيلة ، وصبواتهم الاشتراكية المزعومة لتعطي ظاهراً من أيديولوجية لمطامحهم الشخصية . ويسرع ريمون آرون ، على سبيل المثال ، للتأكيد بأن هاتين الثورتين لم تفعلا من شيء سوى أنهما استبدلتا نخبة حاكمة بنخبة أخرى ، وهذا شيء لا يدهش قراء باريتو وماكس ويبر . (إن كاتباً مثل ش. رايت ميلز نفسه ، المقتنع بانسجام الماركسية مع مشكلات عصرنا ، قد استنتج أن الانتلجانسيا ، لا الطبقة العاملة ، هي « العامل » التاريخي الحقيقي للاشتراكية) . أما الماركسيون السابقون ، الذين اكتشفوا في الاشتراكية « وهم عصرنا » والذين يرون أن الواقع الذي تخفيه هو رأسمالية الدولة أو الجماعية البيروقراطية ، فإنهم يستنجدون بالشعار

الماركسي القديم القائل إن « الاشتراكية ستكون من صنع العمال أو لن تكون » ويتساءلون على الفور : كيف يمكن إذن أن نطلق اسم الاشتراكية على ثورة لم يلعب فيها العمال أي دور ؟ والحق أنه يمكننا أن نتساءل ، انطلاقاً من سياق ومستوى للمناقشة مختلفين ، عما إذا كان السجال الروسي المشهور بين النارودنيك والماركسيين حول الدور النسبي للعمال والفلاحين في الثورة الحديثة قد سُوي بصورة نهائية حقاً ، كما كان يبدو ؟ وعلى فرض أن الماركسيين كانوا على حق في روسيا ، أفلم يجد النارودنيك تبريرهم في الصين ؟ ألم يتضح أن الطبقة الفلاحية هي الطبقة الثورية الوحيدة ، وعامل الاشتراكية الحاسم ؟

لا مجال للشك في أن حصيلة الماوتسية ترغمنا على إعادة نظر نقدية في بعض توكيدات الماركسيين وبعض حججهم المعتادة . وقد سلط الضوء على هذه الضرورة الحكم الذي أصدره تروتسكي في أعوام ١٩٣٠ على الماوتسية . فلقد نفى تروتسكي نفياً قاطعاً ، مع فهمه كل أهمية التمرد الفلاحي في الصين ، لكن لشكه في صحة الانسحاب الماوتسي خارج المدن ، نفى أن يكون في الإمكان إنجاح الثورة من غير أن تولد الحركة الثورية من جديد لدى عمال المدن . كان يخشى من أن تتحد الماوتسية نهائياً ، بالرغم من أصلها الشيوعي ، بالطبقة الفلاحية فتصبح ناطقة بلسانها لا أكثر ، أي في النهاية المدافعة عن ملاك الأراضي الصغار .

ويتابع تروتسكي قائلاً : إذا حدث ذلك ، فإن أنصار ماو مهددون ، عند عودتهم إلى المدن ، بالاصطدام العنيف مع البروليتاريا المدينية وبالتحول إلى عامل مناهض للثورة ، ولا سيما في اللحظة الحرجة التي ستتجه فيها الثورة الى الانتقال من المرحلة البورجوازية إلى المرحلة الاشتراكية . وان تحليل تروتسكي هذا ، الذي كان يعكس عشرات السنوات من السجال بين الماركسيين والنارودنيك وتجربة الثورة الروسية ، أصبح لاغياً ولا معنى له عندما فضح بعض تلامذة تروتسكي الصينيين انتصار الماوتسية في عام ١٩٤٩ على انه انتصار « ثورة مضادة بورجوازية وستالينية » .

إن ظاهرة ثورة حديثة اشتراكية (على فرض أنها « بيروقراطيةوجماعية») لم يكن محركها الرئيسي الطبقة العاملة ، كانت ظاهرة لا سابق لها في التاريخ . فما الذي سمح للثورة الصينية بتجـــاوز المرحلة البورجوازية ؟ كانت الطبقة الفلاحية تتمنى إعادة توزيع الأراضي ، وإلغاء أو تخفيض الأجارات والديون ، وتدمير سلطة « سادة الأرض » ، وبكلمة واحدة انتفاضة بورجوازيةوزراعية. وما كان في وسعها أن تعطي الثورة دفعاً اشتراكياً . وقد أبدت الماوتسيـة ، طالما كانت تعمل داخل الطبقة الفلاحية وحدها ، تحفظاً ما بعده تحفظ حيال حظوظ الاشتراكية في الصين . وقد تبدل هذا الموقف مع فتح المدن وتوطـــد الرقابة الماوتسية . بيد أن المدن كانت شبه ميتة سياسياً ، وإن كانت بعض بقايا الحركة العاملة القديمة ما تزال تختلج هنا وهناك .

إن أمامنا هنا ، وعلى نطاق جبار ، ظاهرة من ظواهر « الاستبدال » ، حيث نرى حزباً أو جماعة من الزعماء يمثلان طبقة اجتماعية غائبة أو يحلان نفسهما محل طبقة اجتماعية هامـدة النشاط . ولقد عرفت الثورة الروسية المشكلة نفسها ، لكن تحت شكل مغاير جداً . فالطبقة العاملة ، في روسيا ١٩١٧ ، كانت بدون أدنى شك محرك الثورة . بيد أنها تفتتت وتشتتت بعد الحرب الأهلية ، وعلى أثر الأنهيـار الاقتصادي وخراب الصناعات . وطرح الحزب البولشفي نفسه على أنه بديلها ، وعلى أنه الأمين على الثورة وحارسهـا الوحيد . وإذا كان قـد تولى هـذا الدور **بعد** بضعة أعوام من الثورة ، فإن الماوتسية قد تولته **قبل** الثورة بمدة طويلة **وأثناءها** ، بدون أن تعاني البتة من هواجس الضمير وأزماته التي هزت حزب لينين .

إن تلامذةبيراتو ، الليبيراليين أو « الراديكاليين » الذين لا يرون في الثورات سوى استبدال لنخبة بنخبة أخرى ، يلقون هنـا تأييداً لوجهات نظرهم . لكن يتوجب عليهم أن يفسروا بضعة أمور أيضاً . فلماذا قررت النخبة الماوتسية أن تسير بالثورة في منعطف اشتراكي (أو جماعي) بدلاً من أنتبقيها

في الحدود البورجوازية ، ولماذا سلكت النخبة الشيوعية الصينية سلوكاً مغايراً جداً لسلوك نخبة الكيومنتانغ ؟ إننا لا نستطيع حتى أن نتحدث عن نخبة فتية حلت محل نخبة استهلك العمر حيويتها ، لأنهما كانتا متعاصرتين ودخلتا المسرح السياسي في وقت واحد . فكيف أمكن إذن لماو ورفاقه إن يعطوا الصين بنية اجتماعية جديدة بينما غرق تشان كاي شك وأصدقاؤه في البنية القديمة؟ وبمَ يمكن أن نفسر الفرق بين صرامة الماوتسية الطهرانية وفساد الكيومنتانغ المشهور ؟ إن الجواب لا يدع مجالاً لشك : إن تشان كاي شك ورجاله قد اتحدوا بالطبقات التي كانت صاحبة الامتياز في ظل النظام القديم بينما عانق ماو وأتباعه قضية المضطَهدين السابقين . ولقد كان ، وراء حلول نخبة محل أخرى ، تحويل عميق للعلاقات الاجتماعية الأساسية في الصين ، وأفول طبقة اجتماعية وصعود طبقة أخرى . إن كل إنسان يعرف كم دعم الفلاحون الأنصار طوال إثنتين وعشرين سنة من النضال المسلح . ولولا هذا الدعم لما أمكن للأنصار الصمود ، ومتابعة المسيرة الطويلة ، ونقل قواعدهم من أقصى الصين إلى أقصاها ، وإحباط قوى الكيومنتانغ العسكرية التي كانت أقوى منهم بما لا يقاس ، وصد جميع العمليات التي كانت تستهدف إبادتهم .

لقد كانت الوشائج بين الأنصار والفلاحين قوية للغاية وصميمية للغاية حتى أن ماو بدا لبعض الشخصيات ، أصديقة كانت أم عدوة ، زعيماً لعصيان فلاحي جبار أكثر منه قائداً لحزب شيوعي .

بيد أن هذا الزعيم الفلاحي كان قد مر بمدرسة اللينينية ، وحتى لو كان ابتعد عنها كثيراً في مناهج عمله ، إلا أن هذا ليس بذي أهمية : فالأفكار العامة للينينية ظلت توجه فكره وعمله . إنه لم يتخل عن قناعاته الاشتراكية (أو الجماعية) لصالح فردية الفلاحين وتشبثهم بالملكية الخاصة ، في الوقت الذي كان يبذل فيه قصارى جهده ليرضي هذه الفردية وليسلط الضوء على ما فيها من طاقة بورجوازية — ثورية . كما ينبغي إلا ننسى أن الحركات الثورية الزراعية قد

نتجت دوماً شيوعيين طوباثيين . إن للفلاح « روحين » على حد تعبير لينين ، إحداهما تصبو إلى الملكية ، بينما يلذ للأخرى أن تتخيل مجتمعاً قروياً يملك فيه أعضاؤه الأرض ويزرعونهـــا بالتشارك . ويمكننا القول إن الماوتسية تعبر عن « روحَيْ » الطبقة الفلاحية ، مع فارق واحد هو أنها لم تقتصر قط على أن تكون الناطقة بلسان الطبقة الفلاحية وحدها . فلقد اعتبرت نفسيادوماً وريثة ثورة ١٩٢٥ — ١٩٢٧ المقهورة التي كان العمال محركها . ترى إذا كانت الماوتسية قد اتحدت نظرياً بهؤلاء العمال ، فهل ظلت مرجِّعة لصدى صبواتهم الاشتراكية ؟ أ كان ذلك افتراضاً أم احتيالاً ؟ لكن هل كان في مقدور حزب وفي للبرنامج الشيوعي أن يفعل غير ذلك على أثر تشتت الطبقة العاملة المدينية وركود المدن السياسي ؟ .

إن الماوتسية ، بمتابعتها الثورة إلى ما بعد المرحلة البورجوازية ، لم تكن تحركها التزاماتها الإيديولوجية فحسب ، بل أيضاً مصلحة قومية حيوية . فقد كانت عازمة على أن تجعل من الصين أمة موحـــدة وحديثة . وكانت تجربة الكيومنتانغ ماثلة برمتها أمام الأنظار لتبرهن على أن هذه الأهداف لا يمكن الوصول إليها بدءاً من رأسمالية متخلفة ، أجنبية الأصل إلى حد كبير ، وملصوقة على بنية رعوية عمادها ملكية الإرض . كان تأميم الصناعة والنقل والمصارف ، والتخطيط الاقتصادي ، الشرط الضروري المسبق لكل محاولة ، وان محدودة ، لاستثمار موارد الصين استثماراً عقلانياً ، ولكل تقدم اجتماعي . وكانت الوسيلة الوحيدة لتوفير هذا الشرط هي الشروع بثورة اشتراكية . وهـــذا بالضبط ما فعلته الماوتسية . هذا لا يعني انها جعلت من الصين مجتمعاً اشتراكياً . لكنها استخدمت كل ذرة من طاقة الأمة لتوجد البنية الاجتماعيـــة — الاقتصادية التي لا غنى عنها للاشتراكية ، ولتوجد وتطور وتثقف الطبقة العاملة التي تستطيـــع وحدها في النهاية أن تجعل من الاشتراكية حقيقة واقعة .

وقد ساهمت عوامل دولية ، وفي المقام الأول العلاقات بين الصين والاتحـــاد

السوفياتي ، في تحديد مجرى الثورة ومآلها . كانت هذه العلاقات أوسع وأكثر ايجابية بكثير من الصلات الملتبسة بين الماوتسية والستالينية . ومهما تكن تقلبات النظام السياسي في الاتحاد السوفياتي ، لم ولا يمكن فعل الثورة الصينية عن الثورة الروسية . وبالرغم من أن جيوش الانصار لم تتلق دعماً يذكر من السوفييت ، وبالرغم من أنها أطاحت بنير الكيومنتانغ متحدية عدم موافقة ستالين ، فإن الصين الحمراء ، التي ولدت في عالم مشطور إلى كتلتين ، ما كان في إمكانها ، أمام عداء الاميركان وتدخلاتهم ، إلا أن تنحاز في سياستها إلى جانب سياسة الاتحاد السوفيتي . وكان هذا الانحياز بالنسبة إلى الماوتسية ، سبباً إضافياً لتجاوز المرحلة البورجوازية من الثورة . وكانت الضمانة النهائية لمتانة هذا الانحياز البنية الجماعية للاقتصاد الصيني .

وكما ذكرت في كتابي « النبي المنفي »، كانت الهيمنة الثورية للاتحاد السوفياتي تجعل من الممكن ، بالرغم من معارضة ستالين في البداية ، أن يتحقق ما كان العمال الصينيون قادرين وحدهم على تحقيقه : جر الثورة الصينية باتجاه مضاد للبورجوازية واشتراكي . ونظراً إلى أن البروليتاريا الصينية كانت مشتتة كلها تقريباً أو غائبة، من المسرح السياسي ، استطاعت قوة الاتحاد السوفياتي الجاذبة أن تجعل من جيوش ماو الفلاحية أدوات تطبيق الجماعية » .

انه ما من كتاب ماركسي مدرسي قد استطاع أن يتوقع تركيباً أصيلاً ومبتكراً كهذا لعوامل قومية ودولية في ثورة ما . أن الماوتسية لا تتفق وأي مخطط نظري مسبق . فهل في هذا دحض للماركسية في تحليلها للمجتمع وتصورها للاشتراكية ؟ عندما كان ماركس وانجلز يتكلمان عن الطبقة العاملة بوصفها عامل الاشتراكية ، كانا يفترضان بالطبع وجود هذه الطبقة . ولم تكن فكرتها تنطبق على مجتمع ما قبل صناعي لا وجود فيه لمثل هذه الطبقة . ويجدر بنا ان نذكّر بأنهما نوها بنفسيهما بهذه النقطة أكثر من مرة، بل توقعا حق امكانيّة ثورة من نمط الثورة الصينية . وقد فعلا ذلك في تبادلهما وجهات النظر

مع النارودنيك في عامي ١٨٧٩ و ١٨٨٠ . كان النارودنيك ، كما هو معروف ، يرون في الطبقة الفــلاحية القوة الثورية الاساسية في روسيا : إذ لم يكن هناك وجود بعد لأي طبقة عاملة في بلادهم . وكانوا يأمـلون بأن روسيا الموجيك إذا ما حافظت على « الأوبشينا » (أي الكومونة القروية) ، فربما وجدت طريقها إلى الاشتراكية وتجنبت توسع الرأسمالية . ولم يدحض ماركس وانجلز هـذه الآمال برمتها . بل على العكس ، صرح ماركس في رسالة مشهورة موجهة إلى صحيفة « اوتيشيسفيتفني زابيسكي » ان روسيا « لها أكبر حظ (في الافلات من الرأسمالية) أتاحه التاريخ لأمة » وانها تستطيع ، حتى في درجة المجتمع الزراعي ما قبل الصناعي ، أن تبدأ بالتقدم نحو الاشتراكية .

لكن كان لهذا شرط ضروري في نظره : أن تقوم أوروبا الغربية بثورتهـا الاشتراكية قبل أن تسقط روسيا في الرأسمالية . إذ أن روسيا ستجد نفسها في هذه الحال مجذوبة بالقوة الجاذبة للاقتصاد الاشتراكي المتقدم في أوربا. وقد عاد ماركس إلى وجهة النظر هذه بعد بضع سنوات في مناقشة مع فيرا زاسوليش محدداً ان مخططـه عن التطور الاجتماعي والثورة كما عرضه في « الرأسمال » وفي كتابات أخرى ينطبق على اوروبا الغربية ، وان روسيا يمكن أن تسير في طريق تطور مغاير . وقد أبدى انجلز آراء مشابهة بعد موت ماركس .

إن هذا كله معروف وغالباً ما نوقش . أما ما كان أقل وضوحاً ، فمقتضيات هذه الأطروحة . كيف كان ماركس يرى عـــلاقات القوى الاجتماعية في تلك الثورة الروسية الافتراضية ؟ بديهي أنه لم يكن يرى أن الطبقة العاملة محركها الرئيسي . فالثورة لن تجد عمادها إلا لدى الطبقة الفلاحية . ومن الواجب أن يكون قادتها رجـــالاً كالنارودنيك ، من أعضاء الانتلجانسيا ، تعلموا بعض الأشياء في مدرسة الفكر الماركسي وعانقوا المثل الأعلى الاشتراكي ، ويعرفون كيف يعتبرون أنفسهم مفوضي جميع الطبقات المضطهدة في المجتمع الروسي . ولقد كان النارودنيك مثال « الاستبداليين » ، يعملون بالنيابـة عن طبقة عاملة

غـــير موجودة وعن طبقة فلاحية ، سلبية لم يكن الموجيك يدعمونهم) ، ويعتبرون أنفسهم أبطال ما يرون أنه ضروري لتقدم المجتمع في مجموعه . ومع ذلك كان ماركس وانجلز يشجعانهم على التصرف كما يتصرفون ويريان أن عملهم سيفيد الاشتراكية إذا ما حولت الثورة في البلدان المتقدمـــة المنظور الدولي في حينه .

وصحيح أن اطروحة ماركس لم يؤكدها مـــا حدث في روسيا ، لأن الطبقات العاملة في أوروبا الغربية ، كما لاحظ انجلز فيما بعد ، كانت « أبطأ ممـا ينبغي » في تحقيق ثورتها ، وأثناء ذلك كانت روسيا قد سقطت في الرأسمالية . بيد أن هذه الأطروحه تجسدت في الصين ، على نطاق أوسع بما لا يقاس ، وفي ظرف دولي مغاير . وينبغي أن نلاحظ أن الماوتسيين كانوا يتمتعون لدى الطبقة الفلاحية بنفوذ أكـــبر بكثير من نفوذ النارودنيك ، كما كانوا يتمتعون بنضج سياسي أكبر بكثير – كانوا يعتمدون على العمل الجمـــاهيري لا على الارهاب الفردي – وكان في مقدورهم عند استلامهم السلطة الاعتماد على البنية الجماعية المتقدمة في الاتحاد السوفياتي الذي كان في سبيله إلى الانتقال إلى الصف الثاني من الدول العالمية ، حتى على الصعيد الاقتصادي . ان الماركسية ، بإعلانها أن الاشتراكية لا يمكن إلا أن تكون من صنع العـــمال ، لم تستبعد احتمال ثورة اشتراكية ، في البلدان التي ما تزال في المرحلة ما قبل الصناعية ، لكن حتى في هذه الحال تظل الطبقة العاملة عامـــل الاشتراكية الرئيسي ، من حيث أن الاشتراكية لا يمكن أن تتفتح تمـــام التفتح إلا إذا كان هناك تصنيع وتطور للطبقة العاملة وإحباط لكل بيروقراطية قد تظهر بعد الثورة على يد هذه الطبقة العاملة بالذات : وبكلمة واحـــدة ، إلا إذا كان هناك نضج سياسي واجتماعي للبروليتاريا في المجتمع ما بعد الرأسمالي .

(٧)

لقد تبلورت التصورات الراهنة للماوتسية في المرحلة ما بعد الثورية ، التي بات لها من العمر حوالي خمسة عشر عاماً. ومع ذلك لم يكن الاستيلاء على السلطة بالنسبة إلى الماوتسيين منعطفاً مباغتاً وحاسماً بنفس الدرجة التي كان عليها بالنسبة إلى البلاشفة : فحتى عندما كانوا يعملون كأنصار ، كان تحت سيطرتهم قسم كبير من البلاد . وقد تمرن قادتهم واطاراتهم إبان العمل السري على مهامهم الحكومية . وقد اضطر الحزب ، يوم انتصر ، إلى أن « يتمدين » وأن يواجه مهمات أوسع وأكبر عدداً. لكنه كان أكثر استقلالاً عن الاطارات البيروقراطية القديمة من البلاشفة ، وكان بالتالي ، وعلى الأرجح ، أقل تعرضاً لتسرب العناصر الغريبة على الصعيد الايديولوجي أو الاجتماعي .

من المؤسف أننا لا نستطيع أن نصدر حكماً قطعياً ودقيقاً بصدد هذه المسائل ، لأن الماوتسيين لا يقدمون لنا ما فيه الكفاية من المعلومات . ان حبهم للسرية جعل معلوماتنا عن التاريخ الداخلي لفترة الخمسة عشر عاماً التي انقضت على استلامهم الحكم أقل بكثير مما تعلمنا المصادر البلشفية الرسمية عن السنوات الأولى من النظام البلشفي . وإذا أردنا مقارنة الماوتسية والبولشفية ، فلا بد أن نقوم بها على أساس الرجوع إلى الوراء فترة زمنية متماثلة بدءاً من تاريخ الثورة ، أي يتوجب علينا على سبيل المثال أن نقارن صين ١٩٦٣ – ١٩٦٤ مع الإتحاد السوفياتي بعد ١٩٣٠ . وهذه المقارنة ، إذا اقتصرنا على الوقائع العامة المعترف بها ، تبرز تشابهات وفروقاً وتباينات جوهرية يمكن أن تسلط لنا الضوء على لوحة

الماوتسية في مرحلتها ما بعد الثورية .

انه لمن حشو الكلام أن نقول إن الثورة الصينية تمت في سياق اجتماعي – اقتصادي أكثر تخلفاً من سياق الثورة الروسية. فإنتاج الصين الصناعي لم يتجاوز قط جزءاً من إنتاج الاتحاد السوفيـــاتي ، جزءاً صغيراً لا يذكر إذا ما قيس بحاجات سكان أكبر عدداً بكثير . وهذا يتفسر بهيمنة بنية زراعية باليــة كل البلى . فقد كان الفلاحون الصينيون أكثر بدائية من الفلاحين الروس، بالرغم من أنهم كانوا أكثر استقلالاً وعفة وقدرة على العمل ، نظراً إلى أنهم لم يعانوا من قرون كاملة من العبودية . إن الجمود الاقتصادي والتكنيكي والاجتماعي ، والبقايا الصلبة من النظام القبلي ، والعبادات الدينية المتحجرة السحيقة القدم ، إن هــذا كله قد جعل مهمة الثوريين الصينيين أصعب أيضاً ، وكان له أثره على الماوتسية في مناهجها الحكومية ومواقفها الايديولوجية .

ولما كانت الماوتسية مصممة على تصنيع الصين ، فقد بدأت بتحقيق التراكم الاشتراكي انطلاقاً من مستوي أكثر انخفاضاً بكثير عن مستوى روسيا . فندرة الموارد المادية والثقافية ، تلك الندرة الفريدة من نوعها ، فرضت توزيعاً غير متساوٍ للبضائع ، وتكوين جماعات ذات امتياز ، وولادة بيروقراطية جديدة. وقد وجد التاريخ والعادات والتقاليد القومية ، بدون أن ننسى التأثيرات العميقة للكونفوشيوسية والتاوية ، وجدت انعكاساً لها في الطابع الرعوي للحكم الماوتسي ، وفي الأسلوب الهرمي لعمله ودعايته بين الجماهير ، وفي الهالة السحرية التي يحاط بها الزعيم . والماوتسية ، شأن الستالينية – وتحت تأثيرها جزئياً – لا تسمح بأي انتقاد **للكاهن الأكبر** وللتسلسل الهرمي ، ولا بأي مناقشة مفتوحة . ونظراً إلى أن الحزب عاش عشرين عاماً على شكل تنظيم عسكري قبل استلامه السلطة ، فقد ساعد ذلك على بقاء الانضباط غير المشروط والطاعة العمياء .

ومع ذلك ، وبالرغم من نقاط الضعف هذه ، كانت الثورة ، في بعض الميادين

أكثر جذرية من الثورة الروسية ، لمجرد أنها قامت بعدها على الأقل . وهي لم تعرف العزلة الرهيبة التي شلت وشوهت طابع البولشفية . فقد جاءت الصين الحمراء إلى العالم كعضو في « المعسكر الاشتراكي » ، تحت حماية حليف له مطالبه في بعض الأحيان ، لكنه قوي : الاتحاد السوفياتي . بل ان حدودها الأكثر عرضة للخطر وجدت الحماية إلى حد ما في موجة عداء الامبريالية التي اجتاحت آسيا . وبالرغم من العداء الأميركي ، لم تضطر صين ماو الى الدفاع عن نفسها ضد حملة تشبه من قريب أو بعيد « صليبية الدول الأربع عشرة » التي اضطرت روسيا ولينين وتروتسكي إلى صدها . وعندما اندفعت الصين في عملية التراكم الاشتراكي ، لم يكن اعتمادها على مواردها الزهيدة وحدها : فالمعونة الروسية ، على محدوديتها ، سمحت لها بمباشرة التصنيع . والأهم من المساعدة المادية هو الدرس الذي أمكن للصين أن تستخلصه من التجربة الروسية : فقد كانت روسيا رائدة التشريك والتخطيط الاقتصادي ، وكانت قد دفعت ثمن ذلك غالياً ، أما الصين فقد أمكنها أن تتجنب دفع مثل هذا الثمن الباهظ . وقد تم تصنيعها ، بالرغم من الفشل الجزئي لـ « الوثبة الكبيرة إلى الأمام » ، على نحو أكثر انسجاماً من تصنيع روسيا في الآونة الأولى . وبالرغم من سلسلة طويلة من الكوارث الطبيعية والمحاصيل السيئة ، لم تعرف الصين واحدة من تلك المجاعات الرهيبة التي كابد منها الاتحاد السوفياتي عام ١٩٢٢ وفي أعوام ١٩٣٠ – ١٩٣٢ ، والتي مات فيها ملايين الناس جوعاً .

ومجمل القول إن التوترات الاجتماعية كانت أقل حدة وأقل خطراً بما لا يقاس في الصين منها في الاتحاد السوفياتي . كما أن النزاع ما بعد الثوري بين الحكام والمحكومين كان أقل خطورة أيضاً . وقد استفادت الماوتسية الحاكمة من ثقة الفلاحين إلى درجة لم تدركها قط البولشفية .

وقد كان الصينيون أكثر حذراً وأقل تهوراً في تطبيق الجماعية على المزارع ، وكان نجاحهم لمدة طويلة من الزمن أكبر بكثير . بل أن الكومونات القروية

نفسها لم تواجه على ما يبدو عداء الفلاحين بنفس الدرجة الضارة التي واجهته بها الجماعية الستالينية .

ان امتناع الطبقة الفلاحية الصينية عن معارضة النظام بحقد عنيف قد أثر على موقف سائر طبقات المجتمع : على العمال الذين كانوا يجندون من بين الفلاحين، ويعكسون بالضرورة حالتهم المعنوية ، وعلى ذلك القسم من الانتلجانسيا الذي تمتد جذوره في الريف . كذلك فإن البورجوازية الصينية لم تعاد النظام الجديد بنفس الحدة التي عادته بها في حينه البورجوازية الروسية التي كانت تشعر بأنها مدعومة من قبل الفلاحين . ثم إن حكومة ماو عرفت كيف تداري البورجوازية أكثر من حكومة لينين . ففي كل مرة أمكنها ذلك ، اشترت أملاك المقاولين الصغار والتجار بدلاً من أن تصادرها .

هناك فرق آخر يتعلق بنقطة انطلاق الثورتين ساهم في جعل المناخ الاجتماعي في الصين أقل عنفاً منه في الإتحاد السوفياتي . فالحرب الأهلية في روسيا حدثت **بعد** الثورة بينما جرت في الصين **قبلها** . وانه لمن بالغ الأهمية فيما يتعلق بعلاقات الحزب الشيوعي مع سائر طبقات المجتمع أن يكون هذا الحزب قد خاض الحرب الأهلية وهو في الحكم أو خاضها وهو في المعارضة . فإذا ما اضطر الشيوعيون إلى القتال ، كما كانت الحال بالنسبة الى البلاشفة ، بوصفهم حزباً حاكماً ، اعتبرهم الشعب مسؤولين عن فظائع الحرب الأهلية التي لا يحصى لها عدد (بوجه عام ينقلب يأس الشعب وتمرده حيال شروط وجوده على الحكومة) . ففي ١٩٢١ - ١٩٢٢ كانت قد مضت أربع أو خمس سنوات على البلاشفة وهم في الحكم ، من غير أن يتمكنوا من اتخاذ أي تدبير لتحسين مصير العمال والفلاحين، ولا حتى لوضع حدّ للكارثة . كان العمال والفلاحون الروس يتساءلون غاضبين : « أمن أجل هذا قمنا بالثورة ؟ أهكذا يفي البلاشفة بوعودهم ؟ » .

وهكذا انحفرت هوة بين الحكام والمحكومين ، هوة يستحيل ردمها ، أثارت

لدى البلاشفة ردود فعل من الريبة والدفاع الذاتي ، الشيء الذي جعلها أكثر عمقاً حتى لم تعد هناك من وسيلة قط لتخطيها ، لقد كانت بمثابة تهديد لم تتوصل حكومة ستالين قط إلى التخلص منه .

والعكس هو الذي حدث في الصين . فالشعب كان يعزو فظائع الحرب الأهلية إلى حكومة تشان كاي شك . وقد جاءت الثورة كخاتمة للقتال ، لا كبداية له . وعندما استولى الشيوعيون على السلطة ، أمكنهم أن يصبّوا كل اهتمامهم على المشكلات الاقتصادية وأن يستخدموا بصورة بناءة جميع الموارد التي في متناولهم ، بحيث أن وضع الشعب تحسّن بسرعة وعلى نحو منتظم . وهكذا تميزت الاعوام الاولى من النظام بصعود الثقة الشعبية ، ولم تسبب الخيبة للجماهير . وإذا كان البلاشفة قد باشروا بتصنيع روسيا بعد أن استهلكوا حظوتهم السياسية لدى الجماهير ، فإن الماوتسيين أمكنهم أن يستفيدوا من حظوة كبيرة ومتنامية باستمرار . وبالتالي لم يحتاجوا إلى نفس القدر من الاكراه لتحقيق برنامجهم الطموح . ولم يضطروا إلى الاعتماد على الانضباط اللاإنساني الذي فرضه ستالين على العمال . كما لم يضطروا إلى إرسال حملات تأديبية إلى القرى ليغتصبوا من الفلاحين قمحهم ، ولا إلى تنظيم عمليات نفي وتهجير جماعية . قال لينين ذات يوم إن تحقيق الثورة في روسيا أسهل بكثير من بناء الاشتراكية ، وإن الإطاحة بالبورجوازية في البلدان الأخرى ستكون أصعب بكثير ، لكن تنظيم مهام الثورة البنائية سيكون بالمقابل أسهل بكثير . وقد صاغ لينين هذه النبوءة بصدد أوروبا الغربية ، لكنها تحققت إلى حد ما حتى في الصين . فبالرغم من أن الموارد المادية للثورة الصينية كانت أدنى بكثير من موارد الثورة الروسية ، إلا أن مواردها المعنوية كانت متفوقة . وفي الثورات كما في الحروب ، كما يقول نابليون ، تتفوق العوامل المعنوية على العوامل المادية بثلاث مرات من حيث الأهمية .

كانت الماوتسية إذن أقل معاناة بكثير من الستالينية لهاجس الخوف . والتوترات لم تكن أقل انفجاراً وتدميراً في مجمل الأمة فحسب ، بل أيضاً في

قلب الحزب الحاكم . ومن مفارقات الأمور ان الماوتسية استفادت ، في هذا المجال ، بعض الفائدة من مختلف البلاد ، بينما عانت البولشفية من تقدم روسيا النسبي . إن توطيد حكم الحزب الواحد في الصين لم يكن ، كما في روسيا ، أزمة مؤلمة ودراماتيكية ، نظراً إلى أن الصينيين لم يعرفوا قط تجربة تعدد الأحزاب ولم يكن هناك من جذور في التربة الصينية لأي نزعة إصلاحية اشتراكية — ديموقراطية . ولم تعرف الماوتسية قط الأعداء المتنفذين الذين واجهتهم البولشفية ، فلم يكن في الصين لا مناشفة ولا اشتراكيون — ثوريون .

ولما لم تكن الماوتسية تملك تراثاً ماركسياً ، ولما لم تكن تعرف عادة النقاش الحر داخل الحزب ، فإنها لم تجد نفسها في صدام مع ماضيها ، كما كانت الحال بالنسبة إلى البولشفية حين اضطرت إلى التقوقع في قالب مذهبي وحيد الاتجاه .

والحزب الصيني لم يصبح ، كالحزب السوفياتي ، عامل لامساواة جديدة ، وبطل فئات صاحبة امتياز جديدة . يقيناً ، لم يكن في الامكان ، في الصين أيضاً حيث كان يسود البؤس والفقر ، تجنب اللامساواة : لكن ما حدث في الصين لا يمت بصلة قربى قريبة أو بعيدة إلى التدابير الفاجرة التي اتخذها ستالين ضد الميول إلى المساواة .

إن هذا الفارق يسلط ضوءاً جديداً على مشكلة اللامساواة في مجتمع ما بعد الثورة . وبالرغم من أن الأسباب الموضوعية لظهور اللامساواة من جديد هي ، في رأي ماركس ، الفاقة والندرة العامتان ، بيد أن نسبة هذه اللامساواة تتعلق بعوامل بشرية ذاتية كطبائع الزمرة الحاكمة واندماجها الكبير أو القليل بالفئات صاحبة الامتيازات الجديدة ، وموقفها الأخلاقي الذي يستطيع أن يشجع أو يعرقل اللامساواة . لقد أمضى ماو ورفاقه القسم الأكبر من حياتهم وسط الفلاحين البائسين ، يلوذون بالجبال مع الأنصار ، وينامون في المغاور ، ويتشاطرون المعارك والمسيرة والجوع بأخوة كبيرة لا فرق فيها بين الضباط والجنود ، ويتلقون جميعاً نفس الوجبات ويرتدون نفس الزي .ان هذه التجربة

التي دامت أكثر من عشرين عاماً والتي لم تعشها أي فئة قيادية أخرى ، قدتركت أثرها فيهم وأمكنها الى حد ما أن تحميهم من الفساد الذي هو ظاهرة ملازمة للسلطة . وانه لما له دلالته ، على سبيل المثال ، أن يفرض الحزب الصيني على موظفيه وشخصياته النزول بصورة دورية من مناصبهم العالية ليذهبوا للعمل في المصانع والمزارع (حوالي شهر في السنة) ، حتى لا ينقطع اتصالهم مع العمال والفلاحين . ومثل هـــذه الممارسات ، الغريبة ، أحياناً في شكلها ، لا تكفي للتغلب على التناقضات بين الحكام والمحكومين ، ولا على التناقضات بين الشغيلة الفكريين ، والشغيلة اليوميين . لكنها تستطيـع أن تساعد على منع هـــذه التناقضات من النمو ، وهي تبرهن على أن حسّ المساواة ما زال حياً لدى الزمرة الحاكمة . (لقد رفض الرسميون الصينيون دوماً ، شأن الروس ، أن يزيحوا النقاب عن المروحة الحقيقية للأجور ، وهذا معناه انهم يؤثرون التكتم على مدى اللامساواة الموجودة) .

حيال هذه السمات التي تميز الماوتسية عن الستالينية وتقدمها عليها ، يجب ألا ننسى ما فيها من مظاهر متخلفة تقرّبها من هـــذه الستالينية بالذات ، فالحزب الصيني حزب وحيد الاتجاه ، يفوق في تمذهبه الحزب السوفياتي في الساعة الراهنة . ان الماوتسية المفتقدة الى خلفية بروليتارية والى تقاليد ماركسيـة أو اشتراكية - ديموقراطية ، المتكونة في عصر كانت فيه الأممية الشيوعية بأكملها قد أصبحت ستالينية ، قد ولدت في قالب مذهبي وحيد الاتجـــاه ، ونمت وتطورت من غير أن تخرج منه ، كحلزون في صدفته . وهذه المذهبية الوحيدة الاتجاه لم توضع قط موضع تساؤل إلا في تلك الحقبة الاستثنائية التي كان يفترض أن تتفتح فيها «المائدة زهرة » في جميـع أرجاء الصين . ومعصومية الزعيم في الصين لا تقل ترسخاً عنها في روسيا ستالين ، مع فارق واحد هو أنها لم توضع موضع تساؤل من قبل أي انسان منذ خمسة وعشرين عاماً . والحزب الصيني قد تجنب حتى الآن البلبلات والتقلبات التي عرفها الحزب الروسي .

يقيناً ، لقد حدثت تطهيرات ، متفاوتة في سريتها ، أدى أحدها إلى تصفية كاو كانغ عام ١٩٥٥ . لكن تركيب الزمرة الحاكمة لم يتبدل تبدلاً يذكر منذ زمن الثورة ، بله منـــذ زمن الأنصار . ولم تنطرح على ماو مسألة النضال ضد شخص كتروتسكي أو بوخارين أو زينوفييف . لكننا من جهة أخرى لم نسمع ، في مؤتمرات الحزب الصيني ، زعماء معارضين سابقين ينقدون أنفسهم ذاتيـاً بصورة دنيئة مهينة ، وهي الظاهرة التي سممت الحياة السياسية السوفياتية منذ ١٩٣٢ ، وكانت نتيجتها محاكات موسكو .

(٨)

إذا كان في مقدور الماوتسية أن تنافس الآن موسكو على قيادة الحركة الشيوعية ، فهذا يرجع جزئياً إلى توطد الثورة الصينية : ففي السابق ما كان في وسع الماوتسيين أن يجازفوا بمثل هذا النزاع مع موسكو ، لكن ذلك التوطد وتلك القوة وتلك الثقة الجديدة عبرت عن نفسها في « انزلاق إلى اليسار » وفي الطموح الى النطق باسم جميـع العناصر المناضلة في الشيوعية العالمية .

وهنا أيضاً تبرز لنا المقارنة مع الاتحاد السوفياتي ، كما كان في أعوام١٩٣٠ ، تضاداً صارخاً . فالحالة المعنوية التي كانت تخيم يومذاك على الاتحـاد السوفياتي كانت تتميز بسأم سياسي ومعنوي كبير ، وبرد فعل ضد الأممية الثورية الكريمة التي امتاز بها عهد لينين . وباسم « الاشتراكية في بلد واحد » ، بدأت الزمرة الحاكمة بعملية « تقهقر » ايديولوجي ، وسعت الى تحرير روسيا من مسؤولياتها ازاء الثورة العالمية .

ومنذ ذلك العصر كان ستـالين يمارس التحريفية التي يتهم بها اليوم ماو خروتشيف . وإذا كانت الانتهازية والانانية القومية قد سادت لدى الحزب

السوفياتي ، بينما يعلن الحزب الصيني جذريته وأمميته البروليتارية ، على وجه التحديد بعد مرور عدد متماثل من السنين بالنسبة إلى كل من الثورتين ، فإن هذه الواقعة ذات أهمية سياسية وتاريخية بالغة .

لقد رأينا كيف أن بذرة الجذرية اللينينية ، الخفية تارة والظاهرة تارة أخرى ، لم تكفّ قط عن أن تكون ماثلة في كل مراحل الماوتسية ، محظرة على ماو في اللحظات الحاسمة الاستسلام للكيومنتانغ تحت ضغط الستالينية والنكوص عن طريق الثورة .

وبذرة اللينينية هذه هي التي تؤكد ذاتها اليوم أكثر من أي وقت سبق ، وتبدو وكأنها تبدل منظورات الشيوعية الصينية ، ففي حين أن البولشفية ، بعد بضعة أعوام من ممارسة السلطة ، راحت تفقد اندفاعها المعنوي وحماستها ورحابة أفقها ، نجد أن الماوتسية ما تزال في منحدر صاعد ، تكشف عن آفاق جديدة وتوسع حقل أفكارها إن تقهقر البولشفية الرسمية قد ظهر واضحاً في رفضها الحاد والمسموم لمذهب الثورة الدائمة ، الذي لم يكن مذهب تروتسكي وحده ، بل كان أيضاً المبدأ الذي نادى به لينين وحزبه بحماسة إبان سني الثورة البطولية . وبالمقابل ألحت الماوتسية طويلاً على الطابع البورجوازي والمحدود للثورة الصينية . ومع ذلك تعلن الآن بأبهة أن الثورة الدائمة هي مبدؤها الحيوي ومبرر وجود الشيوعية والأممية .

إن ماو يمارس ، في أواخر حياته كما في بدايتها ، التروتسكية من غير أن يدري . وصحيح أن ارتباطه بالماركسية الكلاسيكية أقل عمقاً من ارتباط تروتسكي ، لكنه يدعو مثله ، ومستفيداً من طاقات السلطة ، الشيوعية إلى العودة إلى منابعها ، إلى النضال الطبقي الذي لا يكل ولا يهدأ ، كما دعا إليه ماركس ولينين .

إن هذا الانزلاق إلى اليسار يمكن أن يجد تفسيره جزئياً في موقف الغرب من الصين الحمراء : استمرار الأميركان في حصارهم لها ، وعدم اعتراف الكثير

من الدول الغربية بحكومة بكين ومنعها إياها من دخول هيئة الأمم المتحدة . وينبغي ألا ننسى أن الموجة الكبيرة الأولى من الانتهازية قد اجتاحت الاتحـاد السوفياتي في أعوام ١٩٢٣ — ١٩٢٥ ، بعد فك طوق « الحزام الصحي » الذي أوجده كليمانصو وتشرشل ، عندما قررت معظم الحكومات الغربية إقامة علاقات دبلوماسية مع موسكو . فذلك التبدل الذي طرأ على الوضع الدولي للاتحاد السوفياتي كان له ، بغض النظر عن محاسنه ، جانبه السيء ، فقد شجع الزمرة الحاكمة على انتهاج ما يسمى بـ « السياسة الواقعية » ، وعلى فك الالتحام مع الشعوب والطبقات المضطهدة في سائر انحاء العالم ، وعلى منح «الطبقةالعدوة» تنازلات مبدئية جوهرية . إن الزمرة الحاكمة في الصين لم تتعرض حتى الآن لمثل هذه المغريات . بل على العكس : فالأحداث لم تتوقف عن تعزيز قناعتها بأن الرد الذي يفرض نفسه ، إزاء عداء الرأسمالية ، الدائب ، هو تحدّيها على نحو سافر . ومن جهة أخرى كان التقهقر الايديولوجي للحزب الروسي رد فعل على الهزائم العديدة التي عانت منها الثورة في ألمانيا وفي سائر أوروبا بين ١٩١٨ و ١٩٢٣ . بينما تتغذى النضالية الماوتسية بصعود الحركة المعادية للامبريالية في آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية . وهنا أيضاً تستفيد الصين من أنها ليست البلد الأول الذي وقعت عليه مهمة شق الطريق إلى الاشتراكية . إذ يبدو أن محاولات العالم الرأسمالي لقمع أو تخويف الثورة الكبيرة الثانية في هذا القرن تتطلب جهوداً أكبر بكثير مما تطلبته محاولة قمع أو حصر الثورة الأولى .

يقيناً ، ان الشقاق بين الاتحاد السوفياتي والصين يمكن أن ينطوي على اخطار ماحقة . فكيف ستقاوم الماوتسية العزلة إذا استفحلت ؟ وما سيكون ردها على احتمال استقرار نسبي للأنظمة « الوطنية - البورجوازية » في البلدان المستعمرة سابقاً أو نصف المستعمرة ؟ وإذا ما حاولت في المستقبل بعض الدول الغربية أن تستخدم الصين ضد الإتحاد السوفياتي ، بدل أن تفعل العكس ، أفلا تجازف بكين بالسقوط في التجربة ؟ إن الأفق كان سيكون أوضح لو كان في

مقدورنا أن نكون على ثقة من أن تمسُّك ماو بالأممية ليس مجرد رد على تحدي الغربيين ، ومن انه يعكس الروح الحقيقية للجماهير الصينية . لكننا لا نعرف في الواقع أي شيء تقريباً عن هذا المظهر من المشكلة .

إن الدعوة الصينية للعودة الى اللينينية الأصلية كانت ستكون أكثر إيجابية بكثير لولا أن الماوتسية تسعى الى إنقاذ الأساطير الستالينية من حالة التردّي التي وصلت إليها والتي تستحقها أصلاً . والماوتسية في هذا تتصرف وفق آليات الدفاع الذاتي . إن عليها أن تبرر ماضيها والتزاماتها القديمة ومعتقداتها شبه الطقسية التي تتطلب ، شأن كل معتقد ، تصلباً وسكوناً .

ان الزعيم المعصوم لا يمكن أن يكون قد أخطأ عندما كان يدعم في الماضي الأرثوذكسية الستالينية . ان الإجلال الذي أسبغه ماو على ستالين حياً يرغمه على إسباغه عليه ميتاً . إن الماوتسية تشارك الستالينية الحاجة إلى التأثير في النفوس البسيطة بعبادات وطقوس سحرية . وسوف تتجاوز الصين في النهاية بلا ريب ، كما يفعل الاتحاد السوفياتي اليوم ، هذه الأشكال الفجة من الطقسية الايديولوجية . لكن ذلك اليوم لم يأت بعد . إلا أن هذا لا يمنع أن يكون العنصر المحافظ والمتخلف من الماوتسية متناقضاً من الآن مع عناصرها الديناميكية ، ولا سيما نزعتها الأممية الثورية . كذلك كانت عناصر التخلف والتقدم في حالة صراع دائم داخل الحزب السوفياتي في عهد خروتشيف . وإن آفاق المستقبل ستكون أرحب بكثير لو كان في إمكان العناصر التقدمية في كلا الحزبين الشيوعيين الكبيرين أن تنفصل عن العناصر المتخلفة وتتحد : أي لو أن الاندفاع الصيني باتجاه الأممية اللينينية سار جنباً إلى جنب مع اندفاع باتجاه لاستلنة فعلية ودائمة . لكن لما كانت الثورة قد تمت في البلدان المتخلفة ، وفيها وحدها ، فليس من الممكن أن تفصل عوامل التقدم من عوامل التخلف ، والانسانية قاطبة هي التي تتأذى من ذلك سواء ، في الصين أم في الاتحاد السوفياتي . لكن هكذا أيضاً دارت عجلة التاريخ ، ولا يمكن لشيء الآن أن يعيق مجراه . لكن مهما تكن

تناقضات الماوتسية وتبريراتها وتخاذلاتها ، فإن رفع الصين الحمراء اليوم لشعارات الأممية الثورية التي طال انتظارها ، لايمكن إلا أن تكون له انعكاساته العميقة ، الواسعة ، الدراماتيكية والإيجابية في السنوات القادمة .

تشرين الأول ١٩٦٤

الخروتشيفية

بقلم : إسحق دويتشر

السنوات العشر التي قاد فيها ن.س. خروتشيف الحزب الشيوعي السوفياتي تشكل نوعاً من الحكم الذي يقوم أثناء خلو العرش أو نوعاً من حكومة انتقالية[1] أننا لا نستطيع أن نتكلم عن « عصر خروتشيفي » كما نتكلم عن عصر ستالين ، لا لأن خروتشيف حكم أقل من ستالين بثلاث مرات فحسب ، بل أيضاً لأن سلطته كانت أقل بثلاث مرات[2] .

إن الخروتشيفية لم تحركهـا أي فكرة بناءة كبيرة (ولا حتى أي فكرة سياسية) خاصة بها . ولم تجسد مذهباً جديداً ، أسطورة جديدة قادرة شأن « الاشتراكية في بلد واحد » على التعبير عن وعي مغلوط لوضع تاريخي واقعي .

كانت الخروتشفية خاوية من كل اندفاعة خلاقة . وفي كل مرة كان فيهـا خروتشيف يعبر عن موضوعة من موضوعات الاشتراكية المألوفة والأولية ، كان يلجأ إلى تقليد جلف ، إلى « شيوعية غليظة ». وفي أكثر من وجهة نظر واحدة كان يكتفي بتتبع الطرق التي رسمها ستالين، زاعماً أنه يأتي بتجديدات شخصية ومثيرة . و « التعايش السلمي » مثال صارخ على ذلك ، شأنـه بالأصل شأن « الانتقال غير العنيف من الرأسمالية إلى الاشتراكية » والدروب « القومية التي

---

(١) أصبح خروتشيف السكرتير الأول للحزب في أيلول ١٩٥٣ ورئيساً للحكومة السوفياتية في آذار ١٩٥٨ . وقد « استقال » من المنصبين في تشرين ١٩٦٤ .

(٢) هذا الفرق ما كان ليكون له أهمية . فقد حكم لينين نصف مدة حكم خروتشيف ومع ذلك كانت السنوات الخمس أو الست التي قاد فيها البلاشفة مرحلة من اهم المراحل بالنسبة إلى تطور التاريخ ، مرحلة أهم بكثير من حيث تأثيرهـا على الانسانية من العقود الخمسة الأخيرة بل حتى من القرون الخمسة الأخيرة من تاريخ روسيا .

تقود إلى الاشتراكية ». إن جميع هذه الصيغ هي أفكار ستالينيه قديمة ألبست ثوباً جديـداً ، تعود إلى زمن الجبهات الشعبية في أعوام ١٩٣٥ وإلى التحالفات القومية في أعوام ١٩٤٥ . وكان خروتشيف قبـــل كل شيء سليلا لستالين من الدرجة الثانية بالطريقة التي كان يلح بها على « الطابع الوحيد للاتجاه » للحزب والدولة السوفياتيين . وكان قراره بعدم التسامح مع أي معارضة ومع أي نقد مكشوف ومع أي مناقشة حرة يقود حتماً إلى « عبادة شخصيته » الخـاصة ، أي إلى محاولات تستهدف إقامة حكم أوتوقراطي .

بيد أن خروتشيف ، سليل ستالين من الدرجـة الثانية ، قد توارى تقريباً عن الأنظار لتحل محله الصورة الشعبية لبطل اللاستلنة. وكانت هذه هي مفارقة حياتـــه : فبعد أن راهن على الستالينية وشارك مشاركة كبيرة في مساوئها ، اضطر إلى مشاركة أكبر أيضاً في تدميرها . ولقد تمزق بين ارتباطه بالستالينية وبين العمل الذي قاده ضدها ، وعلى صعيد شخصي بين عبادته ستالين وبـــين ذكرى الإذلالات التي لا تطاق التي أنزلها به . وهو في ذلك يمثل جيلا كاملا من قادة الحزب الذين ارتفع ستالين على ظهورهم إلى السلطة والذين اضطروا فيما بعد إلى تحمل نزوات السيد الفظة ورفساته . ونظراً إلى عجز هؤلاء الزعماء في زمن ستالين ، فقد انتقموا من شبحه . وكل ما هنالك أنه أمكنهم أن يحققوا رغبتهم في الثأر نظراً إلى أن مصالح سياسية أرحب مدى – حاجات الأمة بأسرها – كانت تتطلب اللاستلنة .

لقد كان خروتشيف فعلا محقق وبل الاصلاحـات التقدمية التي تمت خلال السنوات العشر التي تلت موت سلفه . إن المؤرخـــين الذين سيروون ذات يوم التاريخ « الداخلي» لحملة اللاستلنة سيظهرون لنا بلا ريب أعضاء آخرين في مجلس السوفييت الأعلى ، وبخـــاصة ميكويان ومالنكوف ، على أنهم كانوا المحرضين الحقيقيين . وعلى كل الأحوال ، وحتى زمن المؤتمر العشرين - شباط ١٩٥٦ ــ كان خروتشيف واقفاً بجانب مولوتوف وكاغانوفيتش – الستالينيين غير التائبين –

أو كان متردداً وواقفاً بين المعسكرين . وأثناء ذلك كانت اللاستلنة ، التي باتت ضرورية بفعل الحاجات الاقتصادية والاجتماعية، قد قطعت شوطاً طويلاً يستحيل معه إيقافها . بل كان لا مناص من المضي بها إلى أبعد من ذلك أيضاً . وكانت معسكرات العمل الاجباري قد ألغيت حتى قبل المؤتمر العشرين . وكان الضحايا الذين بقوا على قيد الحياة بالرغم من الارهاب والتطهيرات ، يطالبون بإعادة اعتبارهم كاملاً وبإعادة الاعتبار لأهاليهم ورفاقهم المختفين .وقد دوى ضجيجهم إبان مناقشات المؤتمر العشرين . وكان تجاهل ذلك أو مقاومته يعني بالنسبة إلى أي زعيم سوفياتي المجازفة بالانتحار ، كما سيتبين ذلك مولوتوف وكاغانوفيتش . وكان الارهاب الستاليني قد فُضح وأدين من قبل يقظة الوعي القومي ، وفيما بعد بمدة طويلة استسلم خروتشيف للاتجاه الآني وانجرّ خلفه . وكان « خطابه السري » مفاجأة حياته ، حتى بالنسبة اليه ، وبفضل هذا الخطاب ، أصبح مركز انفعال شعبي كثيف، والناطق بلسان عاطفة قومية نسيجها اليأس والخجل، وتوصل بالتالي إلى تجاوز نفسه والافلات من أسار شخصيته، ومما زاد في وعورة تجليته وثوريتها إنه أدى هذا الدور الجديد على مضض ومتأخراً . ووراء حركاته المنفوخة أكثر مما ينبغي وقدحه العنيف بستالين ، كان يخفي حرجه وشكوكه الداخلية . ومنذ المؤتمر العشرين حمل عمله كله سمة هذا التضاد بين نزعته الميلودرامية المعادية للستالينية وبين رغبته في إبقاء الاصلاحات التقدمية في حدود ضيقة .

كان قسم لا بأس به من الرأي العام السوفياتي يعي التباس سلوك خروتشيف السياسي والحوافز التي دفعت به إلى مباركة القطيعة بين الحزب والستالينية . وقد أصبحت هذه البركة ، الأفلاطونية إلى حد كبير ، نوعاً من لعنة مقنعة ، لأنها كانت تخفي عرقلة منظمة وبارعة لكل دقرطة حقيقية للاتحاد السوفياتي (نستطيع أن نضيف ، بين هلالين ، أن صورة خروتشيف بطل اللاستلنة أصبحت في الأعوام الأخيرة مقبولة في الغرب وفي بعض بلدان الشرق كبولونيا أكثر بكثير منها في الاتحاد السوفياتي نفسه) . وعلى هذا كان الرأي العام

السوفياتي يعرف ، لحظة سقوط خروتشيف ، إن هذا الحدث لن يكون عقبة أمام تقدم جديد ، بل على العكس سيعبد الطريق أمامه .

إن أزمة القيادة في عام ١٩٦٤ لا سابق لها في تاريخ روسيا . إذ لم يحدث قط في الماضي أن جرد حاكم من كل سلطاته في وقت كان يقبض فيه على جميع المناصب العليا في الدولة . وللوصول إلى ذلك كان لا بد من تحطيم العطالة القديمة للحكومة الأوتوقراطية . وقد حلت هذه الصعوبة عن طريق الجمع بين ثورة قصر وبين تصويت شبه ديموقراطي في اللجنة المركزية . وما كانت هذه الثورة ولا هذا التصويت سيتمان بالسهولة التي تما بها لو أن بضعة رجال « ظامئين إلى السلطة » هم وحدهم الذين تعاضدوا لطرد خروتشيف . فقد كان نجاح هذا العمل يتطلب أن تنقلب غالبية الزمرة الحاكمة على زعيمها . وإن أعضاء اللجنة المركزية ، البالغ عددهم بضع مئات ، ما كانوا ليقبلوا بإقالة الرجل الذي كان سكرتيراً عاماً لمدة أحد عشر عاماً لو لم يكونوا قانعين ، قناعة أصدقائهم وشركائهم ، بأن تلك الإقالة تفرضها أسباب ذات طابع سياسي . وصحيح أن خروتشيف عندما طرح نفسه كزعيم أوحد أزعج اللجنة المركزية ودفع بها بالتالي إلى المطالبة بالقيادة الجماعية . بيد أن طموح خروتشيف شبه الأوتوقراطي كان معتدلاً نسبياً في نظر المعايير الموسكوفية ، وإنه لأمر له دلالته أن يكون هذا الطموح قد أثار رد فعل كهذا .

يقول لنا الخبراء في العلوم السياسية إن كل أوليغارشية بيروقراطية وكل طائفة منغلقة على ذاتها تفضل استبداد رجل واحد على حكومة لجنوية ، ولا تتخلف أبداً عن استبدال القيادة الجماعية بزعيم أوحد . وهذا ، على ما قيل لنا ، هو « القانون الحديدي » الذي يتحكم في كل صراع على الخلافة في ذروة التسلسل السوفياتي . فلمَ فشل « القانون » هذه المرة ، لمَ رفضت الزمرة الحاكمة السوفياتية بدون أي لبس ممكن القبول بسلطة خروتشيف الأوحد ؟.

(٢)

إذا نظرنا اليوم إلى العهد ما بعد الستاليني ، وجدناه ينقسم إلى مرحلتين متمايزتين : الأولى وهي تمتد من ١٩٥٣ إلى ١٩٥٩ وتمتاز بنشاط إصلاحي كثيف وبلاستلنة مشتطة ، والثانية وهي تمتد إلى نهاية حكم خروتشيف وتتميز ، بصورة عامة ، بركود وحتى بعودة إلى الوراء . ومن الممكن أن تتداخل المرحلتان أحياناً ، لكن التضاد يظل قائماً بينهما ، بل انه أحياناً صارخ .

شهدت المرحلة الأولى النهاية الفظة للإرهاب ولسلطة البوليس السياسي المتعسفة ، وإغلاق معسكرات الإعتقال الضخمة ، وإلغاء قانون العمل القاسي المطبق في الصناعة ، وخفوت حدة اللامساواة . وفي ذلك العهد قدم لفلاحي الكولخوزات نوع من « النيو — ديل[١] » ، وخففت مركزية الاقتصاد المشتطة ، وتراخت قبضة الرقابة الرسمية المفروضة على الحياة الثقافية والفنية . وقد تنفس المواطنون السوفييت بحرية أكبر مما كان يمكنهم طوال ربع قرن من الزمن ، وتجلى أثر ذلك في المنحنيات الصاعدة للنشاط الاقتصادي والاجتماعي والثقافي وفي الانجازات . ومعظم الخطوات التقدمية المسجلة في العهد ما بعد الستاليني يعود تاريخها الى هذه الأعوام الأولى . ففي تلك الأعوام ، بين ١٩٥٣ و ١٩٥٨ زادت الزراعة السوفياتية ، الخارجة من أزمة مستعصية منذ بضعة عقود ، إنتاجها بنسبة ٥٠٪ وبالرغم من أن هذه الزيادة قد توقفت — يعود الفضل فيها

---

(١) النيو ديل : اسم يطلق على حركة الاصلاحات الاجتماعية والاقتصادية التي حاولها روزفلت في الولايات المتحدة بدءاً من عام ١٩٣٣ . « هـ . م »

إلى حد كبير إلى الزراعة الكثيفة للأراضي البكر – إلا أنه أمكن اتخاذها كأساس لرفع مستوى الحياة بشكل ملحوظ (١) .

وللمرة الأولى يشعر المرء أن الاتحاد السوفياتي قد توصل إلى ردم الهوة التي كانت تفصل بين صناعة هامة جداً وفي توسع دائم وبين زراعة قليلة التطور ومترنحة . وكانت وتيرة الازدهار الصناعي عالية جداً . وإليها يعود الفضل في إطلاق الأقمار الصناعية الأولى (٢) . وكانت النتيجة أن سادت روح جديدة لدى العمال والمدراء والإداريين ، وولدت ثقة جديدة بالمستقبل .

هذا السير إلى الأمام تباطأ بل انعكس في المرحلة الثانية من حكم خروتشيف . وقد كان الفشل على أوضح ما يكون في القطاع الزراعي ، أضعف نقطة في

(١) الجدول التالي يظهر لنا حجم تجارة المفرق الذي هو بمثابة دليل قيم لحجم الاستهلاك (١٩٤٠ = ١٠٠) :

العام	المجموع	الغذاء	المنتجات الأخرى
١٩٤٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠
١٩٥٠	١١٠	٩٤	١٤٠
١٩٥٥	٢٠٨	١٧٧	٢٦٣
١٩٥٦	٢٢٦	١٩٠	٢٨٩
١٩٥٧	٢٥٨	٢١٤	٣٣٦
١٩٥٨	٢٧٤	٢٢٥	٣٥٩
١٩٥٩	٢٩٦	٢٤١	٣٩٠

وهكذا يكون معدل تجارة المفرق بالنسبة إلى الرأس الواحد قد انتقل من ١٠٠ عام ١٩٥٠ الى ٢٠٨ عام ١٩٥٧ .

(٢) هذه النجاحات التكنيكية قد أعدت لها العدة بالطبع جزئياً التوظيفات والبحوث الكثيرة التي بوشر بها في عهد ستالين .

الاقتصاد لكن هذا الفشل لا يعود فقط الى محصول ١٩٦٣ المفجع والى الشروط المناخية الرديئة . فالتراجع قد ظهر قبل ذلك بمدة ، وتبعته مرحلة من أزمة متطاولة . ومن بين خمسة محاصيل جرت بين ١٩٥٩ و ١٩٦٣ كانت أربعة متواضعة ومحصول واحد عادياً . أما نتيجة آفات ١٩٦٣ الطبيعية ، فهي أنها أظهرت على نحو صارخ ضعف البنى الزراعية ، كما فضحت عدم كفاءة الإدارة ، وبالفعل عجز الموظفون عن توزيع الموارد الغذائية الزهيدة على نحو عادل . وقد عانت المدن الكبيرة والصغيرة من مجاعة لم تعرف لها روسيا مثيلاً منذ أيام مابعد الحرب الرهيبة ، ويبدو أن بعض فئات السكان قد كابدت أكثر مما كابده الصينيون بعد ثلاثة أعوام من الفيضانات والجفاف وسوء المواسم . وهكذا توقف ارتفاع مستوى الحياة ، بالرغم من التوسع المستمر في إنتاج الصناعة للسلع الاستهلاكية .

في الأعوام الستة الأخيرة من حكم خروتشيف زادت الأجور الوسطية للعمال السوفييت بنسبة ٤ر٢٪ سنوياً فقط ، حسب تصريحات أ. ن. كوسيغين في مجلس السوفييت الأعلى في كانون الأول ١٩٦٤ . وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار التضخم الجزئي — أسعار اللحم واللبن ارتفعت رسمياً من ٢٥ الى ٣٠٪ — تكون الأجور الواقعية ، قد ظلت تراوح في مكانها إن لم تكن قد تناقصت. والواقع أنه جرى تجميد الأجور منذ ١٩٥٩ أو ١٩٦٠ (لكن العالم لم يطلع على ذلك إلا في نهاية ١٩٦٤ ، بفضل إشارة موجزة جاءت في خطاب الرئيس الجديد للحكومة السوفياتية) . كما تأخر تطبيق التدابير التشريعية الهادفة إلى تخفيض ساعات العمل من جديد في الصناعة وإلى رفع الأجور المنخفضة وزيادة تعويض الشيخوخة . بل توجّب تقليص مشاريع بناء المساكن ، غير الوافية بالحاجة أصلاً ، لتلبية حاجات السكان . وتباطأت وتيرة النشاط الاقتصادي . وفي ١٩٦٤ لم يتقدم الدخل القومي الصافي سوى بنسبة ٥٪ بدلاً من ٧ و ٨٪ كما كانت الحال في السنوات السابقة . ولم يتجاوز معدل النمو في بناء المصانع وتجهيزها ٣ر٣٪ عام ١٩٦٤ ،

بينما كان يجب أن يبلغ ٢ر٨٪ عام ١٩٦٥ . بيد أن سلم التطور الصناعي يظل مع ذلك مثيراً : فصناعة استخراج الحديد ومشتقاته على سبيل المثال أدركت تقريباً، بإنتاجها السنوي البالغ ٨٥ مليون طن ، المستوى الأميركي لمطلع أعوام ١٩٦٠. بيد أن التطور ظل ، كما في زمن ستالين ، أعرج وغير متساوٍ . فهو إذا كان منتظماً في الصناعة الثقيلة وصناعة التسلح ، فإنـه بطيء ومتقطع في الصناعات الجديدة (الخيوط الصناعية والالكترونيك على سبيل المثـــال) . والنوعية لا تعادل الكمية : وهكذا تتحدث منظمات الدول التجارية بالذات عن وجود فائض ضخم من البضائع غير القابلة للبيع بسبب نوعيتها الرديئة . ويقدر هـذا الفائض بمليارين من الروبلات ، وهو مبلغ يعادل تقريباً ثلث التوظيفات في الصناعة الخفيفة . وخلف هذه الكتلة من السلع غير المباعة ، يتجسد إضراب ضخم عن الشراء ، وهذه واقعة تدل ، بالرغم من أنه يصعب تصورها في زمن الفاقة الشديدة إلى السلع الاستهلاكية ، إلى أي حد تشكو الصناعات السوفياتية الخفيفة من التخلف وعدم التلاؤم . إن التفاوتات الاجتماعية المميزة للستالينية قد ظهرت من جديد في سياق اقتصادي أغنى ، كما ظهرت عنـــاصر جديدة من عدم التوازن .

كيف أمكن أن يتوقف الدفع الاصلاحي الذي كان كبيراً في النصف الأول من العقد الخروتشيفي إبان النصف الثاني ؟ إن هذه الواقعة تجد تفسيرها جزئياً في الظروف الخارجية وفي عبء التسلح الكلاسيكي والنووي المتزايد باستمرار . إننا نجهل رصيد نفقات التسلح السوفياتي الراهنة ، إذا ما ميزناها عن ميزانية الدفاع الرسميـــة . لكن يبدو أن ٥٥٪ فقط من مجموع الدخل القومي الصافي (الذي يرتفع إلى ١٧٥ مليار روبل عام ١٩٦٤ والذي يجب أن يبلغ ١٨٩ مليار روبل عام ١٩٦٥) مخصصة للاستهلاك الخاص والخدمات الاجتماعية والتربية .

أما الباقي فموزع بنسب مجهولة بين الصندوق القومي للتوظيف وبين نفقات التسلح . وفي التوظيفات الجديدة ذات الطابع الصناعي المحض لم يخصص سوى

١٥٪ على الأكثر للصناعات الاستهلاكية . وتبلغ التوظيفات الزراعية نفس النسبة تقريباً . وذكر هذه النسب كافٍ لإدراك أهمية المشكلة . إن بلداً يكرس باستمرار نصف موارده تقريباً للتوظيفات الجديدة وللدفاع لا بد أن يكابد من إكراهات ومصاعب اقتصادية واجتماعية . وصحيح أن الدخل القومي قد زاد إلى أكثر من الضعف في العهد ما بعد الستاليني ، كما زاد حجم الاستهلاك الخاص بنفس المعدل وان ظلت نسبته المئوية على حالها . لكن هذا التطور كما رأينا تم معظمه قبل عام ١٩٦٠ . وقد كان للتباطؤ الذي أعقب العام المذكور نتائج معنوية وسياسية . فطالما أن ذكرى فاقة ومجاعة العهد الستاليني بقيت غضة في الأذهان ، كان يمكن لبضعة تنازلات متواضعة ولتحسين خفيف في السياسة الاقتصادية أن يبعثا على الرضى والحماسة . لكن مع تحسن الاقتصاد القومي ، ارتفع مستوى الحاجات الاجتماعية والآمال بدوره . ولما كانت آمال كثيرة وحاجات كثيرة قد ظلت بلا تلبية ، كان لا بد أن يظهر من جديد شعور الحرمان والاستياء .

وقد تفاقمت هذه المصاعب إلى درجة خطيرة نتيجة التعسف والبلبلة والفساد الإداري . والصحافة السوفياتية تعطي من ذلك أمثلة خشنة وجلفة لا تحصى ، تذكرنا بـ « النفوس الميتة » لغوغول . ان بلادة الإدارة وتبذيرها يكلفان الاتحاد السوفياتي نفس ما تكلفه إياه بعض الأسلحة الباهظة النفقات . وهما « يجمدان » كميات ضخمة من الموارد والطاقات . إذن فوجود رقابة اجتماعية حقيقية على البيروقراطية هو الشرط اللازم المسبق لعقلنة الاقتصاد عقلنة تامة . بيد ان الجهاز الإداري متشبث بمقاومة الرقابة ، وقد جسد خروتشيف هذه المقاومة في العام الأخير من حكمه . فقراراته التعسفية وهوسه التخطيطي الذي فضحه خلفاؤه كان لها نصيب كبير في الكارثة الزراعية . فقد اشتط في زراعة الأراضي البكر الفسيحة زراعة توسعية بدلاً من تشجيع الزراعة الكثيفة ، دون أن يحسب حساباً للمعارضة التي تجلت داخل الحزب ، ولا لنصائح الخبراء ، ولا

للتحذيرات من خطر الحت والمواسم الرديئة على لأراضي البكر . كان كله قناعة بأن الذرة هي حل مشكلة اللحم – غير المتوفرة منه كميات كافية – فأرغم البلاد بأسرها على الانهماك في زراعة هذا النوع من الحبوب دونما اعتبار لطبيعة التربة أو المناخ . وحدد طرائق التعشيب الواجب استخدامها من أقصى الاتحاد السوفياتي إلى أقصاه . وقرر ، في الأعوام الأخيرة ، تخفيض أو إلغاء الحقول الصغيرة التي كان يملكها ويزرعها المزارعون الجماعيون لحسابهم الخــاص . وقد مس هذا القرار ملايين الزراع ، بيد أنه ظل « سرياً » طالما كان خروتشيف في الحكم ولم يكشف النقاب عنه إلا في زمن خلفائه . وأجرى على الآلة الإدارية تعديلات محمومة ومتكررة . وكان ما يقوم به من إعادة تنظيم يعادل في نظره إصلاحاً حقيقياً : فكان أشبه بقائد الأوركسترا في المثل الروسي ، الذي يغير باستمرار أماكن موسيقييه محاولة منه لتحسين نوعية الموسيقى . وبوجه عام كانت إعادات التنظيم تغير وسائل الرقابة الممارسة من فوق ، لكنها ما كانت تترك من مكان لرقابة قادمة من تحت . وكانت تغضب البيروقراطيين من غير أن تتوصل الى إرضاء الجماهير ، فانقلب الأوائل على خروتشيف لسأمهم في النهاية من كل هذه التقلبات .

(٣)

إبان الأعوام الأولى التي تلت موت ستالين ، هدأ النزاع بين الدولة والمجتمع أو بين البيروقراطية والشعب ، لكنه الآن في سبيله الى الاحتدام من جديد . والتوتر القديم بين الميل التقدمي للاتحاد السوفياتي وبين النزعة المحافظة للزمرة الحاكمة يعاود اليوم ظهوره . وهذا التوتر وهذا النزاع لغما الستالينية منذ مطلع أعوام ١٩٥٠ . فقد كانت البنية الجديدة للمجتمع السوفياتي قد أصبحت متناقضة مع

بنية فوقية سياسية متخلفة . إن نهجاً في الحكم وجد لقمع أمة نصف بربرية وغير صناعية لا يمكن أن يفرض على بلد قدحوّله ربع قرن من التربية الجماهيرية والتحديث والتصنيع . كذلك فإن إيديولوجية ومذهب حزب يعكسان عزلة الاتحاد السوفياتي وتقهقره بعد الثورة لا يمكن أن يوائما بلداً وجد نفسه ، بعد جيل واحد ، على رأس « ثلث الإنسانية » .

إن أتباع ستالين السابقين وخلفاءه قد خففوا من حدة النزاع ، لكن من غير أن يتوصلوا إلى حله. وما أمكنهم أن يجدوا غير حلول مؤقتة ومسكنة لا تفي بالغرض . لقد خلصوا الدولة التي ورثوها من الإرهاب والتطهيرات ، لكنهم لم يتوصلوا إلى تسييرها بصورة متلاحمة . حرروا المواطنين السوفياتيين من الخوف، لكن لم يتمكنوا من الإيحاء بالثقة إليهم . فكوا عنهم قيود الاضطهاد من غير أن يمنحوهم الحرية . شجعوهم على التفكير بأنفسهم من غير أن يسمحوا لهم بالتعبير عن انتقاداتهم. أما خروتشيف فقد بدأ بتشذيب الجهاز البيروقراطي وبتقليص امتيازاته . لكن بالرغم من أنه تصرف على هذا النحو حتى يعزز هيمنة البيروقراطية وحصانتها ، فقد تشبثت البيروقراطية بامتيازاتها وبادعاءاتها ، وأبدت حماسة قليلة للقضاء على الفساد المستشري فيها .

إن استعدادات الجماهير النفسية قد تبدلت بالطبع منذ ١٩٥٣ – ١٩٥٤ . فنظام ستالين قد ترك سكاناً يؤجج صدورهم الحقد ، لكن مذعورين ، يائسين ، عاجزين عن الرد ، عاجزين عن تحمل مصيرهم وعاجزين في الوقت نفسه عن تغييره . وفي نهاية حكم خروتشيف لم يبق أي أثر للأرهاب ، واختفى تقريباً الحقد القديم الذي يشل شلاً ، لكننا نلاحظ مكانهما استياء غير مقنع حيال الفوضى الاقتصادية وحيال منع انتقادها ومعارضتها . إن عدم كفاءة سلك من الموظفين غير قابل للتصحيح البتة يفقد الناس صبرها ويثير سخطها .

إذا كان صحيحاً إن البيروقراطية ، قد تحسنت كثيراً منذ العهد الستاليني ، فإن المجتمع السوفياتي قد تبدل أكثر منها أيضاً . إن اندفاعه الداخلي نحو التقدم هو الذي أحدث هذا التبدل . والتصنيع وتطوير المدن قد عدلا باستمرار بنيته

والجدول التالي يبين لنا رحابة هذا التحول الفريد من نوعه في التاريخ :

تقدم المدن في الاتحـــاد السوفياتي

العام	مجموع السكان (بالملايين)	سكان المدن	سكان الريف
١٩٢٠	١٣٧	٢١	١١٦
١٩٢٦	١٤٧	٢٦	١٢١
١٩٣٩	١٧١	٥٦	١١٥
١٩٥٠ *	١٧٨	٦٩	١٠٩
١٩٥٩	٢٠٩	١٠٠	١٠٩
١٩٦٢	٢٢٠	١١٢	١٠٨
١٩٦٤	٢٢٦	١١٨	١٠٨
١٩٦٥	٢٣٠	١٢٢	١٠٨

* بدءاً من ١٩٥٠ تضم الإحصائيات سكان الأراضي التي جرى إلحاقها بالاتحاد السوفياتي منذ ١٩٣٩ . وأرقام عام ١٩٥٩ هي أرقام الإحصاء الرسمي . أما بالنسبة إلى الأعوام التالية فلا نملك سوى تقديرات رسمية .

وهكذا يكون عدد سكان المدن قد زاد ، خلال جيل واحد ، حوالي مئة مليون نسمة . وقد تمت نصف هذه الزيادة تقريباً منذ نهـــاية العهد الستاليني . ففي بداية الأعوام ١٩٥٠ كان السكان الريفيون ما يزالون يشكلون الغالبية بجانب سكان المدن . وفي الوقت الراهن يمثل سكان المدن ٥٥٪ من مجموع السكان .

وبصورة موازية ارتفععدد عمال المصانع ومستخدمي المكاتب من٤٤مليوناً عام ١٩٥٣ إلى أكثر من ٧٥ مليوناً عــام ١٩٦٥ ، أي تقدم بنسبة ٧٠٪ وأكثر (حوالي ٥٥ مليوناً هم من العمال) . وثلاثة أرباع السكان العاملين يشتغلون لحساب الدولة . ويشكل فلاحو الكولخوزات الربع الباقي . وفي مدى عشر

سنوات تبدل توازن الطبقات الاجتماعية كلياً . فلأول مرة بات العمال يشكلون الغالبية . وعدد الفلاحين لا يتجاوز بكثير الانتلجانسيا والأطباء والاساتذة وشغيلة المكاتب والمدراء ورجال العلم والموظفين الخ[1] .

لقد تقهقرت روسيا الموجيك بعيداً في الماضي ، وإلى أبعد بكثير مما في مطلع الأعوام ١٩٥٠ . فلم يتناقص عدد الفلاحين فحسب ، بل تضاءل أيضاً نفوذهم المعنوي والثقافي . والأواصر التي كانت تربط المثقفين والعمال الروس بنمط حياة الموجيك وبطريقتهم في التفكير هي في سبيلها الى الاختفاء . وكلما انقضت بضع سنوات ، تضاءل حجم ذلك القسم من سكان المدن الذي ما تزال عقليته تحمل سمة بيئة متخلفة ثقافياً وذات أصول ريفية . ومظهر المدن الكبيرة والصغيرة يتحول . ولامبالاة السلافيين وتوانيهم التقليديان هما في حالة تراجع ، وجموع المدن تملك ظاهراً « غربياً » لا يكف عن التعمق ، أي أنها تزداد عصرية وتكتسب طابعاً « فردياً » متزايداً باستمرار . وتقدم التربية المطرد يعطي هذا التبدل مدى وعمقاً . وفي الأعوام العشرة أو الأثني عشر الأخيرة تضاعف عدد طلاب المدارس الثانوية كما تضاعف تقريباً عدد طلاب الجامعة .

كانت الخروتشيفية تمثل على نحو شبه أمين التوازن الاجتماعي والمستوى

---

(١) يشكل الشغيلة الفكريون الآن ٢٢٪ من جميع الاجراء ، أي أقل من فلاحي الكولخوزات بـ ٣ أو ٤٪ فقط . ونمو الانتلجانسيا (بمعناها الواسع) يظهر في التحديدات التالية : إن عدد التكنيكيين وغيرهم من الاختصاصيين المستخدمين في الاقتصاد السوفياتي ارتفع من حوالي مليون في عام ١٩٤٠ إلى حوالي أحد عشر مليوناً في ١٩٦٤ – ١٩٦٥ (٤٠٪ منهم يملكون دراسة عالية و ٦٠٪ منهم يملكون دراسة ثانوية) . وكان عدد المربين قبل الحرب العالمية الثانية ملونين ونصف مليون ، وهو اليوم ستة ملايين . ويبلغ عدد رجال العلم والباحثين والمستخدمين في معاهد البحث مليونين ونصف مليون: بدلاً من مليون ونصف مليون في عام ١٩٤٠ ويبلغ عدد الأطباء والمستخدمين في الصحة حوالي أربعة ملايين بدلاً من مليون ونصف مليون قبل الحرب . والأهمية العددية للادارة (بما في ذلك الادارات المركزية الاقتصادية) قد تناقصت : مليون وثمانمئة الف عام ١٩٤٠ مقابل مليون وثلاثمئة الف عام ١٩٦٢ .

الثقافي الوسطي بين ١٩٥٠ و ١٩٥٥ ، وهي فترة كان فيها وزن الطبقة الفلاحية الضعيفة التطور أثقل منه اليوم إلى حد واضح . وكان خروتشيف نفسه يقف عند الحد الفاصل بين روسيا القديمة والجديدة : كانت إحدى قدميه في المدينة الحديثة ، والثانية في القرية القديمة .

كتبت في عام ١٩٥٩ :

« بالرغم من التقدم المتحقق حتى الآن ، ما تزال توجد مناطق شاسعة بدائية ومتخلفة في الاتحاد السوفياتي الراهن ، وقوة الخروتشيفية ترجع على وجـــه التحديد إلى أنها نتاج هذا المزيج من التقدم والتأخر . إن خروتشيف نفسه ما يزال فيه الشيء الكثير من الموجيك القديم ، وهو يجسد الفلاح الذي يقف عند عتبة العصر الذري ، الموجيك الأخير الناطق باسم روسيا ... وفي مدى بضعة أعوام لن يبقى عملياً أي أثر من روسيا الموجيك . إن ثمة طبقة عاملة جديدة تتطور . ومنذ عام ١٩٥٠ بات معظم العمال الشبان الذين يقدمون للجلوس على مقاعد المصنع يتمتعون بتعليم ثانوي . ولقد لعبوا دورهم في تبديل جو الصناعة . وسلكوا حيال المدراء والمسؤولين الحزبيين سلوك الواثق من نفسه بفعل التربية التي تلقوهـــا . ومن عام إلى عام يزداد وزن « عمال المصنع هؤلاء » وستأخذ المطالبات بصدد رقابة العمال على المصانع اتجاهاً جديداً كلما ازدادت قدرة هؤلاء على ممارسة هذه الرقابة ... إن التربية الجماهيرية في سبيلها إلى ردم الهوة التي تفصل العمل اليدوي عن العمل الفكري . والحال ان الحـكم البيروقراطي المطلق والستالينية كانا يغرسان جذورهما في أعماق هذه الهوة السحيقة ، ويمكننا أن نتوقع انه إذا ماضاقت هذه الهوة ونصب جسر فوقها ، فسوف يستحيل أن تبقى على قيد الحياة حتى دكتاتورية خروتشيف البيروقراطية الأكثر اعتدالاً .

« ان خروتشيف ، بالرغم من ثقته الكبيرة في نفسه ، وبالرغم من قوته التي يستحيل ترويضها ومن بادراته الرشيقة ، يترأس في الواقع نوعاً من حكومـــة انتقالية قصيرة الأمد وغير مستقرة . ان المستقبل لن يأتينا بعصر خروتشيفي تمكن مقارنته بالعصر الستاليني . فليست أيام خروتشيف هي وحدها المعدودة

فحسب – وصل إلى السلطة في الستين من العمر في حين وصل ستالين في الأربعين– لكن المد الفائق القوة الذي يحمل المجتمع السوفياتي يحوله بسرعة بالغة بحيث أن انقضاء أعوام سيكفي لتهديم وإزالة علاقة ومؤسسات وقوانين وممارسات سياسية بدت لمدة طويلة من الزمن وكأنها راسخة غير قابلة للتدمير تقريباً . وقد اخترق هذا المد قشرة الستالينية السميكة ، ولسوف يخترق قشرة الخروتشيفية الأرق بكثير [١] » .

ومع ذلك ، وبالرغم من التبدل الواضح الذي طرأ على تطورات الطبقة العاملة والمثقفين السوفييت ، وبالرغم من طاقاتهم الفكرية الجديدة ، وبالرغم أيضاً من تقلباتهم الواضحة الجليلة ، لم يشكلوا حتى الآن لا حركة سياسية منظمة منبثقة عن القاعدة ، ولا معارضة للنظام البيروقراطي ذات نطاق قومي . لقد حدثت اضرابات صناعية وتظاهرات شوارع بل حتى فتن من أجل الطعام . كما وُجدت جماعات للمعارضة السرية في الجامعات الروسية – حلقات دراسية ودعاية « لينينية » – كان أعضاؤها يعاقبون بتهمة الخيانة العظمى ، وتداولت موسكو سراً أدباً نصف سري من المنشورات والدراسات والقصائد والقصص المرفوضة من قبل الرقابة ، وكذلك لينغراد وسائر المدن الكبرى . لكن جميع ردود الأفعال الانعكاسية هذه المعبرة عن الاستياء الاجتماعي ظلت متقطعة ومشتتة ، ولم تتحدد لتعبر عن احتجاج قومي . ومن هذه الزاوية لم يتبدل الوضع تبدلاً حاسماً منذ عهد ستالين . وحتى إذا كان بعض الشعراء والروائيين قد توصلوا إلى رفع صوتهم المستاء وإلى إيجاد أكثر من صدى واحد ، فإن مجمل المجتمع ما يزال عاجزاً عن التعبير عن نفسه : ان الطبقة العاملة ما تزال خرساء سياسياً .

إبان الأعوام ١٩٥٠ ثقبت « قشرة » الستالينية من فوق من قبل الستالينيين أنفسهم ، على وجه التحديد لأنه لم تأت أي حركة من القاعدة لتصلح أو تغير نظام الحكم . ولقد انقضت مذ ذاك عشرة أعوام ، وللسبب نفسه حطمت « قشرة » الخروتشيفية اليوم من قبل الخروتشيفيين أنفسهم . لم يكن هناك أي

(١) : إ. دويتشر : «الاختبار الكبير » – ص ٢٧ – ٢٢ – ١٩٥٩ .

إنسان غيرهم قادراً على تحطيمها أو مستعداً لذلك . وهكذا تكون الزمر الحاكمة قد سعت مرة أخرى إلى تصحيح البنى والبنى الفوقية عن طريق إصلاح آتٍ من فوق . بيد أن حدود إصلاح كهذا ضيقة جداً ، أضيق بكثير حتى من إصلاح أعوام ١٩٥٠ . فقد كان في مقدور خلفاء ستـــالين آنذاك أن يلقوا إلى عرض البحر بكتلة ثقيلة من الإرهاب ، وأن يحافظوا مع ذلك على سلامة قاعدة النظام البيروقراطي . وخلفاء خروتشيف لا يستطيعون ذلك ، ولم يعـــد في مقدورهم تهدئة الاستياء الشعبي بتنازلات مسرحية كتنازلات أعوام ١٩٥٠ . إن على التنازلات الجديدة أن تشق قلب البنية البيروقراطية بالذات التي هي الآن عرضة للخطر نظراً الى افتقارها الى أي هامش أمان . إن المطروح اليوم على بساط البحث ليس « حق » زعيم أو زمرة من الحـكام في إرهاب الأمة ، بل هو ماهية احتكارهم السياسي بالذات ، « حقهم » في النطق باسم شعب لا يملك حق التعبير عن نفسه ولحسابه الخاص .ان المصاعب التي يواجهها العامل السوفياتي في الوقت الراهن لا تتطلب زرقة جديدة من الليبيرالية الأبوية ممنوحة من قبل البيروقراطية ، بل تتطلب الحرية الحقيقية وتقدماً أكيداً باتجاه الاشتراكية .

إن التفاوت الدائم بين الحاجة إلى الرقابة الممارسة من قبل القاعدة وبين العجز الظاهري لهذه القاعدة بالذات عن ممارسة تلك الرقابة مثير للفضول ، بل منذر بالخطر . ففي نهاية العصر الستاليني ، لم يكن في هذا العجز ما يدهش . إن ثلاثين عاماً من الهيمنة التوتاليتارية قد ذررت[1] العمال والمثقفين وقضت قضاء مبرماً على الفكر السياسي . وفي إبان الأعوام العشرة التي تلت موت ستالين بدأت الجماهير تتعلم من جديد عادات تكوين الرأي المستقل ، لكنهـــا أعادت تربية نفسها ببطء بالغ ، ونجحت الأوليغارشية الحاكمـة كل النجاح في عرقلة هـــذا التطور . وليس الاضطهاد البوليسي السبب الأول في منع تبلور كل معارضة تقدمية والحيلولة بينها وبين العمل على نطاق قومي . فحتى في عهد ستالين كان هذا الاضطهاد أقل شراسة مما في زمن روسيا القياصرة التي كان فيها جيل بعد

(١) : أي حولتهم إلى ذرات منفصلة عن بعضها بعضاً ، ومنغلقة على نفسها . « المترجم ».

جيل ورعيل بعد رعيل من المتمردين والثوار يعرضون برنامجهم ويناضلون لبلوغ أهدافهم سراً ، أو حتى علناً . يقيناً ، إن التناحر بين الحكام والمحكومين ذو طبيعة مختلفة اليوم ، وليس جوهرياً بنفس الدرجة : انه ليس كما في السابق تناحراً طبقياً ، ومن الصعب على الشعب أن يتغلب على الفجوة التي تركتها بضع عشرات من السنين من الانتهازية الوحيدة الاتجاه في الفكر السياسي والمبادهة الاجتماعية . بيد ان على الطبقة العاملة السوفياتية أن تتوصل الى ذلك ، وهذا لصالحها ولسلام الاشتراكية معاً .

(٤)

إن تحليل الخروتشفية على الصعيد الدولي يتبع نفس خطوط الصعيد الداخلي . فهنا أيضاً يتوقف تقدم الأعوام الأولى الباهر ، بل اننا نلحظ ، فيما بعد ، عودة الى الوراء قادت السياسة الخارجية ، وتسيير القضايا الشيوعية الأممية إلى مأزق .

منذ مطلع أعوام ١٩٥٠ طرأت تبدلات لها دلالتها على توازن القدرات . فنمو القوة الاقتصادية والعسكرية السوفياتية ، ونجاحات الاتحاد السوفياتي في القضاء ، والأقمار الصناعية والصواريخ والقنابل النووية الكبيرة ، ساهمت مساهمة كبيرة في « توازن القوى الرادعة » التي تشكل أساس « التعايش السلمي » الراهن.

لكن استقطاب القوة البالغ الناجم عن الحرب العالمية الثانية قد خف في الوقت نفسه . فالدولتان الكبريان ما عادتا تتواجهان من فوق الفراغ الاقتصادي والعسكري الذي كانت تشكله أوروبا الغربية في مطلع أعوام ١٩٥٠ . فالازدهار الكبير الذي حققه الاقتصاد الرأسمالي يوازن بل يتجاوز تطور القوة السوفياتية . وقد محض البوارجوازية ثقة جديدة في متانة « النيو - رأسمالية ». وأثر تأثيراً عميقاً على الطبقات العاملة الغربية ، وخفف من ميولها الاشتراكية ، وبعث في قلب العالم العمالي انتهازية متطرفة تبدو معها الاصلاحية الاشتراكية — الديموقراطية القديمة ثورية متطرفة . وفي إطار انبعاث النظام الاجتماعي القديم

في الغرب بأسره ، نجحت الرأسمالية الألمانية في يقظتها الثانية ووقفت على رأس أوروبا الغربية بثقل اقتصادها وحده . وقد انبعثت النزعة العسكرية الألمانية بدورها لتمد يدها إلى الأسلحة النووية ، وتصبح أقوى حليف للأميركان في أوروبا ، وترعب مرة أخرى أوروبا ، ولا سيما الاتحاد السوفياتي وبولونيا وتشيكوسلوفاكيا .

لقد كان الهدف الصريح لخلفاء ستالين منع أي تطور من هذا النوع . وهذا ما بحثوا عنه في التعايش السلمي . لكن لما كانت الرأسمالية باقية في غرب الألب ونظراً إلى ظروف الحرب الباردة ، ما كان شيء يستطيع أن يمنع انبعاث القوة الألمانية . والفكرة التي خامرت ستالين فـــترة من الزمن بأن أعضاء « التحالف الكبـــير » سيقومون من تلقاء أنفسهم وبصورة مشتركة بتحطيم تسلح ألمانيا وصناعتها ، تبدو اليوم وهماً رجعياً يعود تاريخه إلى زمن سحيق . وقد كان في مقدور خلفاء ستالين نظرياً أن يحاولوا إما معارضة الولايات المتحدة الأميركية وألمانيا الغربية بدون توانٍ وإما تهدئتها . لكن الدبلوماسية السوفياتية كانت تفتقر إلى استمرارية النظرة وإلى الشجاعة اللتين لا غنى عنهما لمقاومة أعدائها أو حتى لتخويفهم . وقد اكتفت بتسجيل بعض النجاحات، المتفاوتة في أفلاطونيتها كحظر التجارب النووية وتخفيف حدة الحرب الباردة تخفيفاً غير ذي أهميـــة تقريباً . إنهـــا لم تتوصل إلى التخفيف من انفجارية النقاط الساخنة من الكرة الأرضية ، كبرلين أو فيتنام الجنوبية . والواقع أن براميل البارود ، بعد عشرين عاماً من الحرب ، ما تزال في مواقعها التقليدية وهي تنذر بنسف الكرة الأرضية عن بكرة أبيها .

وسط أخطار كهذه كان من مصلحة الاتحاد السوفياتي البالغة أن يدعم وحدة الكتلة السوفياتية ، وعلى الأخص أن يعزز التحالف مـــع الصين . ولم يكن هذا ، والحق يقال ، بالشيء الهين . فالستالينية قد تركت حملاً ثقيلاً من الاحقاد والتوترات ، وأذلت وأهانت وجرحت جميع حلفائها الشيوعيين . وكانت أول بادرة حكيمة للدبلوماسية ما بعد الستالينية أنها شطبت على هذا الارث . ففي

عام ١٩٥٥ حاولت موسكو أن تعوض الحكومـات الشيوعية على الاضرار التي كابدت منها . وأعلن السوفييت عن حل الشركات المالية التي كان ستالين يراقب بواسطتها اقتصاد الصين وأوروبا الشرقية . وألغوا الاتفاقيات التجارية غـــير المتساوية التي كان ستالين قد فرضها ، وتخلوا عن سائر أشـــكال « التغلغل » . وهكذا شهد العالم تحول « الامبراطورية الستالينية » إلى كومنولث اشتراكي وقاد منطق اللاستلنة خروتشيف ومالنكوف وبولغانين الى اعلان اعادة الاعتبار الى تيتو وراجك وغومولكا وغيرهم من « الخونة » و « الجواسيس » ولم يكن في وسع الحكومة أن تفرض في الخارج الاستبداد المتصلب الذي ما كانت تستطيع أو تريد أن تبقي عليه في الداخل . وبديهي أن انتهاء عبادة ستالين أدى الى تمرد المجر عام ١٩٥٦ ؛ كما أثار حرجاً بالغاً لدى شيوعيي جميع البـلدان . لكن مزايا اللاستلنة تفوق ، بالرغم من كل شيء ، محاذيرها . والانتظار والأمل اللذان بعثتهما حالة الأمور الجديدة كانا أقوى من الخيبات .

ان الأيام الجميلة للاستلنة في الاتحـاد السوفياتي كانت أيضاً (مهما أمكن أن يبدو ذلك غريباً على ضوء الخرافة الجديدة المتعلقة بوفاء ماو الذي لا تشوبـه شائبة للستالينية) ، الأيام الجميـلة للتعاون والتضامن مع الصين . فبين ١٩٥٤ و ١٩٥٨ بلغت المعونة الاقتصادية والثقافية للصين ذروتها . وهذا ما سمح للصين بأن تبدأ بداية ألمع بكثير في التصنيع مما لو كان عليها أن تواجهه بمواردهـا الخاصة وحدها . وهكذا خطت خطواتهـا الأولى في طريق الاشتراكية بصورة أقل مشقة بكثير من الاتحاد السوفياتي عام ٢٩٣٠ . وحتى لو كان الاتحاد السوفياتي اضطر في سبيل ذلك الى تحمل بعض «التضحيات» ، بيد أن القوة التي اكتسبتها الكتلة الشيوعية بأسرها عوضت من تلك التضحيات . وهكذا انفتحت آفاق مشجعة للغاية وطويلة الأمد أمام الاتحاد السوفياتي والصين وحلفائها : فكان في امكانهم أن يتصوروا أنهم سائرون جميعاً الى الاشتراكية ، لا بشكل فوضوي ، ولا بفضل تطور كل واحد منهم في نطاق الاستكفاء الذاتي الاشتراكي في « بلده وحده » ، بل بفضل تعاون وثيق على أساس تقسيم دولي واسع ومخطط للعمل .

وهبت نفحة من الأممية تبدد الجو الخانق من الريبة والخوف والأنانية القومية الذي كانت ترزح تحت وطأته الامبراطورية الستالينية .

لكن آثار الحرب الأهلية في المجر والنزاع الصيني – الروسي قضت على هذه الآمال في مهدها . وانعكس الميل الى الاندماج. وليس هنا مجال تمحيص ظروف هذا التطور وسياقه الايديولوجي . لكن أخطر فعل سياسي قرره خروتشيف، بنتائجه التي لم تتجل واضحة إلا في الآونة الأخيرة ، هو قراره بسحب جميع المهندسين والفنيين السوفييت العاملين في تطوير الصناعة الصينية من الصين في شهر تموز ١٩٦٠(١) . لقد كانت هذه بادرة متعجرفة ومهينة وفظة لم يسبق قط أن صدرت عن موسكو . ولا يبدل من حقيقتها شيئاً معرفتنا ، على حد ما يزعم خروتشيف ، بأن الصينيين هم الذين جعلوا ذلك الانسحاب محتماً بإهمالهم نصائح الاختصاصيين وبإهانتهم رؤساءهم الروس . فمثل هذا النوع من التحدي لا يمكن أن يبرر في أي حال من الأحوال مثل هذا الرد الفظ ، المعمم ، المتطرف غاية التطرف . فعلى حين غرة توقف عدد كبير من الانشاءات الصناعية لأن الفنيين السوفييت تلقوا الأوامر بحرمان الصينيين من جميع البراءات والمخططات والخطط الروسية . وكان الصينيون قد وظفوا أموالاً ضخمة في المصانع والمعامل التي كانت تشاد ، فتجمدت التوظيفات وأكل الصدأ كميات كبيرة من الآلات التي كانت في طريقها إلى التركيب ، والمباني غير الناجزة . وقد كانت هذه ضربة رهيبة بالنسبة إلى أمة يفترسها الفقر ولم تكد تشرع بالتجهز في المجال الصناعي . ولم تقل نتائجها قسوة عن نتائج تدخل مسلح واسع النطاق . وقد توقف تصنيع الصين على أثرها مدة خمسة أعوام وتباطأ إيقاعه كثيراً ولمدة أطول أيضاً . وتلقفت البطالة والبؤس آلاف العمال فاضطروا إلى العودة إلى قراهم . ومما زاد الطين بلة الفيضانات الغزيرة والجفاف والمواسم الرديئة .

---

(١) اعترف بأنني عندما كتبت مقالي عن الماوتسية الذي ظهر في « الأزمنة الحديثة » في آذار ١٩٦٤ ، لم أكن واعياً كل الوعي أهمية هذا الحدث ونتائجه .

ان صدمة كهذه لابد أن تخلف ندوباً عميقة . ان الصينيين يشعرون بأنهم قد تعرضوا للخيانة . وقد قال لهم ماو ان عليهم من الآن فصاعداً ألا يعتمدوا على معونة أجنبية ، وان الأممية البروليتارية ليست بالنسبة إلى الروس وأصدقائهم « التحريفيين » غير عبارة جوفاء . ورد الفعل هذا شبيه الى حد ما بشعور الخيانة والعزلة الذي انتاب البلاشفة إبان الأعوام الأولى من الستالينية . وقد بدا على الماوتسيين أيضاً في بعض الأحيان أنهم يردّون على عزلتهم بأيديولوجية انعزالية وبنسخة جديدة من الاشتراكية في بلد واحد . بيد أنهم يناقضون أنفسهم ويتكلمون غالب الأحيان لغة أممية بليغة . انهم يعرفون أن عليهم الاستنجاد بضمير الشيوعية الأممي رداً على حلف موسكو الروسي الكبير ، وانهم لا يستطيعون أن يعززوا مواقعهم في العالم إلا بتضامنهم مع شعوب آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية التي هي في سبيلها الى التطور . لكن لا يمكننا أن ننفي التواجهات الشاقة بين مختلف ميول الماوتسية ، وهي تواجهات يستحيل في الوقت الراهن التكهن بمآلها . وحتى لو كان عمل خروتشيف في مجال السياسة الخارجية ناجحاً على طول الخط (وليس هذا هو الواقع) ، فإن هذا الفعل الجدير بإروسترات[1] يكفي لتشويه سمعته الى الأبد .

ان النزاع الروسي – الصيني قد وفر اندفاعة جديدة لجميع القوى النشيطة أو الكامنة العاملة في قلب الكتلة السوفياتية ، والشيوعية الدولية ، باتجاه الابتعاد عن المركز . ويلقي الماوتسيون تبعة ذلك على اللاستلنة التي شرع بها خروتشيف ويزعمون أنها تحرم المعسكر الاشتراكي من الهيبة المعنوية التي كانت توحده . والواقع أن اللاستلنة لم تفعل شيئاً سوى أنها سهلت عمل القوى العاملة باتجاه الابتعاد عن المركز ، وليست هي التي خلقت هذه القوى . فقد تكفلت بذلك الستالينية . ولا نبالغ مهما ألححنا على أن الستالينية ، بوقاحة بيروقراطيتها التي أهانت جميع الأمم الدائرة في الفلك السوفياتي ، صغيرها وكبيرها ، قد

(١) يوناني مغمور أراد أن يخلد نفسه ، فأحرق معبد آرتيميس ، الذي يعتبر من معجزات العالم السبع . « هـ. م. »

هيأت النزعة القومية لانفجار رهيب . وكما انه لم يعد في الامكان قمع التوترات داخل الاتحاد السوفياتي بعد موت ستالين ، كذلك لم يعد في الامكان لجم التناحرات والخلافات داخل المعسكر الاشتراكي . وكان لا بد من إيجاد منفذ لها . كان لا مناص من أن تتاح للمآخذ والأحقاد القومية المكبوتة إمكانيةالتعبير عن نفسها جهاراً حتى يمكن فيما بعد علاجها وتهدئتها . وكان من الضروري أيضاً أن تشعر تلك الأمم بأن الرئيس الموسكوفي الجديد متحرر من كل ميل إلى الشوفينية والفظاظة الروسية – الكبيرة . على هذا الأساس وحده كان يمكن للاتحاد السوفياتي أن يكسب أو يستعيد ثقة الشعوب الأخرى ، وعلى هذا الأساس وحده كان في مقدور القوى المتحررة العاملة باتجاه الابتعاد عن المركز أن تساهم في إعادة التوازن والانسجام من جديد إلى الكتلة السوفياتية ، بدلاً من أن تعمل باتجاه القطيعة . إن ما كان واجباً ليس الحد من اللاستلنة ، بل دفعها إلى الأمام في طريق آخر حتى يصبح الاتحاد السوفياتي وحلفاؤه قادرين على مواجهة مرحلة تاريخية انتقالية صعبة. وقد سمحت الخروتشيفية للشكاوى بالتعبير عن نفسها ، لكنها أججتها بدلاً من أن تهدئها . حررت قوى هائلة عاملة باتجاه الابتعاد عن المركز ، لكنها جعلتها تتطور حتى نقطة القطيعة . ولذا تلا الضربة التي سددت الى الصين ازدهار جديد للخصومات القومية في أوروبا الشرقية وتفسخ الكتلة الشيوعية الدولية .

(٥)

إن مفتاح معظم المشكلات الداخلية أو الخارجية المطروحة على الاتحاد السوفياتي يكمن في العلاقات القائمة بين الزمرة الحاكمة والجماهير الكادحة . ومع سقوط خروتشيف ، انهار للمرة الثانية النظام الذي كان فيه الزعيم يضطهد البيروقراطية ، وكانت فيه البيروقراطية تضطهد بدورها الشغيلة . إن الحكام

لم يسمحوا لخروتشيف بتثبيت سلطته فوق ظهورهم ، وألقوا به أرضاً قبل أن ينجح في غل أعناقهم ، وكان هذا بالنسبة الى البيروقراطيـة نوعاً من تقرير سياسي ذاتي للمصير أعلنت بواسطته أن مصلحتها وطموحها الجماعيين ستكون لهما الكلمة الأولى من الآن فصاعداً. ففي عهد ستالين لم يكن الجهازالبيروقراطي سوى نوع من حرس تابـع ليس له هوية سياسية خاصة . وقد أصبح الحرس التابـع اليوم دعامة من دعامات الحـكم ، فخوراً بامتيـازاته ، واعياً دوره ، مستعداً لانتداب رؤسائه للسلطة لكن من غير أن يقبل بالتنازل عن كل شيء لهم . ان الزمرة السوفياتية الحاكمة قد شادت « ديموقراطية داخلية » لاستعمالها الذاتي وحدها . وهي حريصة على ألا يتسع نطاق الحريات الديموقراطية ليشمل الشغيلة والفلاحين والمثقفين والبيروقراطيين من ذوي المناصب غير العالية . والمظهر المتناقض لهذا الموقف يثب إلى العيون وثباً . فالزمرة الحاكمة تملصت من استيراد زعيم أوحد لأن الأمة بلغت مستوى ثقافياً أرفع ، وباتت تثق في نفسها ، وأرادت نظام حكم أكثر عقلانية وعصرية . لكن هذه العوامل ، التي جعلت عودة الحـكم الشخصي شبه مستحيلة ، تعارض أيضاً الحكم الأوليغارشي. إن الجماهير الـكادحة ، التي تجاوزت مرحلة الاستبداد الدكتاتوري الأبوي ، لا تستطيـع أيضاً أن تقبل بشكل « جماعي » من الوصاية البيروقراطية . وعلى فرض انها عاجزة حالياً عن النضال ضد هذا الغير بصورة مكشوفة وعلى نطاق قومي ، فإنهـا تعارضه بصمت وتكتشف وسائل لا تحصى لشله .

إن هذا الضغط الآتي من تحت ، المتشتت والأخرس ، لكن النفاذ معذلك، هو اليوم العامل المسيطر في السياسة السوفياتية . ان التسلسل الهرمي مرغم ، أراضياً كان أم كارهاً ، على أن يشرك آخرين في حريته التي نالها مؤخراً ، وان يثبت انه لا يعتبر الدولة والاقتصاد القومي مزرعة خاصـة له . لقد أعلن خروتشيف ، في البرنامج الجديد للحزب ، ان الاتحاد السوفياتي لم يعد محكوماً من قبل دكتاتورية بروليتارية ، لأن الدولة السوفياتيـة تخص اليوم « الشعب قاطبة » . ويرد أنصار ماو أن الخروتشيفية ، « بتصفيتها » دكتاتورية

البروليتاريا ، قد تخلت عن المذهب الماركسي ، وأظهرت للعيان « الانحطاط البورجوازي » لأعضاء الحكومة ، بل كشفت أيضاً عن خطر انبعاث الرأسمالية. بيد أن الماوتسيين خلطوا ، بصدد هذه النقطة ، بـــين الظواهر والواقع . بالطبع ، إن فكرة دولة تخص « الشعب قاطبة » هي ، من وجهة النظر المذهبية الماركسية ، فكرة لا تقل تناقضاً عن مفهوم لاسال عن « دولة الشعب » الذي حاربـــه ماركس في « نقده لـبرنامج غوتا » . فدكتاتورية البروليتاريا ، حسب مخطط ماركسي ، يجب أن « تضمحل » وأن تهيىء لقيام المجتمع الخالي من الطبقات ومن الدولة. لكن «اطروحة » خروتشيف (شأن بعض معتقدات الماوتسية) ليست على صلة متينة بالنظرية الماركسية . وقد كانت (وما تزال) هامة من حيث ما تريد أن توحي وتأتي به ، لا من حيث مضمونها الايديولوجي. كانت تخاطب شعباً تختلط في ذهنه دكتاتورية البروليتاريا والستالينية . وكان الاعلان عن انتهاء دكتاتورية البروليتاريا يمثل بالنسبة إلى هؤلاء الناس التزاماً ووعداً ، التزاماً بعدم العودة الى طرائق الحـكم الستالينية ، ووعداً بزيادة الحريات الفردية التي يطالب بها الشعب .

قلنا إن حكومة غير خاضعة لرقابة الشعب هي (بغضّ النظر عن عبء سباق التسلح) أكبر عقبة في وجه النمو المتوازن للاقتصاد السوفيـاتي وتطور المجتمع بصورة أكثر انسجاماً .

وأي إصلاح إداري آخر ، وأي تصنع في التخطيط لا يمكن أن يقوما مقام النقد الحر والرقابة الشعبية . إن الحريات المدنية ليست اليوم بالنسبة إلى الاتحاد السوفياتي مسألة سياسية صرفاً بقدر ما هي العنصر الذي لا غنى عنه في تخطيط وتنظيم اقتصاد حديث يخص الشعب . فطالما أن الشغيلة غير أحرار في الاختيار والتعبير من هذا الاختيار ،أسواء بصفتهم منتجين أم مستهلكين ، يظل مقطوعاً عن عناصره الانسانية ويصبح فريسة الأهواء والفساد البيروقراطي. ولقد أراد خروتشيف أن يتهرب من المشكلة . وكذلك كان شأن مختلف المشاريع التي دار الكلام عنها منذ سقوطه كمشروع ليبيرمان . فلبيبرمان يقترح طرائق جديدة في

المحاسبة ، ويغير معدل الاهتلاك لرأسمال محـدد ، ويطالب بتلاؤم انتاج السلع الاستهلاكية مع الطلب ، وإلى غير ذلك من التدابير الادارية . ومهما تكن مزايا هذه المقترحات أو نواقصها ، فإنها لا تستطيع أن تتوصل إلى منـــح الاقتصاد القومي واحداً بالمئة من قوة الدفع التي سيأتيه بها شعور المنتج بانتهـاء الجبروت البيروقراطي. إن شعوراً كهذا سيحرر كميات هائلة من الطاقة المبدعة. وسيكون أشبه بتأميم ثانٍ للصناعات ، تأميم حقيقي هـــذه المرة وليس رسمياً فحسب . وعندما تصبح الدولة ، التي تراقب الاقتصاد ، مراقبة من قبل المجتمع بدورها ، تبدأ الاشتراكية مسيرتها . ولقد كان عجز نظام خروتشيف عن معالجة عيوب ونواقص البنيـــة الاقتصادية يعكس الهوة العميقة التي تفصل الدولة عن المجتمع .

إن حكومة غير مسؤولة ، كانت منبع الفشل الرئيسي في السياسة الخارجية السوفياتية ، قد سممت وألهبت أيضاً النزاع مع الصين. وواضح أن اللوم في ذلك يجب ألا يُلقى على الاختـــلاف السياسي ولا على انقسام الاحزاب الشيوعية إلى يمين ويسار ووسط .

إن هذا الانقسام ، الناشىء عن اضمحلال الايديولوجية الوحيدة الاتجاه ، يمكن أن يكون على العكس مصدراً للتقدم . إن ولادة مدارس فكرية متباينة تعكس التناقضات الملازمة للتطور التاريخي والاختبارات التي تنطرح على حركة غير متجمدة . والمفجع هو ما فعلته ومـــا تزال تفعله مختلف البيروقراطيات الشيوعية - السوفياتية أولاً لكن الصينية أيضاً فيما بعد ــ لحذف الانقسامات كمرحلة أولى ، ولتضخيمها وتشويهها كمرحـــلة ثانية . إذ لما كانت مصالح البيروقراطيات قومية من حيث التعريف ، ولما كانت أفكارهـا تتحرك دوماً داخل وطنها « الخـــاص » ، فقد شوهت وزورت صراع الآراء وديالكتيكه الأممي لتجعل منه صداماً في العواطف والمطامح القومية النزعة. وهكذا فإن مساجلة انصبت في البداية على صحة أو بلى مفهوم اللينينية عن الامبريالية وعلى استراتيجية وتكتيك الشيوعية حيال تهديد الحرب النووية ، قد انحطت الى صراع على المطالبة بالأراضي القومية والى تظاهرة سوقية من الكبرياء والأحكام

المسبقة القومية النزعة ، جديرة بالعرقيين والامبرياليين من الطراز القديم . وحتى لو عادت موسكو وبكين الى هدوئهما وكفتا من هذا الشطط (كما كفت موسكو وبلغراد عن تمريغ كل منهما الأخرى بالوحل) فإن إطلاق مثل تلك الدعاية القومية النزعة ، الغبية والرجعية ، سيترك حتماً خلفه خيبة عظيمة .

لكن هل كانت المساجلة الروسية – الصينية ستأخذ ذلك الشكل البالغ السخف لو كان الزعماء السياسيون في كلتا العاصمتين مرغمين على تقديم تقرير بأعمالهم إلى مؤتمر سوفييتات أو إلى أي هيئة تمثيلية أُخرى؟ ولو كان في مقدور الشيوعيين الروس أن يقولوا علناً ، دونما خوف، إنهم أقرب إلى وجهة نظر ماو أو أي شخص آخر منهم إلى وجهة نظر خروتشيف ؟ ولو كان الصينيون أحراراً هم أيضاً في رفض وحي عرّافهم الإلهي باعتباره وحياً غير صحيح ؟

إن طرح السؤال يعدل تقريباً الاجابة عليه . ولا حاجة البتة إلى تصوير حالة الجماهير المعنوية بصورة مثالية . إن بعض عمال وفلاحي ومثقفي العالم السوفياتي ،بعد حوالي نصف قرن من ثورة أكتوبر ، ما تزال تسري فيهم عدوى الشوفينية ، بل العرقية ، الشيء الذي ينطبق أيضاً بلا ريب على بعض بلدان شرقية أُخرى . إن الزمر الحاكمة ، في عهد ستالين كما في عهد خروتشيف ، قد شجعت أو أججت ، في سبيل هدفها الخاص ، العواطف والأحكام المسبقة القومية النزعة ، ثم خيل اليها ، بعد أن شوهت الروح الشعبية ، أن عليها أن تتملق الشكوك والأحقاد التي راحت تستيقظ . تلك هي اللعبة التي لعبتها أيضاً الاشتراكية – الديموقراطية الغربية بين ميول المرشِدين الرجعية وعواطف المرشَدين الرجعية . ومع ذلك ، وكما بيّن لينين ،هناك فرق بين الشوفينية الجاهلة والهائمة التي يمكن أن تتجلى لدى العمال والفلاحين وبين الصلف القومي الخاتل ، المحاسب، العضال ، الذي يتجلى لدى الحكام (كالفرق ،الأكبر أيضاً ، بين العواطف القومية للمضطهدِين) . والحق أننا نجد لدى الشعب والانتلجانسيا جذوراً عميقة لتيارين فكريين إثنين على الأقل ، تيار يقود إلى الأممية ، وتيار يقود إلى النزعة القومية . وهذان التياران في صراع دائم على جميع مستويات المجتمع السوفياتي .

ومن المرجح أن تواجهاً مكشوفاً بين التيارين سيؤدي بصورة محتمة تقريباً إلى إضعاف العناصر الرجعية وتقوية العناصر التقدمية . ولو مارس المجتمع الرقابة على الجهاز البيروقراطي لوضع على الأقل عقبات أمام استمراره في حبك الدسائس القومية والخدع السياسية المعتمدة على القوة والموجهة ضد « الدول العمالية » . ومن الصعوبة بمكان أن نتصور أن الرأي العام السوفياتي كان سيقبل ، لو كان حسن الاطلاع ، بتدبير يلحق أفدح الأذى بمصالح الصين الحيوية كتدبير استدعاء الاختصاصيين الروس . وانه لأمر له دلالته أن يكون خروتشيف ، كتلميذ وفيّ لستالين ، قد أخفى هذه البادرة عن الشعب السوفياتي وعن العالم طوال أربعة أعوام إلى أن كشف الصينيون بأنفسهم عن فداحة الأذى الذي أنزل بهم .

ان انتهاء سياسة الأسرار ، وعلنية المناقشات ، والنقد العلني للحكومات ، هي شرط لا غنى عنه للاتحاد السوفياتي وحلفائه إذا كانوا يريدون الخروج من المأزق الذي أوقعهم فيه خروتشيف .

ومما يؤسف له أن خلفاء هذا الأخير ينتمون جميعاً إلى ذلك الرعيل من القادة الذي تكوّن في العهد الستاليني ، حتى وان جرى إصلاحهم جزئياً بعد موت ستالين ، ولا يمكن بالأصل أن يبرز قادة سياسيون جدد إلا من جيل أحدث سنا وأكثر ثقافة ، لكن مثل هذا الجيل لا يملك في الوقت الراهن فرصة الإعلان عن نفسه . بيد أن خلفاء خروتشيف أخذوا على عهدتهم جهاراً متابعة اللاستلنة ، وضمنياً التخلص من « عبادة خروتشيف » . ومصلحتهم بالذات تملي عليهم الوفاء بوعودهم ، لكن لما كانوا قد راهنوا بالتوالي على الستالينية وعلى الخروتشيفية فإن سلوكهم لن يخلو على الأرجح من الالتباس .

وما أكثر مظاهر هذا الالتباس ! فستالين قد استخدم وسائل همجية ليطرد الهمجية من روسيا . وخروتشيف راح يدمّر الستالينية بطرائق ستالينية . واليوم يحاول كوسغين وبريجنيف وشركاؤهم التخلص من بقـــايا الخروتشيفية المختلطة الملتبسة بطرائق خروتشيفية إن كثيراً وإن قليلاً . إن كل عهد من العهود المتعاقبة قد خلّص الحياة الروسية من جزء كبير من الداء الذي كان يناضل ضده . لكن

نظراً إلى الوسائل التي جرى الاعتماد عليها ، لم يكف هـــذا الداء عن الميل إلى معـــاودة الظهور . إن عناصر هامة من الهمجية الروسية القديمة كانت ما تزال ماثلة في الاتحاد السوفياتي في نهاية العهد الستاليني ، كما أن مسالة هامة من الستالينية ظلت تتلبس الخروتشيفية حتى بعد رفع مومياء ستالين من ضريح الكرملين ، واليوم ، وبعد رحيل خروتشيف ، ما يزال المسرح السوفياتي يتعثر ببقايا الخروتشيفية .

بيد أن التاريخ لا يدور في حلقة مفرغة . فبقايا الهمجية القديمة والستالينية قد انحلت رويداً رويداً حسب حاجات التقدم القومي والدولي . ولعل العناصر المتخلفة من الخروتشيفية هي في سبيلها الآن إلى التقلص . ولما كانت مظاهر الالتباس تتوالى ، فإنها تنسخ بعضها بعضاً بصورة تزداد تشوهاً باستمرار : إذا كانت الخروتشيفية لم تفعل شيئاً سوى أنها ملأت الفراغ بين عصرين ، فإن نظام بريجينيف وكوسيغين قد لا يكون غير استطالة لا معنى لها . ان بداية مرحلة جديدة حقاً من الثورة الروسية – وليس الثورة الروسية وحدها – بداية لا لبس فيها هي الآن ، ومنذ مدة من الزمن ، موضع انتظار الجميع .

كتب في كانون الثاني ١٩٦٥
نشر في حزيران ١٩٦٥

تيّارات الشيُوعية الثلاثَة

بقلم : إسحق دويتشر

يقول هيغل في أحد مؤلفاته إن الحزب لا يكون له وجود حقيقي إلا يوم ينقسم على نفسه . وهذه الفكرة، البعيدة عن أن تشكل مفارقة ، بسيطة وعميقة بواقعيتها الجدلية . فما من حركة سياسية (وما عن مدرسة فلسفية) تستطيع أن تتجنب ، عندما تنمو وتنتشر ، تفتح التناقضات التي تحملها في نفسها أو الملازمة لبيئتها ، وكلما كان هـذا التفتح أقوى ، كانت الحركة أغنى وأمتن . إن التصور الذي كان لستالين عن حزب وحيـــد الخط كان طوبائية مرعبة ، حلماً ملوناً لأوتوقواطي يخشى حتى الموت كل شقاق أو كل «إنحراف» ، وينتصب في مخيلته فوق وقائع التاريخ والمجتمع . إنـــه لم يتوصل إلى استبعاد التناقضات من قلب الحركة الشيوعية إلا بجذفه الحركة نفسها ، بإطفائه كل حياة فيها وبتحويلها إلى مجرد « جهاز » . لكن حتى في هذه الحال تابعت التناقضات انعكاسها ، كما لو في مرآة مشوهة ، في سياسته بالذات ، بانعطافاتهـــا المعروفة إلى « اليمين » وإلى « اليسار » ، إن وحدانية الخط والاتجاه ، بالرغم من لا واقعيتها فلسفياً وتاريخياً قد هيمنت على الاتحـــاد السوفياتي والشيوعية الدولية طوال عقود عدة ونحن ما نزال نعاني من نتائجها في الساعة الراهنة .

الأعوام ١٩٢٠ والأعوام ١٩٦٠

إن النزاع الصيني – السوفياتي ، الذي نشب بعد الخلاف بصدد اللاستلنة في الاتحاد السوفياتي وبعد ثورتي المجر وبولونيا عام ١٩٥٦ ، كان بمثابة مرحلة جديدة في تفسخ الحزب الوحيد الخط . فإذا بالحركة الشيوعية الدولية منقسمة على نفسها من جديد جهاراً ، وهذا ما يعطيها بعض الواقعية . ومن جديد راحت تناضل على طريقتهـــا لاكتساب شخصية ووعي ، بدلاً من أن تكون ، كما في العصر

الستاليني ، حركة زائفة ، شبه حركة تستمد هويتها من غير ذاتها . وإذا ما قطع التغير شوطاً طويلاً بما فيه الكفاية ، وإذا ما اتيحت للحركة إمكانية تفتيح جميع تناقضاتها الحقيقية ، وإذا ما أمكنها أن تجد نفسها من جديد ، فإن الفوائد التي ستجنيهامن عدم التفاهم والشقاق الراهنين، ستكون أعظم من المحاذير والمساوىء المباشرة التي يشخص اليهـا الشيوعيون وأعداء الشيوعية بأنظارهم ، أولئك بتخوف وهؤلاء بأمل فرح .

إن منطق الموقف يميل إلى أن يخلق من جديد داخـل الشيوعية الانقسام التقليدي بين اليمين والوسط واليسار . وهذا ما يزال ميلاً أكثر منـه واقعاً ، وإمكانية أكثر منه حقيقة قائمة . وخطوط الانفصال مـا تزال مبهمة ، تحطمها تيارات مضادة متنوعة ، ويحجبهـا التباس ضبابي . إذن فنحن لا نستطيع أن نتكلم إلا بصيغة الشرط عن هذه التيارات الثلاثـة في الشيوعية المعاصرة : الماوتسية إلى اليسار ، والخروتشفية في الوسط ، ويمين غير واضح المعالم بشكل محدد لكن له تأثيره، يمثله تيتو وتولياتي وأتباعهما الكثيرون شبه المغمورين داخل الكتلة السوفياتية . وسواء أشاء المرء أم أبى ، فإنه لا بد له أن يتذكر التيارات الثلاثة في الأعوام العشرينيات : بوخـارين إلى اليمين ، وستالين في الوسط ، وتروتسكي إلى اليسار . وهكذا يبدو أن الشيوعية ، بعد فاصل زمني طويل ، قد استأنفت النقاش الايديولوجي الكبير الذي مضى على توقفه ثلاثون عامـاً . (ليس من قبيل الصدفة أن يصف المتخاصمون في هذه المساجـلة بعضهم بعضاً بالتروتسكية والبوخارينية والستالينية) . لكن أهو حقاً نفس النقاش ؟ الحق أنه بقدر ما أن المسائل والأهداف التي كانت كامنة وراء انقسامات ١٩٢٠ قد احتفظت بأهميتها وطابعها الراهن ، فإن الانقسامات الحالية ، إذا ما تجسدت مادياً ذات يوم فستتجاوب بصورة مجمـلة مع انقسامات ١٩٢٠ . لقد كانت المساجلات القديمة مركزة على المشكلات الأساسية للانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية ، وهذه المشكلات لم تحل بعد. ولقد كانت أعوام ١٩٢٠ تمثل مرحلة تكون الأفكار الطليعية الكبرى التي تبرز اليوم إلى النور من جـديد ، بعد أن

كانت وضعت في قائمة المحرمات أو سقطت في عالم النسيان، والتي ستظل محتفظة بطابعها الراهن لمدة طويلة من الزمن .

لكن إذا كان استمرار الميول الثلاثة يتجلى عبر الانقطاع ، فإن هذا المظهر المنقطع هو المهيمن في الوقت الحالي . لقد تبدلت أشياء كثيرة : الموقف التاريخي العام ، ميزان القوى ، البنية الاجتماعية للمجتمع ما بعد الرأسمالي، العالم المستعمر ونصف المستعمر ، السياق الذي تعمل فيه الأحزاب الشيوعية واطار تقاليدها بالذات . ولا يمكننا الاكتفاء بالإمساك من جديد بخطوط التطور التاريخي في نفس المكان الذي تركت فيه عام ١٩٢٠ لأنها بكل بساطة لم تبق فيه . فالانقسامات القديمة تتكرر في عالم اجتماعي – سياسي جديد على الأقل جزئياً ، بالنظر الى المسؤوليات الجديدة الملقية على عاتق الاتحاد السوفياتي بصفته دولة نووية ، وانتصار الثورة الصينية وتوطدها ، وتقدم الثورة في سائر أجزاء العالم ، وتطور التصنيع في جميع البلدان التي يحكمها الشيوعيون وتطبيق نظام المزارع الجماعية في معظمها ، الخ . وعلى هذا فإن بعض حجج عام ١٩٢٠ لن يكون لها أي معنى اليوم . ولو كان بوخارين ما يزال على قيد الحياة لما استطاع الدعوة إلى انتهاج سياسة تشجع تقدم الزراعة الفردية أو الرأسمالية سواء أفي الاتحاد السوفياتي أم في الصين . (وبالمقابل فإن السياسة التي يتبعها تيتو أو غومولكا تجاه الفلاحين تتجاوز من بعيد نظريات بوخارين) . بيد أن ما يثقل على الشيوعية ليس هذه التغيرات في الوسط الخارجي بقدر ما هي تلك الأعوام التي تعد بالعشرات من النمطية الوحيدة الاتجاه . إن هذه الأعوام هي التي تحدد طابع وأسلوب المساجلة الراهنة .

في كل قطاع من القطاعات الثلاثة ، قطاع ماو وقطاع خروتشيف وقطاع تيتو ، تصدر عن الشيوعية اليوم ردود فعل ضد الستالينية ، لكنها جميعها ذات طابع ستاليني ، وان كانت تختلف في طبيعتها بين قطاع وآخر . ففي الأعوام العشرينيات انتصبت الشيوعية الرسمية ضد اللينينية مع حفاظها على أشكال الأرثوذكسية اللينينية . واليوم ، كما بالأمس ، نشهد قطيعة الحركة مع ماضيها

وتقاليدها . وفي كلتا الحالتين انعكست طبيعة هذا الماضي وهـــذه التقاليد ، بصورة إيجابية وسالبة معاً ، على المرحلة الجديدة .

كانت التقاليد اللينينية منسوجة من خيطين رئيسيين : الأمميـــة الثورية والديموقراطية البروليتارية . ولقد أكد ستالين وبوخارين ، ضد أممية لينين ، أن الثورة الروسية تكفي نفسها بنفسها ، وان الاشتراكية يمكن أن توجد في بلد واحد . ولقد وجدا نفسهما مرغمين على تبرير هذا المذهب الجديد بالاقتباس من تعابير المذهب القديم - ومن هنا كانت الصورة الموسوسة التي عرضاه بها . وقد فرضها من فوق خاتمها الوطني - الاشتراكي على تقاليد الأممية البولشفية . كما أن التصور الستاليني عن الحزب الوحيدالخط والاتجاه ، الذي لا يسمح بأي اختلاف في وجهاتالنظر داخلياً ، كان يتناقض مع « المركزية الديموقراطية »التي انتهجها لينين والتي أنعشت القاعدة الشيوعية بالنقاش المستمر، ومع الديموقراطيةالشعبية للجمهورية السوفياتية في بدايتها . ولقد كان محتماً أن تزيف أو تهدم جميـــع العادات البولشفية في التفكير والعمل حتى يستطيـــع الحزب أن يتجاوب مع مثل ستالين الأعلى . وطالما أن ذلك لم يتحقق ، فإن عطالة العاداتالديموقراطية ستظل محسوسة دوماً : وهكذا ظل الحزب حتى نهاية الأعوام العشرينيات منقسماً إلى يمين ووسط ويسار . وكان هذا الانقسام يعتبر طبيعياً ومشروعاً .

كان ستالين نفسه في ذلك الوقت لا يجرؤ بعد على نقض شرعية المساجلة الكبرى . فما تبقى من الحرية الداخلية والديموقراطية البروليتارية كان ما يزال هاماً وحيوياً بحيث احتاجت الستالينية إلى عدة سنوات لتتخلص منه .

ان الوضع الراهن للأمور يبدو إلى حد كبير كانعكاس لموقف ١٩٢٠ . فقد ظهرت أممية شيوعية جديدة ، لكنها ما تزال بحاجة الى ثقب قشرة الانانية القومية التي تشكلت في أيام ستالين . كما أن هناك خميرة إيديولوجية جديدة في سبيلها إلى الولادة ، ميلاً جديداً إلى النقاش وعدم الانحياز ، تعطشاً جديداً إلى الحرية الداخلية في قلب الحزب وإلى الديموقراطية الاشتراكية . لكن هذا كله ما يزال حبيس العادات الستالينية من الانضباط الكلي . إن ولادة النقاش من

جديد ، بعد حوالي أربعين سنة من آخر مساجلة شيوعية كبيرة ، كان لها على الشيوعيين مفعول صدمة رهيبة ، وبدت لهم غير مشروعة البتة . ألا ما أثقل حمل الستالينية وما أصعب الخلاص منه على الأحزاب الشيوعية !

نزاع عمره ٤٠ سنة

ليس من السهل فصل الواقع عن الخيال في المساجلة الصينية – السوفياتية ، ولا تمييز الدوافع الحقيقية من الذرائع الأيديولوجية والحيل التكتيكية، فأن يكون خروتشيف أحـــد أتباع ستالين الرئيسيين وأحد قادة حملة التطهيرات الكبيرة،هو الذي يعبر اليوم عن الرغبة في تحرير الشيوعية من التحجر الستاليني فهذا شيء يبعث على السخرية البالغة ، في الوقت الذي يطرح فيه ماوتسي تونغ نفسه حـــارساً للاورثوذكسي الستالينية ، هو الذي كانت روابطه بالستالينية سطحية وبعيدة للغاية .

يقال لنا أن نزاع موسكو – بكين يعود إلى عام ١٩٥٨ ، ومنذ ذاك ، أي منذ خمس سنوات طويلة ، كان هذا الخلاف سراً يعرفه الجميع ويريد التسلسل الهرمي الشيوعي مع ذلك أن يبقيه طي الكتمان . ولو تتبع المرء ، خـلال تلك الأعوام ، تبدل النبرة الايديولوجية في أصوات موسكو وبكين ، لاستحال أن يخامره ظل من شك في هذا الموضوع[١] . إن الخوف والريبة اللذين يشعر بهما القادة الذين تكونوا في المدرسة الستالينية تجاه النقاش العلني العام، يظهران بكل جلائها عندما نرى أنهم أخفوا سوء تفاهمهم، مثل هذه المدة الطويلة من الزمن،

(١) : الدبلوماسيات الغربية ، ولا سيما وزارة الخـــارجية الأميركية ، والمختصون الغربيون في الشؤون السوفياتية والصينية ، هم وحـــدهم الذين رأوا في فكرة نزاع صيني – سوفياتي « خدعة من خدع الدعاية الخروتشيفية » تستهدف خدعهم و « تنويم يقظة الغرب » . بهذه الألفاظ وصف ناطق بلسان الخارجية الأميركيـة ، منذ مدة ليست بطويلة ، واحدة من مقالاتي العديدة حول سوء التفاهم الصيني – السوفياتي ، بعد أن نشرته صحافة الولايات المتحدة .

حتى عن القاعدة الشيوعية . إن هذا لا يمكن أن يحدث إلا في حركة تقودها اوليغارشيات خرساء . لكن ما نتيجة ذلك ؟ عندما كشف النقاب رسمياً في النهاية عن الخلافات ، كانت الهوة بين الحزبين السوفياتي والصيني قد حفرت وأصبحت مستحيلة الردم عملياً . لقد بذل الطرفان قصارى جهودهما للحفاظ على « الوحدة » وعلى وهم وحدانية الخط ، لكن هذا الوهم ما كان يستطيع أن يحجب عن الأنظار أو يزيل من الوجود نزاعاً جوهرياً حول المبادىء والمصالح . وكلما طالت المدة التي ترك فيها النزاع يختمر تحت الأرض ، كان لا بد أن يكون الانفجار المحتمل أشد عنفاً . واليوم يتوجب حتى على أكثر أتباع ماو أو خروتشيف سذاجة وسرعة تصديق أن يفهم أنه لو جرت المساجلة منذ البدء تحت سماء مكشوفة ، لكانت فرصة المتخاصمين أكبر بكثير مما هي عليه الآن في أن يناقشوا بصورة عقلانية الخلافات وفي أن يسووها ، أو على الأقل في أن يرسموا حدودها ويوضحوها .

لكن الخروتشيفيين والماوتسيين لا يجرؤون اليوم على النظر الى الحقيقة الكاملة مواجهةً وعلى كشفها . ان الجميع يغرقون في النقاش بنوع من رعدة ، بشعور باقتراف خطيئة رئيسية بحق «القوانين الكنسية » لحزبهم المشترك . وعلى هذا فالقول بأن موسكو وبكين هما على خلاف منذ عام ١٩٥٨ ، هو نصف الحقيقة فقط . إن ما بدأ في ذلك التاريخ هو مرحلة جديدة في النزاع ، لكن وجدت في السابق مراحل أخرى كثيرة ، مكشوفة أو كامنة . **إن التناحر الجوهري بين الثورة الصينية والبيروقراطية السوفياتية له من العمر أربعون عاماً** . لقد بدأ بالظهور في منتصف الأعوام العشرينيات ، عندما ضغط ستالين وبوخارين على الشيوعيين الصينيين للبقاء في حظيرة الكيومنتانغ ، والقبول بانضباطه ، والخضوع لأوامر تشان كاي شيك ، والتخلي عن مطامحهم الثورية الذاتية ، وبالتالي تهيئة عملية ١٩٢٧ الانتحارية (هاراكيري) ويومذاك ضحت موسكو ، التي باتت حاملة شعار الاشتراكية في بلد واحد ، بالثورة الصينية على مذبح سياستها العليا القابلة للنقض وأنانيتها القومية وحاجاتها الدبلوماسية .

واليوم ، بعد حوالي أربعين عاماً ، وبعد انتصار ثورة صينية أخرى ، وبعد لاستلنة مشتطة في موسكو ، ما يزال أساس النزاع هو هو : فموسكو ما تزال تعمل على أن تغتصب من الصينيين جزية سياسية وإيديولوجية.. لداعي مصلحتها العليا الخاصة .

الماوتسية والستالينية

لا نقصد هنا أن نروي تاريخ العلاقات المتبسة بين الاتحـاد السوفياتي بعد لينين وبين الشيوعية الصينية . يكفي إذن أن نذكر بأن ستالين ، طوال الأعوام الثلاثينيات ، نظر إلى ماوتسي تونغ بحرج لم يستطع إخفاءه ، من غير أن يعرف أبداً إن كان عليه أن يعامله كحليف عظيم أو كهرطوقي حقير ، وبأن الأنصار الصينيين ، طوال مرحلة ينان ، لم يحصلوا عملياً على أي معونة سوفياتية ، وبأن ماو قرر عام ١٩٤٨ ، ضد رأي ستالين ، أن يتابع الحرب الأهلية في الصين حتى النصر . ولقد شعر الصينيون ، بعد الحرب العالمية الثانية مباشره ، بكل وطأة الانانية الستالينية ، عندما استولت قوات الاحتلال السوفياتية في منشوريا على القسم الأكبر من التجهيزات الصناعية في البلاد بصفة « تعويضات حرب » للاتحاد السوفياتي .(كانت منشوريا في ذلك الوقت ،بعد تخريب اليابانيين للصناعة الصينية، المركز الصناعي الرئيسي في الصين) . ثم حاول ستالين ، بعد صعود ماو الى السلطة ، أن يغزو ويراقب الاقتصاد الصيني بواسطة شركات صينية –سوفياتية. وقد كان كل تدبير من هذه التدابير بمثابة ضربة قاسية لمصالح الثورة الصينية ولكرامة البلاد . وقد التزم ماو ورفاقه إزاء هذه الضربات صمتاً مليئاً بالحقد : كانوا أضعف من أن يحتجوا . لقد حافظوا ما أمكنهم على ظاهر الأورثوذكسية الستالينية ، هم الخائضين غمار الحرب الأهلية ، والمهـــددين بتدخل أميركي ، والقلقين على الحصول على دعم السوفييت بقدر الإمكان . أما عملياً فإن ماو لم

يعر بالاً لمعتقدات ستالين وتعلياته ليتابع تكتيكه واستراتيجيته الشخصيين . لكنه استسلم هو ورفاقه ، تجنباً للحرمان وللحفـاظ على حرية الحركة داخل بلاده ، لابتزاز ستالين الايديولوجي المتواصل ، وأدوا فريضة الطاعة الواجبة لـ « أبي الشعوب » .

ومع ذلك فإن تمسك ماو الظاهري بالاورثوذكسية الستالينية كانت له ، بالرغم من انتهازيته ، نتائج بالغة الأهمية . فما كان ظاهراً أصبح جزءاً لا يتجزأ من طقوس ماو وفقهه . وقد تجلى ذلك لحظـة اندفعت موسكو في اللاستلنة . وقد كان ماو واحداً من الزعماء السياسيين النـادرين ، النادرين للغاية ، الذين ذكروا أثناء كلامهم عن المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفياتي ، الخلافة الرسولية ، « ماركس – انجلز – لينين – ستالين ، بينما كان الجميـع في موسكو ، بما فيهم مولوتوف وكاغانوفيتش ، يتعجلون في تناسي هذه الصيغة التي كرستها السنون . وقد قيل لنا أن « تقرير خروتشيف السري » كان بالنسبة الى ماو مفاجأة كاملة وصدمة كبيرة . ومع ذلك فقد بدا عليه وعلى رفاقه ، بعد فترة وجيزة ، انهم قد انحازوا الى صف اللاستلنة . وما كان في وسعهم في الواقع الا يفهموا أن « موضة موسكو الجديدة » تسير باتجاه رغباتهم وحاجاتهم : فهي تضع حداً لهيمنة موسكو المتصلبة على « المعسكر الاشتراكي » ، وتعلن عن تساوي جميـع أعضاء المعسكر ، وتعد بمعاملة الحليف الرئيسي للاتحادالسوفياتي معاملة محترمة .

وهكذا لم يبد ماو أي اعتراض عندما ذهب خروتشيف الى بلغراد عام ١٩٥٥ ليعترف بالذنوب أمام تيتو ويطلب الصفح عنها . وألقى بثقل النفوذ الصيني خلف غومولـكا عندما تحدى هـذا الأخير موسكو في عام ١٩٥٦ وعلاوة على ذلك ، حاول ماو نفسه ، بعد أن هضم صدمة المؤتمر العشرين ، محاولة جريئة لحمل اللاستالينية الى حزبه بالذات ، فأعلن أنه ، منذ ذلك اليوم فصاعداً ، « يمكن لمئة زهرة أن تتفتح بكل حرية » في الصين الشيوعية . ومن عدة أوجه يظل هذا حتى اليوم أكثر محاولات اللاستلنة جذرية في العـالم

الشيوعي . ان انتقاد ماو الضمني للستالينية كان أعمق من بادرة خروتشيف المسرحية والميلودرامية لتحطيم صور ستالين ، كما أن ماو توغل إلى أبعد بكثير عندما تبرأ من المفهوم الستاليني عن الحزب الوحيد الخط . وقد وضع خطوطاً اولى لإصلاح عميق كان سيحمل الى الصين ، فيما لو أنجز ، حرية أكبر من أي حرية عرفها الاتحاد السوفياتي قط ، وعلى الأقل منذ نهاية الحرب الأهلية . لقد أعلن ، مقتدياً في ذلك بلينين ، انه يحق للعمال أن يقاوموا بيروقراطيتهم وأن يلجأوا ، لدعم مطالبهم ، الى جميع أشكال العمل الصناعي ، بما في ذلك الاضرابات . ورسم علامة استفهام ضخمة حول كل نظام الحزب الأوحد . ان الماوتسية عندما بلغت هذه النقطة قد وصلت في الواقع الى حدود « التحريفية ».

نحن نعلم أن المئة زهرة قد ذبلت بعد ذلك بمدة وجيزة . فقد شنت من جديد حملة « التقويم » وسقطت الماوتسية ثانية في الأورثوذكسية الستالينية . كيف يتفسر هذا التغير ؟ ان النظرية التي أطلقها المعلقون الغربيون ، والتي تقول أن بيان المئة زهرة لم يكن إلا حيلة لخدع عناصر المعارضة وجرها للإسفار عن وجهها ليمكن سحقها بسهولة أكبر ، نظرية سطحية الى حد لا نسمح لنا بأخذها بعين الاعتبار . ان الميل الذي عكسه بيان المئة زهرة كان له من الوزن والتلاحم ، والانسجام مع تشجيعات ماو للاستالينيه ـ البولونية ، ما يحول دون أي أمكانية لاعتباره مجرد خدعة [1] .

ومن سوء الحظ أن الصينيين أنفسهم لم ينجحوا في تقديم تفسير صريح ومقنع لسلوكهم . لكن من الواضح أن حادثة المئة زهرة كان لها على سياستهم مفعول

---

(١) كان على انسجام أيضاً مع أعمق تحفظات ماو المضمرة إزاء الستالينية . لقد كشف المكتب السياسي الصيني الآن عن أنه حظر في عام ١٩٤٩ أو ١٩٥٠ إطلاق إسم زعيم شيوعي صيني على المدن أو الأمكنة أو المؤسسات . كان هذا ، وكان يجب بالضرورة أن يكون قراراً بالغ السرية . فقد كان مظهره المناهض للستالينية واضحا للغاية في عصر كان فيه القسم الأكبر من الأمكنة والمؤسسات في الاتحاد السوفياتي يحمل أسماء ستالين ومولوتوف وكاغانوفيتش وفوروشيلوف .

يمكن وصفه بأنه ناكيء للجروح . لقد هلع ماو أمام نتائج تصريحه . كان قد دعا الحزب والأمة باحتفاء الى الاستفادة من الحرية الجديدة والتباهي بها بأمل أن يكون النظام ، بعد ثمانية أعوام من الثورة ، قد أصبح متيناً بما فيه الكفاية لتحمل الانتقادات الصريحة الصادرة من الشعب ، بل أيضاً للإستفادة منها . ان هذا الأمل ، الذي كان يشع به كل سطر من بيان المئة زهرة ، لم يكن بلا مستند : فالصين قد حققت ، خلال تلك الأعوام الثمانيـــة ، تقدماً اقتصادياً لا مثيل له في تاريخها ، وقد تحسنت الى حد كبير شروط حياة ملايين العمال ومئات ملايين الفلاحين ، وبذلت الحكومة ما في وسعها « لشراء » البورجوازية بالذات ولتسكين عدائها . ولأسباب متعددة ، كانت حكومة ماو أكثر سعادة في سنوات وجودها الأولى من حكومة لينين. وكانت تستطيع أن تسمح لنفسها بأن تتصرف بصورة عقلانية بموارد البلاد الاقتصادية وبطبقاتها الاجتماعية . في حين أن هوةانحفرت بين الحاكمين والمحكومين في روسيا عند نهاية الحرب الأهلية وحتى « السياسة الاقتصادية الجديدة » لم تستطع ردها قط . وبالمقابل لم تنحفر في الصين أي حفرة .

ومع ذلك فإن الطريقة التي استقبلت بها الانتلجانسيا والفلاحون والعمال ، وحتى أعضاء الحزب ، بيان المئة زهرة (فقد اندفع من كل مكان تيار معاكس حقيقي من الانتقادات العنيفة،وأحياناً المعادية بمرارة)، قادت ماو وزملاءه إلى الاستنتاج بأن الأمة غير « ناضجة » بعد للحرية التي وهبت لهـــا . ويستطيع المؤرخون أن يتناقشوا فيماإذا كان الماوتسيون قد ذعروا بسرعة أكبر مما ينبغي، وإذا كان تيار الانتقادات المضاد يشكل فعلاً خطراً داهمـاً على الحكم ، وإذا لم يكن واجباً على هذا الأخير أن يعتمد على دعم شعبي أكبر كان كامناً تحت العداء والاحتجاجـات . إن جميع الثورات تعرف تلك اللحظات الخطرة والمأساوية – وقعت في روسيا انعطافات مماثلة في ربيع ١٩٢١ وخريف ١٩٢٣ – التي يقرر فيها القادة الثوريون، الذين انتابهم الهلع من عزلتهم، الواقعية أو الظاهرية ، إنهم لا يستطيعون السماح لأنفسهم بأن يحكموا ديموقراطياً، ويحاولون أن يدعموا سلطتهم

بطرائق استبدادية . وهذا ما عزم ماو ورفاقه على محاولته في صيف ١٩٥٧ ، وبدءاً من ذلك اليوم عارضوا اللاستلنة .

ومن ثم حاولوا تبرير انقلابهم زاعمين أن العناصر البورجوازية والرجعية ، لا الاشتراكية ، هي التي استفادت من الحرية الجديدة ، وأن الجناح اليميني في داخل الحزب بالذات ، لا اليساري ، هو الذي جنى ثمارها . وهذا يعدل القول بأن التوازن السياسي في الأمة يميل بكل وضوح ، بالرغم من جميع النجاحات ، ضد الأهداف **الاشتراكية** للثورة . ونظراً إلى طابع المجتمع الصيني — هيمنة الطبقة الفلاحية ، ضعف الطبقة العاملة ، الميول المحافظة للانتلجانسيا — فربما كان ذلك وما يزال ، صحيحاً .

واستنتج مريدو ماو آنذاك أن اللاستلنة تحدث المفعول ذاته في المسرح الدولي وحتى الاتحاد السوفياتي . وقد عززت قناعتهم هذه الحربُ الاهلية في المجر . فقد استخلصوا منها درساً يقول أن اللاستلنة قادت المجر إلى حافة الثورة المضادة وإنها كانت أداة في أيدي الانتهازيين الشيوعيين وقادة الجناح اليميني الذين كانوا على استعداد ، شأن ناجي ، لإخلاء الساح للاشتراكيين — الديموقراطيين وللأحزاب الفلاحية ، ولإخراج بلادهم من « المعسكر الاشتراكي » . وفي الوقت نفسه كان مولوتوف وكاغانوفيتش يقودان في موسكو بخط مشابه هجومهما على خروتشيف ، مشيرين إلى أنه قد آن أوان إيقاف حركة اللاستلنة طالما أنها تهدد الكتلة السوفياتية كلها بالانفجار . وبدأت العدة تعد أو كانت على وشك أن تعد لقيام تحالف بين الصينيين وبين معارضة اللاستالينية الروس من محدثين وقدامى . وتمكن خروتشيف من درء هذا التحالف بوقفه « التحرر » ، وبرعايته صداقة ماو ، وبزيادته المعونة للصين ، وبوعده بتطوير القوة الذرية الصينية ، بل بتزويد الصين بأسلحة نووية ، وانتظر أن ينتصر على أعدائه الداخليين نهائياً حتى يجازف بنزاع مع ماو ، لكن من غير أن يجرؤ مع ذلك على تفجير هذا النزاع جهاراً .

لقد سلك ماو وخروتشيف سلوكهما تحت ضغوط داخلية مختلفة بل متناقضة قادتهما ، إلى حد ما ، الى اتخاذ مواقف معاكسة لطبيعتهما الشخصية . ففي

الاتحاد السوفياتي أدى تحديث المجتمع ، والتصنيع الناجز على أساس التخطيط والملكية العامة، وتقدم تربية الجماهير ، الى تحويل نظام الحكم الستاليني الى نظام بائد لا يطاق . ولقد اضطر رفاق ستالين ، نظراً الى أن الارهاب والتطهيرات الجماعية لم تترك أي مركز للمعارضة قادر على الاطاحة بالستالينية ، الى الاساءة إلى سمعة مناهجه والى التخلي عن إرثه بصورة يمتزج فيها التمثيل بالصدق . ومن قبيل الصدفة وحدها ، إلى حد ما ، أصبح خروتشيف الناطق بلسان رد الفعل ضد الستالينية ، لكن عبر هذه « الصدفة » ولدت « ضرورة » تاريخية وحاجة سياسية واجتماعية محتمة .

ومن الجهة المقابلة ظلت الصين متخلفة على الصعيد الصناعي . فسكانها مايزالون يتألفون في أربعة أخماسهم من فلاحين أميين وبدائيين ، يستخدمون في أعمالهم أدوات يعود تاريخها الى ما قبل الطوفان (بينما يعد الاتحاد السوفياتي ٤٠٪ فقط من المزارعين) . ولا ريب في أن الشغيلة الصناعيين الصينيين قد بلغوا اليوم المستوى الذي كانت عليه الطبقة العاملة السوفياتية في مستهل الأعوام الثلاثينيات ، أي في زمن كانت فيه الغالبية الساحقة من هذه الطبقة ، الخارجة لتوها من الطبقة الفلاحية ، تفتقر الى الوعي الاشتراكي والى آفاق صناعية . واذا كانت الستالينية نتاج الثورة والهمجية ، فإن الماوتسية ، بمناهجها الاشتراكية وحكمها الأبوي و « ماركسيتها – اللينينية السحرية الطقسية هي أيضاً نتاج الثورة والهمجية .

إن اقامة تواز بين الستالينية والماوتسية أمر لا يفرض نفسه . فالفروق بينهما تثب الى الأنظار وثباً : ان الماوتسية لم تكابد من جميع التوترات الداخلية الرهيبة التى ميزت الستالينية ، ولم تترعرع وسط نفس المخاوف غير المعقولة ، ولم تلجأ الى نفس الارهاب ، ولا الى نفس التطهيرات ، ولم تعارض صبوات الشعب الى المساواة بنفس العداء ، ولم تشوه بلا حياء أصلها الثوري . وبديهي أن الصين لم تكن أول بلد أطاح بالرأسمالية ، كما أن حضارتها وتقاليدها القومية لا تماثل وحضارة روسيا وتقاليدها . وإذا كان ستالين وريث لينين

وايفان الرهيب ، فإن ماو قد مزج مذاهب لينين وكونفوشيوس بالعـــادات الفكرية للمثقفين القدامى .

ومع ذلك ، وبالرغم من كل هــذه الفروق ، توجد نقاط تشابه لا تنكر بين الماوتسية في الحكم وبين الستالينية ، وهي نقاط تشابه تمتد جذورها في التناقض بين الميول الاشتراكية للثورة وبين بنية المجتمع ما قبل الصناعية . وعلى هــذا لم ينجح ماو ، بالرغم من كل انحرافاته ومن رغبته العارضة في تخطي الستالينية ، في تجاوز « شبه ستالينيته » . وعندما حاول ذلك ، عاد بسرعة على أعقابه وطرح نفسه كمدافع عن الأورثوذكسية الستالينية [1] .

مظاهر اليمين واليسار

إننا نجد انقسامات كهذه لدى جميـع الأحزاب الوطنية ، لدى الروس والصينيين واليوغوسلاف والبولونيين والرومانيين وغيرهم . بيد أن كل حزب يحافظ مع ذلك على واجهته الوحيدة الخط الخاصة . وكل حزب زعيمه معصوم ، والحزب اليوغوسلافي لا يتميز في هذا عن غـيره . وكل حزب يعجّ بالخلافات ، لكن التعبير المكشوف عنها غير مسموح به في أي مكان ، ولم يمنح حتى اليوم لأي إنسان أي امتياز في مداولة علنية حول مسألة سياسية هامـــة . والتبجحات بصدد « إعادة العمل بالقواعد اللينينية المتعلقة بحياة الحزب الداخلية » جوفاء كلياً ، ولا يمكن للمرء أن يصدقها إلا إذا كان جاهلاً بالوقائع : ففي كل اجتماع حزبي ، أو في كل اجتماع تقريباً ، كان لينين ينتقد على نحو مكشوف ، وكان

---

(١) بيد أن التباس الموقف الماوتسي من ستالين لم يبدد البتة مع ذلك . تقول « مجلة بكين » : « إن مشكلة ستالين ... هي دوماً موضع مناقشات عديدة . ومن المرجح أنه لن يتم التوصل إلى حل نهائي خلال القرن الراهن » — وهذه العبارة موجودة في مقال مكرس لمجد ستالين !

أحياناً يخسر الجولة عند التصويت على مسائل هامة مخذولاً من قبل زملائه ومناضلي القاعدة . وبعد أحد عشر عاماً من ستالين تظل المكاتب المتسلسلة هرمياً الهيئات الوحيدة التي تحدد الخط السياسي ، والمراكز الوحيدة للتقرير داخل الأحزاب الشيوعية . انها تحافظ بغيرة على احتكارها ، وتدافع عنه باستماتة ضد القاعدة . ثم إن المرشد المعصوم ، الحَكَم الأسمى ، موجود ههنا لحمايته .

بيد أن النزاعات والصراعات المتعاظمة حدة وأهمية بين الأحزاب الوطنية تحرك وتحرض الاختلافات داخل كل حزب . والسؤال المطروح هو معرفة المدة التي يمكن أن تظل فيها هذه الخلافات مستورة أو محذوفة ؟ ومتى وكيف ستنعكس الفروق الملحوظة على الصعيد الدولي - التيارات الثلاثة - داخل كل تنظيم وطني ؟

ما ميول اليسار واليمين والوسط إذن ؟ إن أتباع ماو يزعمون انهم يمثلون اليسار . وسنرى فيما بعد ما الزاوية التي يمكن أن يبرر منها هذا الادعاء . لكن الطريق التي يلحون بها على الاورثوذكسية وعلى الانضباط الستاليني تفصح أكثر من أي شيء آخر عن النزعة المحافظة البيروقراطية . (ليس من قبيل الصدفة أن تكون الجماعات اليسارية في الشيوعية قبل ستالين مناهضة جميعها للبيروقراطية ، وأن تكون قد طالبت بملء رئاتها بالديموقراطية البروليتارية) . ومن وجهة النظر هذه تمثل اللاستلنة الخروتشفية شوطاً من الطريق الواجب قطعه لتلبية حاجات العناصر اليسارية في الشيوعية الراهنة . وهي بالرغم من التباسها وحيلها الديماغوجية تمنح القاعدة من جديد حب التفكير السياسي المستقل ، وتعيد إليها ثقتها في ذاتها ، وتقترح أهدافاً جديدة وتثير أسئلة جديدة .

وهناك معيار آخر للانقسام الحالي يستند الى الموقف الشيوعي من الامتياز الاقتصادي في المجتمع ما بعد الثوري . وهنا أيضاً تختلط خطوط الانفصال . فمنذ موت ستالين وعى الحزب السوفياتي نزعة الجماهير الى المساواة ، فخفف الفارق بين الأجور العليا والدنيا . وبالمقابل يبدو أن نظام ماو لم يسمح قط

للامتيازات بأن تأخذ بعداً منفراً كما حدث في الاتحاد السوفياتي أيام ستالين ، كما لا يبدو أنه غض النظر عن فوارق في الأجور شبيهة بالفوارق التي ما تزال تلاحظ إلى اليوم في الاتحاد السوفياتي . أما فيما يتعلق بسائر بلدان الكتلة السوفياتية فيصعب التعميم . فالاقتصاد البولوني على سبيل المثال يبدو وكأنه يعاني من تسوية وتسطيح غير مدروسين للأجور . ومع ذلك ترفض الهيئات الحاكمة أن تكشف النقاب عن البنية الاجتماعية وبنية الأجور . والحق أنه ما من أحد يفوق الصينيين تكتماً بهذا الصدد . ذلك أن التباين بين الفئات العليا والدنيا من المجتمع أكبر وأعظم من أن يمكن تسليط الضوء عليه جهاراً .

لقد أخذ الانشقاق ، في ميدان مهم واحد فقط ، هو ميدان الاستراتيجية السياسية الدولية ، شكلاً محدداً : وهنا بالفعل اتخذ الصينيون موقفاً يسارياً ، بينما يقود خروتشيف الوسط ، وبينما يمثل تيتو وتولياتي وأتباعهما اليمين (١) .

---

(١) : يمارس اليمين في بلدان الكتلة السوفياتية نفوذاً كبيراً ، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أنه يمثل « متنفساً » للضغط القوي المعادي للشيوعية ، الصادر عن الفلاحين وبقايا البورجوازية وقسم من المثقفين . لكن اليمين أيضاً غير منظم ، غير محدد ، غير متمايز ، والناطقون بلسانه يتجنبون الشهرة . وبين زعماء الأحزاب يقف غومولكا وكادار في مكان ما بين اليمين والوسط . وفي الاتحاد السوفياتي يصعب أكثر من أي مكان آخر تحديد هوية اليمين : فعناصره تفضل أن تبقى مكتومة متخفية ، وفي الواقع وراء الوسط الخروتشيفي الذي تمارس عليه ضغطاً مستمراً . (وعلى وجه الاجمال كان هناك النمط نفسه من العلاقات حوالي عام ١٩٢٥ بين أنصار بوخارين وأنصار ستالين) .

إن عناصر اليمين تطالب بتطبيق مفاهيم تحريفية صريحة دونما أي تضييق ، بينما لا يستطيع الوسط الخروتشيفي أن يتقدم إلا بقلب موزع . إنها تدعو إلى خط لـ « التعايش السلمي » أكثر استقامة من تعرجات خروتشيف الدبلوماسية . وإلى انفصال أوضح بين الكتلة السوفياتية والحركات الثورية في العالم الخارجي ، وإلى تخلٍ « أجرأ » عن نظرية لينين الامبريالية وعن سائر المظاهر « البالية » من اللينينية ، وإلى اعتراف صادق بـ « استقرار » الرأسمالية الغربيــة بعد الحرب ، وبالتالي بضرورة تحويل الأحزاب الشيوعية في الغرب إلى نوع من أحزاب إصلاحية يسارية . إن الشيوعية ـ القومية الخالصة تزداد انسجاماً مع اليمين أكثر منها مع الوسط ، وهذا ما يجعل من=

إن الماوتسيين يهاجمون سلوك الدبلوماسية السوفياتية والتصور الخروتشيفي عن التعايش السلمي . ومحاججتهم تكتظ بتلميحات متطرفة : ففي بداية النقاش بدا وكأنهم ينكرون إمكانيــة التعايش السلمي بالذات وينكرون على موسكو حتى الحق في البحث عنها . كما بدا أنهم لا يأبهون بخطر الحرب النووية . بيــد أنهم حذفوا من تصريحاتهم فيما بعد هذا النوع من التلميحات . لكنهم استمروا في بث الشعارات من خلال استنكارهم لمعاهدة موسكو لحظر التجارب الذرية ، وهم يطالبون **كبديل عن هذه المعاهدة** بنزع السلاح النووي بوصفه الضمانة الوحيدة ضد حرب عالمية . ويجب أن يكون من الواضح أن نزع السلاح النووي الشامل بالذات لن يوفر مثل تلك الضمانة : فالحرب العالمية تستطيع دوماً أن تبدأ بسلاح تقليدي ، وستكون كل دولة من الدول الذرية الكبيرة قادرة آنذاك على إعادة بناء ترسانتها النووية بسرعة . إذن فالصينيون غير منطقيين عندما يتهمون خروتشيف بـ « بث أوهام سلمية » لأنه وقع معاهدة حظر التجارب ، في حين أنهم يخلقون هم وهماً أكبر أيضاً . لكن كما يمكن النضال من أجل نزع السلاح بدون التعلل بأحلام جوفاء بهذا الصدد ، كذلك يمكن تحية معاهدة موسكو بدون المبالغة في أهميتها (١) .

=الصعب بل من المستحيل على اليمين أن يصور نفسه على أنه تيار أممي في الشيوعية . وإنما في هذا السياق يأخذ مذهب تولياتي عن « تعدد المراكز » معناه الحقيقي ، وكذلك رفض اليوغوسلاف القبول بانقسام العالم إلى كتل ورفضهم نشر التيتوية على الصعيد الدولي . إن الأحزاب الشيوعية – القومية لا تستطيع أن تشكل أممية) .

إن عناصر اليمين بقدر ما تعارض ضمنياً « الهيمنة السوفياتية » توجه تحدياً إلى الامتثالية الخروتشيفية الجديدة ، وهذه المعارضة تقدم لها نقطة مشتركة مع اليسار . وبالرغم أنهــا تصفّ وراء خروتشيف ضد ماو ، فإنها تفعل ذلك بشيء من التحفظ الضمني : فهي لا تريد أن ترى قاعدة مـا أو انضباطاً أممياً يفرض من جديد على الحركة .

(١) : طبيعي أن رجال دعاية خروتشيف قد بالغوا في أهميتها واشتطوا إلى حد مضحك . فقد حيوا في هذا الحظر للتجارب فجر عصر جديد ، وترافقت تحيتهم هذه بقرع جميع الطبول المناسبة . لكن يجب أن نقول إن الطبل هو الآلة الوحيدة التي لقنوهم كيف يعزفونها .

إن تصريحات الماوتسيين غير المدروسة ليست أساسية مع ذلك بالنسبة إلى حجتهم الرئيسية القائلة إن خروتشيف في بحثه عن تفاهم مع الغرب قد ضحى بمصالح الحركة الثورية في آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينيـــة ، وان الأحزاب الشيوعية الغربية قد انقادت وراء المقتضيات الدبلوماسية الموسكوفية أكثر مما قادتها مبادىء النضال الطبقي. تقول بكين: هنا تكمن الدلالة الحقيقية لتصريحات خروتشيف حول موضوع « الانتقال السلمي من الرأسمالية إلى الاشتراكية » و « الطريق البرلماني الى الاشتراكية » على حد تعبير تولياتي وتوريز . ولهذا السبب أيضاً تشير موسكو على الشعوب المستعمرة بأنها تستطيـع أن تنال كامل استقلالها، السياسي والاقتصادي، بوسائل سلمية ، بدون ثورة عنيفة ، وبقيادة «بورجوازيتها الوطنية » . ولقد عارض ماو دبلوماسية خروتشيف القائمة على أساس اللقاء المباشر على « مستوى القمة » لأنه كان يشك في أن خروتشيف يبذل جهده في الاجتماعات ليطمئن الولايات المتحدة الأميركية على حساب الكتلة السوفياتية وسائر البلدان ، ولا سيما المتخلفـــة (العراق ، الكونغو ، الجزائر ، كوبا) . ويقول الصينيون : لقد تنازل خروتشيف تنازلات لا مجدية لأيزنهاور وكنيدي (وأحياناً بعد تحديات لا مجدية أيضاً ، كما في كوبا) . ألم يقل للشعب الفرنسي إن الجنرال ديغول هو الزعيم القومي الذي ينبغي عليه أن يمحضه ثقته ؟ ألم يساهم بهذه الصورة في تحطيم معنويات الشيوعيين الفرنسيين الذين لم يفعلوا شيئاً لمساعدة الجزائر على نيل استقلالها ؟ ألم يحاول الحزب الشيوعي الايطـــالي ، بدفع من خروتشيف ، أن يكسب ودّ البورجوازية والفاتيكان وحتى الحلف الأطلسي ؟ ألم يصدر توليـاتي الأمر لحزبه بالخروج الى شوارع روما لاستقبـــال الرئيس ايزنهاور لدى زيارته لإيطاليا ؟ ألم يحاول خروتشيف إيقاف الثورات في الشرق الأوسط وأفريقيا وأميركا اللاتينية بدعمه عبد الناصر وقاسم ونهرو ، مصطدماً بالتالي بالأحزاب الشيوعية المحلية ؟

إن هذه قائمة عظيمة من الاتهامات . وتجيب موسكو بأن الاعتـــدال هو وحده الذي يستطيع ضمان السلام، وبأن الاتحاد السوفياتي إذا ما ساعد «بدون

حذر » ، تبعاً لنصائح الصينيين ، جميع الحركات والخمائر الثورية في البلدان الأجنبية ، فستكون النتيجة زيادة التوتر الدولي وإشعال نار حرب عامة . ويلاحظ الصينيون انه كلما أبدت الشيوعية المزيد من الجرأة وحققت الثورة تقدماً أكبر وازداد ضعف الولايات المتحدةالأميركية والحلف الأطلسيوعجزهما عن الرد ، تضاءلت أخطار اندلاع حرب عالمية . ويضيف الصينيون : إذن ليست المسألة هيمعرفة ما إذا كانالتعايش السلمي مرغوباً فيه أم لا.فخروتشيف نفسه لا يستبعد استخدام الأسلحة النووية للرد على العدوان ، وليس هناك من داعٍ للافتراض بأن ماو (الذي لا يملك أسلحة ذرية) هو أكثر استعداداً من خروتشيف لاستخدامها . إن الجدال يتناول بالأحرى مسألة تحديد السياسة الأقدر من غيرها على تجنب صدام عام : صدُّ الشيوعية لنفسها بنفسها كما ينصح بذلك خروتشيف أو كما يستلزم ذلك موقفه ، أم توسيع الثورة كما يقترح ماو ؟

هنا ترجع المساجلة إلىالمناقشة الكبرى التي كانت تدور في الأعوام العشرينيات ، والتي ما تزال أصداؤها تمتزج بالتهمالتي تتراشقها موسكو وبكين. إن ماو يتبنى هنا من جديد ، من غير أن يريد ، وربما من غير أن يعرف ، حجج تروتسكي ضد ستالين وضد نتائج الاشتراكية في بلد واحد على الشيوعية الدولية ، بينما يتكلم خروتشيف ويتصرف حسب التقاليد الستالينية . بيد أنهما يرفضان بعناد كلاهما الاعتراف بأنهما صدى للصوت الذي يرددانه . إن خروتشيف يزعم أنه هو ، لا ستالين ، الذي أوجد سياسة التعايش السلمي (التي كان لينين بحكمته الكبيرة أول من رسم خطوطها الأولية) ، وماو يدعي أنه لا يدعو إلى متابعة الخط الستاليني . انهما كليهما يزوران الماضي : خروتشيف حتى يحقق التطابق بينه وبين اللاستالينية ، وماو حتى يجعله يعزز أورثوذكسيته الستالينيةالمؤكدة من جديد .

والحقيقة هي أن ستالين بدأ وتابع سياسة التعايش السلمي ، بالضبط كما يفهمها خروتشيف ، بإخضاعه الشيوعية الدولية للمصالح السوفياتية العليا . إن صداقة ستالين مع تشان كاي شيك ، وحلفه مع لافال عام ١٩٣٥ ، والجبهة

الشعبية التي تلته ، وتصميمه على إبقاء الثورة الاسبانية ، بواسطة الشيوعيين الاسبانيين والحكومة الجمهورية المؤقتة ، في حدود « الديموقراطية البورجوازية » ، ومعاهدته مع هتلر عام ١٩٣٩ ، واحلافه مع تشرشل وروزفلت في يالطا وطهران ، والسياسة المعتدلة (المناصرة بالديغول ودوليو) التي انتهجها الحزبان الشيوعيان الفرنسي والايطالي ، تلك هي التطبيقات الرئيسية التي نفذها ستالين لمذهب التعايش السلمي . وبالرغم من اختلاف الظروف ، فإن الصور التي عزف بها خروتشيف هذا اللحن الأساسي ليست من طبيعة مغايرة . وحتى تعرجاته وتقلباته ، التي تقوده من « نزعة المغامرة » الى « الانتهازية » ، تتبع المخطط الستاليني . (في كوبا بدأ بتحدي الولايات المتحدة ليتراجع فيما بعد ، كما فعل ستالين عام ١٩٤٨ بصدد حصار برلين) . ومن جهة أخرى ، يكفي أن نقارن إدانة ماو لخروتشيف بالانتقادات التي صاغها تروتسكي وزينوفييف وكامينيف ورادك بصدد التسيير الستاليني لشؤون الكومنترن ، حتى نجد نفس الدوافع هنا وهناك ، مع فرق وحيد هو أن ماو أشد عنفاً وفظاظة في النقاش ، ومعرفته بالعالم الخارجي أكثر بدائية ، كما أن لهجته ولغته الشرقيتين لهما وقع غير مستحب ، حتى على الآذان المناصرة للصين ، التي يمكن أن توجد في الغرب [١] .

الايديولوجية و « سياسة القوة القومية »

قد يسأل البعض : لكن هل طابع هذه المساجلة ايديولوجي صرف ؟ وهل تعكس اختلافات حقيقية بصدد الشيوعية الدولية والثورة ؟ أم أن أنصار ماو يتلبسون قميص الأممية الثورية حتى يلقوا مظهراً رفيعاً سامياً على مطامحهم القومية ؟

(١) : من أمثلة جهل بكين الفظ الطريقة التي يدعى بها الصينيون أن تيتو وطد الرأسمالية من جديد في يوغوسلافيا . أم أن هذا خبث صرف ؟ .

أليس رفض خروتشيف تزويد الصين بأسلحة ذرية هو السبب الحقيقي لهذا العداء؟ وفي هذه الحال ، ألسنا أزاء لعبة مألوفة من ألعاب سياسة القوة القومية ؟ .

إن هذا التباين الخشن بين « الايديولوجية » وبين « الطموح القومي » مصطنع إلى حد كبير ، هذا إذا لم نشأ أن نقول أكثر من ذلك . يقيناً . إن جميع الأنظمة البيروقراطية المتسلسلة ميالة إلى الظهور بمظهر الصلف والى انتهاج سياسة القوة وهذا ينطبق على الماوتسيين بقدر ما ينطبق على خصومهم . ان الستالينية لم تكن تمثل شيوعية قومية أصيلة فحسب - وهذا قبل خمسة وعشرين عاماً من استلام تيتو للسلطة - بل كانت تشكل أيضاً مدرسة للشيوعية - القومية لجميع الأحزاب الشيوعية . وإلى اليوم أيضاً مـــا يزال كل حزب شيوعي ، من الألب الى بحر الصين ، يحلم باشتراكيته « الخاصة » في « بلاده وحدها » .

صحيح ان ستالين قد غل وقيّد جميع الاحزاب لخدمة مصلحة دولته العليا وحدها . لكن ما كادت يده تسقط واللجام يرخى حتى بدأ كل حزب بإظهار ميوله القومية النزعة . كان كل شيء يندمج نظرياً في خط أممي موحد ، وكان على الجميع أن يقاوموا كل قوة تعمل باتجاه الابتعاد عن المركز ، ومع ذلك فقد حمّل الجميع « اشتراكيتهم » بالأحقاد القومية الموروثة عن النظام القديم . وهذا يمكن أن ينطبق على اتباع ماو وعلى خصومهم على حد سواء - ومن هنا كانت التلميحات الأخيرة إلى مطالب الحدود والى إمكانيـــة الصدام بهذا الخصوص (مطالب الصين من روسيا) .

لكن هذا ليس إلا جزءاً من الحقيقة . ولعل ما يفوق ذلك أهمية هو أن الموقف الأممي للجمهورية الشعبية الصينية لم يعط قادتها حتى الآن إلا القليل من الفرص لتطبيق سياسة القوة القومية ، وإن تقدم الثورة يوفر لهم المنظور الوحيد للسلامة القومية الفعلية . ان الصين ، المحجور عليها ، الخاضعة للحصار ، المقاطعة نصفياً من الغرب ، واليوم من الاتحاد السوفياتي أيضاً ، لا تستطيع إلا أن تتمنى وقوع ثورات في البلدان القريبة أو البعيدة ، ثورات تهدم قوة الغرب الامبريالية ، وتدخل أعضاء جدداً الى المعسكر الاشتراكي ، وتوسع هذا المعسكر ، وتضعف

هيمنة السوفييت . وحتى لو لم يكن هناك شيء آخر – وهناك في الواقع أشياء أخرى كثيرة – فإن مصلحة الماوتسيين القومية وحدها ستدفع بهم بالضرورة نحو الأممية الثورية . وأن « أيديولوجيتهم » حتى وان كانت تخفي مطامح قومية لها جوهرها الخاص ، ووزنها ، وجاذبيتها الخاصة . فالأفكار ، عندما تمتلك ملايين العقول ، تشكل قوة في حد ذاتها . والماوتسيون ، مهما أمكن أن تكون دوافعهم اللاحقة وحدودهم ، هم في سبيلهم الآن إلى طبع ملايين العقول بطابع أفكار الثورة الأممية كما لم يفعل ذلك أحد منذ موت لينين . وهنا تكمن دلالة معارضتهم لخروتشيف بالنسبة الى التاريخ العالمي .

وبعد ان قلنا هذا ، نستطيع أن نزن « الدوافع والحدود » . إن بكين تنحي اليوم باللوم الشديد على تاريخ أهم الاحزاب الشيوعية عن فترة السنوات العشر التي تلت موت ستالين ، وتنتقد حتى السنوات الأخيرة من العهد الستاليني ومنطلق كل الاتهامات أن الخروتشيفية قد عملت على حطّ الحركة الشيوعية ، وانها فرضت فترة من التوقف على الثورة في البلدان المتخلفة ، وشجعت الشوعيين الغربيين ، ولا سيما الفرنسيين والايطاليين ، على عقد هدنة مع الحكومات البورجوازية – الأمبريالية .

قد يتساءل البعض : لكن أين كان الماوتسيون طوال تلك الفترة؟ لِمَ التزموا الصمت حتى صيف ١٩٦٣ ؟ من الواضح أنهم ما كانوا يستطيعون الاهتمام بهذه المسائل عندما كانوا يخوضون غمار حربهم الأهلية ويستولون على السلطة ويدعمونها. ولعله ما كان في وسعهم إسماع صوتهم قبل نهاية العصر الستاليني . لكن كيف يمكنهم أن يبرروا صمتهم طوال السنوات العشر التالية ؟ إذا كان ما يقدمونه عن تصور موسكو للشيوعية الدولية صحيحاً – وهو الى حد لا بأس به صحيح بدون أدنى ريب – فإننا لا نستطيع القول عندها أن تكتمهم هو خير دليل على شجاعتهم . وإذا كانت الخروتشيفية قد ضربت الاحزاب الشيوعية في العالم قاطبة ، فإن الماوتسيين في هذه الحال متواطئون مع هذا التحطيم للمعنويات . وإذا كانت موسكو قد أحبطت ، لأسباب دبلوماسية ، الحركات الثورية في

الشرق الأوسط على سبيل المثال ، فإن الصينيين قد تركوا الميدان حراً للروس. أم أنهم يعتقدون أنهم ضمنوا خلاص روحهم بتعبيرهم عن تحفظاتهم في الاجتماعات القليلة التي عقدتها الأحزاب الثمانون بتوجيههم برقيـــات سرية الى مجلس رئاسة السوفييت ؟ (١)

لقد انتظرت بكين طويلاً لتدين علناً انتهازية خروتشيف . إن القسم الأعظم من الموجة الثورية في الشرق الأوسط والأدنى ، وفي أفريقيا قد امتد واندلع خلال السنوات العشر التي تلت موت ستالين ، في الوقت الذى كانت فيه الأحزاب الشيوعية تقامر على عبد الناصر وقاسم وسوكارنو . ومذ ذاك عرفت معظم البلدان المستعمرة سابقاً أو نصف المستعمرة استقراراً نسبياً . ولا شيء يبشر الآن باحتمال صعود موجة جديدة شبيهة بموجة العقد الأخير . إن زعمـاء « البورجوازية الوطنية » هم الآن موطدو الأركان في كل مكان تقريباً ، والشيوعيون المحليون ، الذين كان يمكن أن تكون لهم فرصة في الصراع من أجل السلطة في الأعوام الخمسينيات ، لن تتاح لهم على الأرجح فرصة مماثلة في وقت قريب . والواقع أنه انما في اللحظة التي بدأت فيها الثورة الآسيوية – الافريقية بالانحسار حرر الصينيون وصفتهم العنيفة من أجل سياسة هجومية للشيوعية . فكأنهم ، شأنهم في ذلك شأن بعض المتطرفين في الكومنترن السابق ، غـــير قادرين تقريباً على تمييز المد من الجزر !

---

(١) : إننا لنتساءل عن النصيحة التي يقدمها الصينيون لرفاقهم الأندونيسيين ، قادة أهم حزب شيوعي خارج الكتلة السوفياتية . فهذا الحزب يعتبر واقعاً تحت تأثير ماو . فهل تلح عليهم بكين ليتابعوا دعم سوكارنو (كما كان ستالين قد ألح على الصينيين ليساعدوا تشان كاي شيك) ؟ أم أنها تشجعهم على العمل للاطاحة بدكتاتورية سوكارنو شبه البونابرتية ولتحقيق الثورة ؟

« باطـــا [١] »

إن مختلف الأطراف مشغولة في الوقت الراهن بألعابها التكتيكية وبصف البيادق فوق رقعة الشطرنج . فهي قد وصلت ، بعد ستة أشهر من القطيعة بين بكين وموسكو ، إلى « الباطا » فالشيوعيون الصينيون يدعمون ، إن كثيراً وإن قليلاً ، الماوتسية باستثناء الحزب الهندي والأحزاب العربية التي يتزعمها أتباع خروتشيف ، بالرغم من أن للماوتسيين نقاط ارتكاز قوية لدى مناضلي القاعدة . وفي الغرب يسير التيار لغير صالح الصينيين ، لكن ثمة تياراً مضاداً ماوتسياً قد بدأ يعلن عن نفسه . أما المتطرفون غير الشيوعيين في البلدان المتخلفة ، فإنهم لم يتخذوا موقفاً .

أن يكون خط الحدود فاصلاً على هذه الصورة الواضحة بين الشرق والغرب (والغرب يشمل هنا الاتحاد السوفياتي) ، فهذا يكفي ليعطينا فكرة مسبقة عن طبيعة النزاع . فمن أحد جانبي الخط نجد الأحزاب المرتبطة بالاتحاد السوفياتي والأحزاب التي تكيفت مع الوضع الاجتماعي الغربي ومع ازدهاره الرأسمالي . ومن الجانب الآخر نجد الأحزاب التي تواجه مشكلات العالم « المتخلف » غير المحلولة . ومن أخطار هذا الانفصال أنه قد يولد تناحر عرقي غير مقنع بين الشيوعيين الملونين وبين البيض . ولا تستطيع لا بكين ولا موسكو أن تسمحا لنفسهما بالحفاظ طويلاً على خط الحدود هذا ، لكنهما عجزتا حتى الآن كلتاهما

---

(١) : في الشطرنج يقال «باطا» عندما لا يبقى لأحد الخصمين سوى الشاه وحده ، وعندما يكون له دور التحريك فلا يجد مكاناً ينقله إليه ، وبذلك تنتهي اللعبة بلا غالب ولا مغلوب . « هـ. م » .

عن تبديله. وإذا كان خروتشيف قد أمّل في عقد مؤتمر دولي يهدف حرمان ماو وأنصاره ، إلا أنه اضطر إلى التخلي عن هذا المشروع أو إلى إرجائه . فقد أعلمه شيوعيو آسيا أنهم ليسوا على استعداد للقبول بالحرمان . بل إن أنصار خروتشيف المصممين من أمثال تولياتي وغومولكا قد أبدوا هم أنفسهم تحفظاً . ويخشى اليمين الشيوعي ، داخل الكتلة السوفياتية وخارجها ، أن تؤدي الحرمانات والاقصاءات بالحركة بأكملها الى الانجراف من جديد نحو الستالينية ، وان ينقلب « صيد الساحرات » الموجه ضد اليسار على اليمين بالذات . وبهذه الصورة غير المتوقعة افتضح أمر الهوة التي تفصل اليمين عن الوسط ، وهو انقسام كامن يسير بالتوازي مع الهوة التي تفصل هاتين المجموعتين عن الماوتسيين .

وعلى هذا فإن ما كان بالأمس وحدة خط ما فوق قومية قد انقسم الآن في منتصفه وتبعاً لخطوط قومية . ولم تعد الأحزاب الشيوعية مترابطة فيما بينها بروابط أممية فعلاً . والبنية البيروقراطية الضخمة ، التي يرجع أصلها الى الكومنترن السابق ، قد انحلت الى أجزاء قومية . لكن كل جزء يظل ، خارجياً ، وحيد الخط . ومن الصعوبة بمكان أن يدوم وضع الأشياء هذا ، وهو سيشكل على الأرجح مرحلة عابرة بين تعظُّم الشيوعية في القالب الستاليني وبين ولادتها من جديد على أسس جديدة . والسؤال الحاسم هو معرفة ما إذا كان في وسع الحركة أن تولد من جديد ، وما إذا كانت الخميرة الإيديولوجية قوية بما فيه الكفاية لتشق طريقها عبر نزعات وحدانية الخط القومية . لقد كانت الأحزاب الشيوعية القديمة بصمتها وانضباطها الميكانيكي تندمج بصورة طبيعية في إطار الكومنترن والكومنفورم الستالينيين . وهي اليوم على خلاف عميق مع المظهر الراهن للشيوعية الدولية . فهل ستعي كتلة الشيوعيين ، وهي تنظر الى زعمائها المعصومين يتشاجرون فيما بينهم ، المرض الخطير الذي ألمّ بالحركة ، وهل ستفهم أن النقاش الحر والنقد الحر — الحر من داخل كل حزب قومي — هما الوسيلة الوحيدة للبرء؟ إن طرح هذا السؤال يعني التساؤل عمّا إذا كانت الحركة الشيوعية بعد عشرات السنين من الفساد البيروقراطي ما تزال قابلة لأن تولد من جديد .

فهل يستطيـع جيكيل الشيوعي أن يرجع بعد أن كسف نوره مدة طويلة من الزمن هايد الستاليني ؟

إذا كان الحزب ، أي الحزب ، لا يملك من واقع إلا بقدر ما يكون منقسماً وبقدر ما يترك الحرية لصيرورة تناقضاته الداخلية وبقدر ما يستخدمها بصورة بناءة ، فإن الحركة الشيوعية الراهنة ليست في هذه الحال إلا نصف واقعية بعد . لكنها لا تستطيـع أن تلبث على هذه الحالة . فإما أن تبلغ درجة الواقع الـكامل بمتابعتها انقسامها ، فتستعيد وحدتها من ثم عبر ديموقراطية داخليـــة حقيقية — عن طريق مناقشات مبرأة من العقد حول جميـع المشكلات الهامة وحول ماضيها ومستقبلها — وإما أن تعجز الحركة عن تحطيم القوالب التي خلفتها لها الستالينية ، وآنذاك ستتفسخ تحت تأثير قواها الذاتية العاملة باتجاه الابتعاد عن المركز .

لندن ٥ كانون الأول ١٩٦٣
« الأزمنة الحديثة »
شباط ١٩٦٤

الكاستروية

بقلم : ريجي دوبريه

المسيرة الطويلة لأميركا اللاتينية

الملاحظات التالية جمعتها خلال إقامة طويلة في أميركا الجنوبية ، إلى جانب المناضلين الثوريين من كل أصل وبلد . لقد حاولنا أن نفهم هؤلاء الرجال وأن نفهم القناعات الراسخة التي تحركهم ، حيثما وجدوا وحيثما عرفناهم : في فنزويلا ، في جبهة مقاومي الفالكون ، وفي تطورات الصراع في المدن ، في كولومبيا عشية الهجوم العسكري على « المنطقة المستقلة » في ماركيتاليا ، في الأكوادور ، في ظل الحكومة العسكرية الانقلابية ، في شوارع ليما وفي السجن في البيرو ، في بوليفيا ، في منجم القصدير الكبير في « سيغلو فينتي » الذي يتولى إدارته وحمايته جيش من الشغيلة ، في الأرجنتين حيث يتكون على الحدود بين البيرونية والشيوعية التقليديتين جيل جديد من الثوريين ، في الأورغواي والبرازيل ، مع المنفيين السياسيين ومناضلي الداخل . وما كان ممكناً لأي فكرة من الأفكار المعبر عنها هنا أن ترى النور لولا مساهمة جميع الرفاق الذين ربطوا بها حياتهم : فهي أفكارهم ، لكن من غير أن تلزم أحداً منهم شخصيا .

إن الكاستروية بوصفها تكتيكاً ثورياً ، قد أعطت براهينها التي لا يمكن المماراة بها بعد الآن : إن برهانها هو كوبا . لكن كما قال لويس آلثور مؤخراً « يعرف » الماركسيون أنه ما من تكتيك ممكن إلا إذا استند الى استراتيجية ، وما من استراتيجية إلا اذا استندت الى النظرية » . والملاحظات المنشورة هنا ليس لها من هدف الا تسليط الضوء على تكتيك واستراتيجية هما الآن موضع امتحان في كل أميركا الجنوبية ، وبالتالي ما يزالان غير مكتملين . ويبقى علينا أن

نبين كيف أن التكتيك الكاستروي للتمرد والاستيلاء على السلطة يتلاءم مع نظام التناقضات الخاص بكل بلد أميركي لاتيني ، وكيف أنه يستند إلى النظرية الماركسية اللينينية .

إلا أنه ينبغي أن نلاحظ هنا أن الكاستروية ، الموضوعة على محك التجربة اليومية منذ عشر سنوات ، ليست نموذجاً منتصراً، ليست استراتيجية مكتوبة وليست على الأخص « موضوعاً جميلاً للتأمل » . إن الكاستروية غير موجودة إلا في تلك المدن وتلك الجبال التي يقاتل فيها آلاف المناضلين دونما موقف انطوائي ودونما استباق للمستقبل . إن الكاستروية ما تزال في ورشة العمل ، شأن أميركا الجنوبية نفسها. وإذا كانت هذه الملاحظات تغض النظر أحياناً عن هذه الحقيقة باعتبارها تستهدف الوصول الى معرفة ، فهي لا تنسى في لحظة من اللحظات الحضور الصامت لكل تلك الحيوات وتلك الميتات الغفل . ولعل ما سينقص كل ملاحظة تكتب عن الكاستروية ، حتى تكون سديدة ، شيء لا ينتمي إلى عالم النظرية بقدر ما ينتمي إلى عالم الخيال .

★★★

في البلد نصف المستعمر تمثل الدولة ، أكثر مما في الرأسمالي المتطور ، مسألة مركزية : والحال أنه ، وللأسباب نفسها ، تفتقر الطبقات المستغلة في هذا النمط من البلدان أكثر منها في أي مكان آخر إلى وسائل الرقابة على سلطة الدولة ، وكم بالأحرى الاستيلاء عليها. وإنما في البلدان التي تركز فيها الدولة جميع عوامل السلطة بين يديها ، تبدو مسألة سلطة الدولة مستعصية الحل أكثر منها في أي مكان آخر . والطريقة المعتادة لحل المشكلة هي ، في أميركا الجنوبية ، **الانقلاب العسكري** الذي تتم بفضله كل عمليات الإطاحة بالسلطة القائمة أو تحويلها ، حتى عندما يكون ذلك باسم الطبقات الشعبية وضد الاوليغارشية . وأول رفض للكاسترية هو الانقلاب العسكري .

إن هذا الرفض الذي يبدو بدائياً يكتسب كل أهميته في قارة أدت فيها

أهمية السلطة وغياب كل سلطة أُخرى غـــير سلطة الدولة إلى توطيد الطقس الأميركي – اللاتيني بالجوهر : الانقلاب ، وذلك منذ بداية استقلال تلك القارة. لقد استولى بيرون وفارغاس ، كل في حينه ، على السلطة بواسطة انقلاب ، وإن كانا يعبران عن ازمة عامة - أحدهما عن أزمة ١٩٢٩ وانهيار الاقتصاد البرازيلي القائم على إنتاج القهوة ، والآخر عن الأزمة الناجمة عن الحرب العالمية الثانية وعن التصنيـع السريـع للارجنتين في مرحلة الازدهار . لكن مهما تكن القوى التي تدعم في البداية حكومة قامت بفضل انقلاب (وهو عملية خاطفة على مستوى «القمة» يلعب فيها الجيش عادة الدور الرئيسي كممثل أو حكم) ، فإن مثل هذه الحكومة لا بد أن تميل بالضرورة إلى اليمين . إنها مضطرة ، نظراً إلى أنه محكوم عليها بالفاعلية المباشرة حتى تكسب تأييد الجماهير ، إلى الاعتماد على المصالح الاقتصادية القائمة أو على البيروقراطية المتمركزة في مواقعهـــا من الاساس ، أو على غالبية الجيش . وعلام يمكنها الاعتماد طالمـــا أن الوعي السياسي والتنظيم الجماهيري معدومان ؟ كيف تستطيـع أن تطلب التضحيات التي تستلزمها سياسة استقلال وطني حقيقية ، إذا كانت الجماهير الفلاحية وبخاصة العمالية غير مقتنعه بضرورة هذه التضحيات ؟ إن هذه الأنظمة الشعبية النزعة – نظام فارغاس الثاني ونظام بيرون الأول[١] – تصدر في البداية قوانين اجتماعية يعتبرها المستفيدون منها في لحظتها ثورية ، مع أنها في الواقع ديمـــاغوجية لأنها لا تستند إلى أي بنية تحتية اقتصادية متينة . وهذه الأنظمة ، التي وصلت إلى السلطة بفضل الجيش أو بفضل حياده. تسقط سريعاً بمجرد أن يريد ذلك الجيش ، أو القسم الأكثر رجعية منه : البحرية ، إن العنف المنظم ملك للطبقة الحــاكمة . والانقلاب العسكري الذي يلجأ إلى هذا العنف محكوم عليه بأن يحمل سيماءه . لقد رفض بريستس (بيان

---

(١) : شغل فارغاس في البرازيل منصب الرئاسة مرتين (١٩٣٠ – ١٩٤٥ ، و ١٩٥١ – ١٩٥٤) . وقد انتحر قبل انتهاء ولايته الثانية . وفي الارحنتين بدا أن حكومة بيرون (١٩٤٦ – ١٩٥٥) تفاهمت في النهـــاية مع الولايات المتحدة والاليغارشية الوطنية .

أيار ۱۹۳۰) في عام ۱۹۳۰ أن يدعم فارغاس ، « الملازم مثله » المدعوم من كل حركة « الملازمين[1] » المتولدة من التمردات اليسارية في أعوام ۱۹۳۰ و۱۹۲۲ و ۱۹۲٤ وعن « كتيبة بريستس » بالذات : فالطريقة التي لجـــأ اليها فارغاس للاستيلاء على السلطة كانت كافيـــة وحدها لكشف الطبيعة الرجعية « الدولة الجديدة » . وبعد خمسه أعوام نظم بريستس نفسه ، على أثر عودته من موسكو تمرداً عسكرياً محلياً، مستقلاً عن كل حركة جماهيرية، ومرتبطاً ببعض الشخصيات العليا في الحكم القائم ، فكان مآله إلى فشل، وذهب بريستس إلى السجن وزوجته إلى معسكر اعتقال ألماني ، ودخل الحزب الشيوعي الحيـاه السرية طوال عشرة أعوام . ونحن نروي هذه الحادثة لتبين مـــدى قوة إغراء الانقلاب أو التمرد العسكري حتى في أوساط اليسار الثوري . وبالفعـــل فان الجيش في البرازيل والارجنتين وفنزويلا ، وفي البيرو سابقاً، يجنـــد ضباط صفه من بين الطبقات المتوسطة الدنيا . ومن هنا كانت نظرية الجيش كعـــالم اجتماعي مصغر يعكس تناقضات العالم الاجتماعي المكبر : إن جميع التمردات العسكرية المحليـــة التي قامت منذ ۱۹۲۲تبدو وكأنها تؤكد هذه النظرية . والواقع أنه إذا كان لايمكن إساءةتقدير درجة التسييس الثوري أو القومي لدى بعض قطاعات الجيش والمعونة التي يستطيع أن يقدمها للحركة الثورية ، فلا يمكن البتة بنـــاء استراتيجية أو حتى مرحلة تكتيكية من مراحل النضال على قرار كتيبة أو فرقة . ولا بد بالأصل من أن يوجد تنظيم مدني له أهدافه ووسائله الخاصة حتى يمكن أن **تندمج** به العناصر القادمة من الجيش . وبالمقابل فإن المدنيين الذين يأتون للمساهمـــة في انقلاب عسكري ، سيكون مصيرهم الطرد من قبل القادة العسكريين للانقلاب بعد فترة غير طويلة من الزمن. إذن فالكاستروية قد أنجزت ثورة صغيرة برفضها الانقلاب العسكري كمنهج للعمل حتى عندما يكون مرتبطاً بتنظيم مدني .

---

(۱) كثير من ضباط الصف من ذوي « النزعة القومية اليسارية » شكلوا إطارات التمردات الثورية الأولى . وبريستس ، زعيم الحزب الشيوعي البرازيلي ، هو عسكري محترف .

ومقابل «النزعة الانقلابية العسكرية الثورية» (التي يجب تمييزها عن البلانكية باعتبار أن البلانكية تعريف للعمل المعزول لأقلية مدنية غير عسكرية) تلغي دعاة « العمل الجماهيري الصرف ». إن الكثير من القيادات الشيوعية الراهنة(١) ترفع الشعار القائل أنه ليس هناك من طريق ثوري غير الطريق الذي يمر بتمثل الجماهير الواعي للنضال ، أي « بتربيتها الايديولوجية » ،من غير أن تحدد **كيف** يمكن « تربيه الجماهير » في الأنظمة التي يحول طابعها القمعي دون العمل الشرعي النقابي أو السياسي . ولا عجب بعد هذا إن لم يكن أي عمل من هذا النوع قد تمكن من الاستيلاء على السلطة في أي مكان . إن كلمة « الجماهير » تلوح بها الأحزاب الشيوعية الاصلاحية في النقاش أو الدعاية كأسطورة سوريلية معكوسة حتى لا تفعل شيئاً . لقد لخص لنا أحد قادة الحزب الشيوعي الارجنتيني سياسة الحزب بقوله : « مع الجماهير ، كل شيء . وبدون الجماهير ، لا شيء » . وعندما سألناه عما سيحدث مع مثل هذا الشعار في حالة انقلاب عسكري ، لم يعرف هذا القائد « السياسي» سوى أن يعبر عن خشيته من المحرضين ، مع اعترافه بأنه إذا لم تخرج الجماهير إلى الشارع ، فإن الحزب لن يستطيع أن ينظم مقاومة بمفرده. إن هذا التفسير يفسر لماذا بقيت شوارع ريو وسان باولو خالية يوم ١ و ٢ نيسان ١٩٦٤، في الوقت الذي كان فيه ألوف الناس على استعداد للتظاهر، وحتى للقتال ، لكن مع من ؟ وراء من ؟ تحت أي علم ؟ أليس من مهمة منظمة مهيأة لهذا الغرض ، سياسياً وتكنيكياً ، أن تتقدم الصفوف ، حتى تدخل الجماهير من

---

(١) : نقصد الأحزاب الشيوعية المناصرة للاتحاد السوفياتي . ففي جميع أنحاء أميركا الجنوبية المتخلفة انقسمت الأحزاب الشيوعية ، على حساب قضية الجماهير ، إلى أحزاب شيوعية مناصرة للصين وهذا الغالبة في البيرو والاكوادور ، وإلى أحزاب شيوعية مناصرة للسوفييت . وكانت ما تزال لها الغالبية في البرازيل قبل الانقلاب العسكري وفي بوليفيا . وعلاوة على الحزب الكوبي ، كان الحزب الشيوعي الفنزويلي هو الحزب الوحيد في القارة الذي رفض أن يتخذ موقفاً في الصراع الدولي ولم يشهد انقساماً داخلياً . وليست صدفة أن يكون الحزبان الملتزمان بممارسة ثورية جذرية على مستويين مختلفين ، قد ارتأيا أنه لا جدوى من نشر تصريحات مبدئية .

بعدها في العمل ، تحت **حماية وإرشاد** هذه الطليعة ؟ أنها ليست مهنة عـامل في الميناء أو في السكك الحديدية (النقابتان اللتان حاولتا أكثر من من جميع النقابات أن تقاوما في ريو) أن يذهب ليقتل وحيداً في الشارع ، بلا سلاح ، وبخاصة بلا توجيه ، بلا هذف محدد ، في الوقت الذي اختفى فيه ممثلوهما السياسيون في الريف أو ذهبوا للتفاوض مـــع وزارة غولارت شروط الانسحاب .

خلاصة القول إن العنف المنظم ملك في مجمـله للعدو . وعنف الرد الشعبي ، « العمل الجمـاهيري » ، يمكن لعنف العدو المنظم أن يحطمه بسولة : فبانقلاب عسكري سريـع يبدد الجيش هبـاء منثوراً ، الأحزاب الديموقراطية والنقابات وكفاحية الجماهير والأمل . ومن هذه الزاوية يبدو الانقلاب البرازيلي نموذجياً .

ما العمل ؟

على هذا السؤال اللينيني تجيب الكاستروية بعبارات قريبة من عبارات لينين، في ١٩٠٢ ، في كتابه « ما العمل ؟ » على وجه التحديد . إن منظمة قليلة العدد من « الثوريين المحترفين » القديرين نظرياً والمدربين عملياً « حسب جميع قواعـد الفن »، هي وحدها القادرة في ظل نظام«أوتوقراطي على إيصال النضال الثوري إلى أهدافه . وباللغة الكاستروية : إنها نظرية الـ « Foco » ، أي البؤرة التمردية التي عرض غويفارا شيوط تطورهـا في « حرب الأنصار » . يقول غويفارا في المقدمة : « إننا نعتبر أن الثورة الكوبية قد قدمت ثلاثـــة إسهامات أساسية لميكانيكا الحركات الثورية في أميركا : ١ً : إن القوى الشعبية تستطيع أن تربح **حرباً** ضد الجيش . ٢ً : يجب ألا ينتظر دومـاً اكتمال جميع شروط الثورة فالبؤرة الثورية تستطيع أن تخلقها . ٣ً : في أميركا المتخلفة يجب أن يكون ميزان النضال المسلح الريف بالدرجة الأولى».واليوم،بعدخمس سنوات من تجارب « البؤر » في كل أنحاء أميركا تقريباً – خمس سنوات تعادل قرناً – ماذا تبقى من « البؤرية » ؟ هل كذبتها الوقائع ، أم أنها على العكس تمرست وتعززت لدى الامتحان ؟

أن فحصاً أولياً يظهر فشلاً شبه كامل ، باستثناء فنزويلا منذ ١٩٥٩ ، وهو

العام الذي دخلت فيه أميركا اللاتينية في مرحلة كثيفة من حروب الأنصار، لتخرج منها اليوم موجعـــة مغتنية، قادرة على خلق أسس نضال مسلح مظفر. وباستثناء مئات الحركات المجهضة، أو المفتقرة إلى أهمية جدية، لنتذكر جميع تجارب البؤر التمردية في الأرياف:

الارجنتين: كانون الأول ١٩٥٩. البؤرة التمردية المدعوة «اوتورنكو»، التي تزعمتها فئة من البيرونيين الثوريين المتأثرين بجون ويليامز كوك، ساعد بيرون الأيمن في الأعوام الأخيرة من حكمه، والنصير المتحمس للنضال المسلح. وقـــد تلاشت هذه البؤرة بعد بضعة نجاحات تكتيكية.

الباراغواي: تشرين الثـــاني ١٩٥٩، الفشل المأساوي لحركة «١٤ أيار» المؤلفة من مناضلين شباب. ففي ٢٠ تشرين الثاني ١٩٥٩ دخل مؤلف من ٨٠ فدائي إلى غابة شمال الباراغواي. وبعد بضعة أيام لم يبق منه سوى بضعة أحياء هربوا بمعجزة إلى الارجنتين. والباقون ماتوا إما في القتال وإما تحت التعذيب.

سانتو دومنغو: فشل الانزال الذي قامت به صيف ١٩٦٠ حركة «١٤ تموز» بقيادة انزيك جيمنيز مويا. قتل الجميع.

البارغواي: في الأشهر الأولى من عام ١٩٦٢، فشلت مقاومـــة الانصار التابعين للجبهة الموحدة للتحرير الوطني، المؤلفة من «شبيبة شباط» والحزب الشيوعي الذي تخلى عن خط النضال المسلح ليتبنى خط الجبهـــة المتحدة مع البورجوازية الوطنية أو الحزب الليبرالي.

كولومبيا: ١٩٦١: فشل «الحركة العمالية – الطلابية – الفلاحية» وهي منظمة «كاسترويه» يسارية متطرفة تضم عدداً من المنشقين عن الحزب الشيوعي، وقد اغتيل قادتها على يد قطاع الطرق المتواطئين مع الجيش، أو على يد الجيش نفسه بعد استسلامهم.

الاكوادور: فشل حرب الانصار التي شنها «الاتحـــاد الثوري للشبيبة الاكوادورية» وقد تمكن المظليون من تطويق أربعين شاباً وأسرهم في مدى ٤٨ ساعة.

فنزويلا : لانكون غير منصفين إذا أدرجنا في هـــذه القائمة فشل « البؤر الأولى » لحرب الأنصار ، التي اسيء تنظيمها ، في آذار ١٩٦٢ . وقد أمكن في المستقبل التعويض عن هذا الفشل المحلي .

البيرو : على الحدود البوليفية صفيت طليعة طابور هام (وقد ألف بابلو نيرودا آنذاك قصيدة في ذكرى جافييه هيرو ، وهو شاعر شاب قتل في تلك المعركة ، لكنه تراجع عن موقفه بعد ذلك ، عشية الانتخابات الشيلية في ٤ أيلول ، عندما شتم كل ما تعد أميركا والعالم اليوم من لينينيين) .

البرازيل : لا يمكننا أن نتكلم هنا عن بؤر تمردية بالمعنى الـكامل . فخلال عام ١٩٦٢ تكونت في بعض الولايات الداخلية بؤر للتدريب العسكري ، مرتبطة بحركة جولياو ، لكنها اندثرت لافتقارها إلى الدعم الذي وعدها به فرانسسكو جولياو . وقد أدى هـــذا الفشل إلى سلسلة من الانشقاقات داخل « الروابط الفلاحية » التي ما عتمت أن ماتت كحركة سياسية قومية في أواخر ١٩٦٢ .

البيرو : كان من المحتم منطقياً أن تتحول الحركة التي بدأها هيغو بلانكو في عام ١٩٦١ ، في وادي الكونغانشيون ، إلى بؤرة تمردية . لكن بلانكو لم يستطع الانتقال إلى النضال المسلح لافتقاره إلى دعم سياسي والى استراتيجية محددة ، وإلى إطارات وأسلحة . وقد دفع الفلاحون ثمن القمع الرهيب العسكري في تشرين الأول ١٩٦٢ . وقد أسر بلانكو في أيار ١٩٦٣ ، وحيداً مريضاً ، بعد أربعة أشهر من التفتيش عنه .

الأرجنتين . فشل « حركة أنصار الشعب » في شباط – آذار ١٩٦٤ . ونظراً إلى قيمة المنظمة وأهميتها ، فإن هـــذا الفشل يعتبر فادحاً بالنسبة إلى تكتيك « البؤرة » . وقد اكتشف الدرك معسكرات تدريب كبيرة وقواعد تموينية تحت أرضية . وحطم المنظمة قبل انتقالها إلى مرحلة العمل . وكانت مؤلفة من شباب منشقين عن الحزب الشيوعي ، « بؤريين » لا تروتسكيين كما زعم الحزب الشيوعي الأرجنتيني .

إن كل محاولة من محاولات النضال المسلح هذه تستحق سرداً أميناً لظروفها

وأصولها . لكن دواعي الأمن تحول دون ذلك ، لأن جميع هذه الحركات لاتعتبر فشلها نهائياً . ونحن نود فقط أن نستخلص الدروس العـــامة ، السياسية ، من هذه التجارب ، وأن نكوّن بدءاً منها فكرة أدق عن شروط تطور «البؤرة »

وأزاء هذه المحاولات الفاشلة ، لنذكر بالأراضي المحررة أو بمناطق القتال الموجودة في الوقت الراهن في أميركا الجنوبية على أساس متين :

فنزويلا : تشكل منطقتا فالكون ولارا منذ سنتين منطقتين « مستقرتين » على حد تعبير دوغلاس برافو ، قائد قوات الأنصار . وبالاضافة اليهما فتحت في تموز ١٩٦٤ جبهة جديدة في باشيلر ، وأخرى على ما يبدو في الآند .

كولومبيا : مناطق الدفاع الذاتي الفلاحي ، المسماة « جمهوريات مستقلة » : ماركيتاليا ، ريو شيكيتو ، سوماباز ، والباتو التي يعود انشاؤهـــا الى الحرب الأهلية (١٩٤٨-١٩٥٨). وقد ولدت بنتيجة نضال مسلح محلي خاصة الفلاحون الذين لم يضعوا السلاح بعد أن انتهت الحرب بالمصالحة بين المحافظين والليبراليين ، وتنظموا بصورة مستقلة بقيادة زعماء فلاحين (يتمتعون بتكوين عسكري مدهش) ، أعضاء في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي . وبعد انتخابات اذار ١٩٦٤ ، تعرضت منطقة ماركيتاليا لهجوم كثيف ومركز من قبـــل الجيش والطيران باشراف ضباط أميركيين . وقد رفض قائد المنطقة ، مارولانديا ، خوض حرب نظامية لا بد أن تكون مشؤومة ، وترك للجيش القسم المأهول بالسكان ، وهو عبارة عن بلدة لا أهمية لها . ثم حاصره وراح يشن عليه حرب عصابات رهيبة .

بوليفيا : يمكننا أن ندرج في هذه القائمة ، بالرغم من التباس المعركة ، الشمال الشرقي البوليفي المداري ، على حدود البرازيل ، الذي تحتله أعداد كبيرة من الأنصار الذين انتقلوا إلى الهجوم منذ آب ١٩٦٤ بقيادة الحزب الكتائبي . وقد تبنى هذا الحزب على ما يبدو موقفاً وطنياً ومعادياً للاميركان ، منذ فشل التمردات الكتائبية ، في عام ١٩٥٣ ، وبخاصة منذ ١٩٥٩ عندما قتل مؤسس الحزب ، أو نزاغا دي لافيغا . ولا تخلو الحركة من شيء من النزعة الاقليمية ،

بل الانفصالية . لكن بعض قادتها ثوريون أصيلون .

بوليفيا : تشكل المناجم البوليفية من حيث أهميتها الاقتصادية (القصدير إنتاج بوليفي بالأساس) والاجتماعية (٢٦،٠٠٠ عامل) والسياسية (مستوى الوعي والتنظيم) أهم وأمتن منطقة حرة في القارة الأميركية . فمنذ ثورة ١٩٥٢ التي كانت أول ثورة في أميركا صنعها عمال المناجم وانتصروا فيها ، نظموا أنفسهم في كل منجم على شكل ميليشيا . وصحيح أنهم يفتقرون إلى الأسلحة التقليدية ، لكنهم بارعون في استخدام الديناميت وقد اتخذوا منه سلاحاً رهيباً. وهم يدفعون من حياتهم ثمناً لكل اضراب ولكل مطلب أولي (عمل ٨ ساعات في اليوم) . وقد أصبح النضال المسلح الواقع اليومي للمنجم ، ودوماً على وشك التحول إلى هجوم استراتيجي : الزحف على لاباز ، العاصمة « الهندية » . إن بوليفيا هي البلد الذي تجتمع فيه الشروط الذاتية والموضوعية على أفضل صورة ، والبلد الوحيد في أميركا الجنوبية الذي أصبحت فيه الثورة الاشتراكية مدرجة في جدول الأعمال ، بالرغم من إعادة بناء الجيش الذي دمر تدميراً كاملاً عام ١٩٥٢ . كما أنها البلد الوحيد الذي يمكن فيه للثورة أن تتخذ الشكل البولشفي الكلاسيكي ، والشاهد على ذلك التمرد البروليتاري في عام ١٩٥٢ على أساس « مجالس السوفييت » التي أطاحت بجهاز الدولة بكفاح مسلح سريع وحاسم .

إذن فنظرية البؤرة في بوليفيا إن لم تكن غير مناسبة ، وذلك لأسباب تاريخية تكوينية فريدة من نوعها حقاً في أميركا ، فهي على الأقل ثانوية الأهمية . وإذا ما استثنينا كولومبيا ، الأكثر تصنيعاً والأقل استعماراً من فينزويلا ، حيث أخذت حرب الأنصار الريفية ذلك الطابع « الفيتنامي » ان جاز القول (الفلاحون هم في آن واحد مزارعون ومقاتلون) ، نجد أن فينزويلا هي وحدها التي تتجاوب مع خصائص البؤرة كما عرضها شي غويغارا . وهذا قليل جداً بالنسبة الى قائمة المحاولات الفاشلة التي عددناها . والواقع أن التحليل السريع لأسباب هذا الفشل يبين انه يرجع إلى التقليد المتسرع لنموذج محدد ، نموذج الثورة الكوبية ، كما يبين أن تلك المحاولات لم تجمع كل شروط النجاح . وهي

شروط سيتاح لنا ، بفضل هذه التجارب التاريخية ، أن نعددها على نحو أفضل. ولعل تعدادها الكامل سيتيح لنا إمكانيه تعريف أولي للكاستروية . وكما أن اللينينية تدعمت نظرياً بعد امتحان ١٩٠٥ ، كذلك فإن الكاستروية تدعمت وتوضحت على ضوء ثورة « ١٩٠٥ » الواسعة المتناثرة التي عرفتها اميركا اللاتينية منذ انتصار الثورة الكوبية .

إن أفدح خطأ يمكن أن نرتكبه هو أن نرى في «البؤرة »انبعاثاً للبلانكية. إن « البؤرة » بالرغم من أنها تنطلق في البدء من جماعة صغيرة جداً – من ١٠ إلى ٣٠ شخصاً من الثوريين المحترفين الناذرين أنفسهم للقضية والمتطلعين الى استلام السلطة – فانها لا تتطلع البتة إلى الاستيلاء على السلطة بمفردها بعمل جريء . كما لا تتطلع حتى إلى استلام السلطة بواسطة الحرب أو إلحاق الهزيمة عسكرياً بالعدو : انما هدفها الوحيد أن تضع الجماهير في حالة تستطيع معها أن تطيح من تلقاء نفسها بالسلطة القائمة . انها أقلية ، بالتأكيد ، لكنها بعكس الأقليات البلانكية الفاعلة لا تزعم انها ستجتذب الجماهير إليها **بعد** استلام السلطة ، بل **قبله** ، وتعتبر ذلك شرطاً أساسياً للاستيلاء الكامل على السلطة . انها أقلية تشبه نقطة الزيت التي تنداح ببطء ، غازية أولاً الجماهير الفلاحية ، ثم المدن، ثم العاصمة . والحركة تتم في كلا الاتجاهين ، باعتبار انه تنبثق من المدن بالذات حركة اضرابات وتظاهرات للدفاع عن الحريات العامة وجمع التبرعات الخ ، وكذلك حركة مقاومة سرية . إن هذا النمو ، الذي يذهب من الأقلية المعزولة إلى الأقلية – النواة لحركة شعبية ليصبح محرك المد النهائي ،ليس ميكانيكيا ، من حيث ان إشعاع البؤرة يتسارع على شكل قفزات . ان التماس الأول مع فلاحي الجبل الذي يقيم فيه الأنصار قاعدتهم لأسباب تتعلق بالأمن والحماية الطبيعية ، هو أصعب المراحل : فهؤلاء الفلاحون المعزولون ، الملاك الصغار لأراضٍ مجدبة ، هم أكثر فئات الفلاحين انغلاقاً دون الوعي السياسي ، وتوجيههم وتنظيمهم أصعب من توجيه وتنظيم أي فئة أخرى ، وذلك نتيجة لتشتتهم وأميتهم وريبتهم الأولية تجاه اولئك المجهولين الذين لا يعدونهم بشيء ، على

ما يعتقدون ، إلا بالقصف الجوي والنهب والقمع الأعمى . لكن بعد ان يتم اكتساب هذه الفئة ، وبعد أن تكون «البؤرة » قد تدعمت بالتموين والمعلومات والرجال ، تتلقى الدعم من العمال الزراعيين في « الأراضي الواطئة » ، أي من فئة اجتماعية أكثر انفتاحاً ومهيأة مادياً ، بالنظر الى تمركزها وبطالتها المزمنة وتبعيتها المطلقة لتقلبات السوق الرأسمالية ، الخ . ثم يأتي العمل البطيء في المدن المجاورة للاتصالات بالتمركزات العمالية الصغيرة المتسيسة التابعة للصناعات التحويلية المحلية .

والطابع الثاني للبؤرة ، الذي يعارضها جذرياً بالبلانكية ، هوانها لا تتطلع البتة الى نصر خاطف ، ولا حتى الى مخرج سريع للحرب الثورية . إن البؤرة تريد الاستيلاء على السلطة مع الجماهير وعن طريقها ، أي مع الفلاحين الفقراء والمتوسطين ومع العمال . والحال ان هذه الفئات الاجتماعية المعزولة بصورة شبه أزلية عن الحياة السياسية بحاجة الى تجربة عملية طويلة حتى تعي وضعها كفئات مستغلة ، وحتى تنتظم وتباشر العمل .

إن التمرد الشيوعي البرازيلي في عام ١٩٣٥ ، الذى رسم خطته بريستس ، بعد أنعاد سراً إلى ريو من موسكو حيث كان عضواً في المجلس الخارجي للأممية الثالثة، يقدم لنا صورة واضحة من طبيعة الانقلاب البلانكي. فبناء على معلومات كاذبة صادرة بلا شك منعناصر مندسة فيالحزب الشيوعي (الامين العام نفسه) اعتقد بريستس أن الفرصة مؤاتية للقيام بتمرد عسكري في عدد من الفرق . ولم يجر أي اتصال مع منظمة «التحالف» الوطنية التحررية ، وهي منظمة جماهيرية قوية ، من الجبهة الشعبية ، يشكل الشيوعيون هيكلها العظمي . وقد انطلقت شرارة التمرد في صباح يوم من أيام تشرين الثاني من ثكنة الكتيبة الثالثـــة ، لكن سائر الكتائب المتآمرة لم تتبعها ، بـــل راحت على العكس تفتك ببعضها بعضاً . وشدهت الجماهير ولم تحرك ساكناً ، لا لتدعم الحركة ولا لتحتج على حملة القمع العنيفة التي تلتها . وكانت نتيجة هذه المحاولة الفاشلة ، التي تكاد تكون رواية بوليسية ، توطد الفاشية في البرازيل لمدة عشر سنوات . ومن المدهش حقاً

أن تكون الأممية الثالثة قد راهنت على هـــذه الحركة ، في أوج مرحلة الجبهة الشعبية المعادية للفاشية ، وجندت خير تكنيكييها وإطاراتهـا السياسية لدعم التمرد العسكري .

إن خطة التمرد العسكري التي وضعت موضع تنفيذ في فنزويلا عام ١٩٦٢، والمعروفة باسم « خطة كاراكاس» تختلف اختلافاً كبيراً عن «انقلاب بريستس» فهي تمثل مرحلة نضالية أكثر تقدماً (سلسلة من مظاهرات شعبية وإضرابات ، كانت حصيلتها ٢٥ قتيلاً في ثلاثة أيام) ، كما تمثل حركة عفويـــة في صفوف الضباط الشباب وضباط الصف في الجيش والشرطة . وكان المفروض على الأخص أن يكون تمرد القطعات العسكرية في مختلف أرجاء البلاد إشارة لاندلاع حركة شعبية في كاراكاس وسائر المدن . لكن مخابرات الحكومـــة اكتشفت الخطة وأحبطتها واعتقلت العناصر العسكرية الخطرة قبل زمن قليل من ساعة الصفر .

لقد استخلص الرفاق الفنزويليون ، على ما يبدو ، من هـــذا الفشل فكرة تقول إنه لا يمكن أن يعطى الجيش ، ولا حتى عناصره الأكثر تصميماً ووعياً ، دوراً مبالغاً فيه بسبب مقاومة العديـد من الضباط وضباط الصف ، الخاضعين لتكوينهم العسكري ، للواجبات التي يفرضها العمل الثوري : وعلى سبيل المثال عدم كتمان السر (كثيراً ما تتغلب الرفاقية أو التضامن العسكري على المعارضات السياسية) والتمسك بالشرف العسكري ، وباختصار عدم القدرة على اكتساب التواضع الثوري . فقد رفض بعض العسكريين الانسحاب والتراجع إلى الحقول البترولية لاتقاء غارات الطيران ، باعتبار أن مثل هذا التراجع يسيء إلى سمعتهم كعسكريين ، فقتلوا وصرعوا بذلك جيش التحرير الشعبي الذي تكون بعد قليل من إطارات هو بأمس الحاجة إليها .

لكن «الكاسترويين» يعون في هذا الوقت إنه لا يمكن اتخاذ موقف متحجر من غير أن يتعللوا بالاوهام من الدور الذي تستطيع أن تلعبه عناصره الطليعية طالما أنها باقية داخل البنية العسكرية ، وطالما أنها لم تندمج بالجيش « الآخر » الذي هو في سبيله إلى التكون . والواقع أن الدعاية العدوة تردد على مسامع

العسكريين المحترفين أن الثورة « الكاسترويه ـ الشيوعية » تريد أن تصفي الجيش، من غير أن تحدّد معنى كلمة «تصفية» . وفي فنزويلا أثرت هذه الدعاية في النهاية على بعض العسكريين، من ذوي الأصول الشعبية والمحبذين للثورة . ومن هنا اضطرت حركة الانصار إلى الالحـــاح في صحافتها السرية على الحاجه التي ستكون فيها فنزويلا الديموقراطية في المستقبل إلى جيش من نمط جديد، وشرحت أنها لا تنوي تصفية جميع الضباط المحترفين مادياً ، الواحد تلو الآخر ، ولا حتى تسريحهم، وإن المطلوب هو تدمير الجيش بوصفه جهاز قمع في خدمة الطبقة السائدة.

ولعل مايساعدنا على أن نضع نظرية «البؤرة» في مكانها بين المفاهيم السياسية السائرة ، هو أن نربطها بالنظرية اللينينية عن « أضعف حلقات السلسلة » . فالبؤرة تقيم **كمفجر** في **المكان** الأقل مراقبة من الشحنة المتفجرة ، وفي أنسب **أوقات** الانفجار . والبؤرة لن تقوض من تلقاء نفسها وضعاً اجتماعياً معيناً ، ولا حتى وضعاً سياسياً . انها لن تستطيع أن تلعب دورها الايجابي إلا إذا وجدت النقطة التي ستتسرب منها إلى التناقضات المتطورة. في المـكان : حيث التناقضات الطبقية على أعنف ما تكون ، لكن على أقل ما يمكن من الظهور على الصعيد السياسي ، أي في قلب مناطق الاقطاع الزراعي وبعيـــداً عن أجهزة القمع المتمركزة في المدن . وفي الزمان : هنا تكمن العقدة . فمن المؤكد أن البؤرة لا يمكن أن تولد في فراغ الموجة ، بل يجب أن تكون ذروة أزمة من الأزمات السياسية (١) . ومن المؤكد أيضاً انه لا يمكن انتظار « الوقت» لاحتلال الجبل ، لأن البؤرة لا ترتجل ارتجالاً في شهر واحد . وحتى يلتهب السهل ، لا بد أن

---

(١) : ينبغي أن يندلع التمرد في منعطف من تاريخ الثورة ، في وقت يكون فيه نشاط طليعة الشعب على أقوى ما يكون ، وتكون فيه المترددات على أشد ما تكون في صفوف العدو وفي صفوف أصدقاء الثورة الضعفاء ، الحائرين ، المليئين بالتناقضات . تلكم هي في نظر لينين النقطة الثالثة التي تميز الماركسية عن البلانكية في مسألة التمرد ، علماً بأن النقطة الأولى هي ضرورة اعتماد التمرد على « الطبقة الطليعية » والثانية هي ضرورة إعتماده على « الاندفاع الثوري للشعب » .

تكون الشعلة موجودة من الأصل في حالة ترقب . وقد يكون موعد الحصاد ، بالنظر إلى ما يرافقه من نزاع بين الفلاحين والمالك ، أنسب الأوقات .

إذا كان « ميدان النضال المسلح » في أميركا المتخلفة ، يجب أن يكون الريف بالأساس » (شي غويفارا) ، فإن هذا لا يمنع أن تتطور في المدن بؤر ثانوية ، نوى للنقاش النظري أو التحريض السياسي أو الجيوش الاحتياطية : الجامعات . وليس هنا مجال تحليل الأسباب التي جعلت من الطلاب في أميركا اللاتينية طليعة الثورة ، مع أنهم أول من يتحمل تكاليف القمع . لكن لنذكر هنا بأهمية عامل « الوعي » في البلدان المتخلفة أزاء عدم وجود جماهير عمالية منظمة ، وبالاصلاح الجامعي الذي حمى الجامعات ، باسم الليبيرالية البورجوازية، من تدخل السلطة (حماية نظرية فحسب) وإذا كانت البؤرة الجامعية بؤرة سياسية لا عسكرية (سلاح الطلاب هو كوكتيل مولوتوف عند الضرورة) ، فان هذا لا يعفيها من أخطار « البؤرة » المعتادة . إن البؤرة الجامعية تواجه باستمرار خطر الانعزال والانطواء على ذاتها والانفصال عن جماهير الشعب .

إن جميع البؤر التي عددنا قائمتها قد تلاشت : فالنضال المسلح ليس في حد ذاته الدواء الشافي لكل الأمراض . فما أسباب ذلك ؟ بدون دخول في التفاصيل نقول : ان جميع البؤر تقريباً قد جرت تصفيتها عن طريق الوشاية أو تسرب عملاء البوليس الى المنظمة . وبالفعل استطاعت المخابرات الأميركية الشمالية أن تطور إلى أبعد الحدود منذ عام ١٩٥٩ مناهجها في التسرب والاستعلام . لكن هذا العامل ، على أهميته ، لا يفسر جميع جوانب المسألة . إن جماعة الأنصار تكون في البداية مقتصرة على أقل عدد ممكن ، لتجنب أخطار التسرب على وجه التحديد ، إذ يكفي أن يتسرب شخص واحد حتى يفتضح أمر التنظيم بكامله . لكن هناك شروطاً سياسية أعمق تفسر وجود التسرب وقدرته على تحطيم التنظيم . وهذه الأسباب هي غياب أو نقص التهيئة السياسية لأعضاء التنظيم . وغياب التهيئة السياسية للميدان الذي ستعمل فيه البؤرة ، الشيء الذي يؤدي إلى انعزالها ضمن محيط من الفراغ ومن الافتقار الى الاستعلام والتموين وحتى

الاطلاع على الشروط الجغرافية لمنطقة العمليات . وأخيراً غياب جهاز ارتباط سياسي مع جماهير المدن ، لدعم البؤرة بعمل جماهيري في المدن، وشرعي إن أمكن ، ولتوسيع صدى البؤرة الريفية عن طريق الدعاية ، ولضمان التمويل والتموين بالحد الإدنى من السلاح والذخيرة والمؤونة .

إن جميع تلك التجارب السلبية التي تعرضنا للبعض منها قد درست من قبل الرفاق الأميركيين اللاتينيين الذين يبدو أنهم استخلصوا منها الاستنتاجات التالية :

١ – **إن التجنيد ، والتدريب العسكري ، والتهيئة السياسية لنواة المحاربين الأولى يجب أن تكون أصرم بكثير مما في الماضي .** وتجانس الجماعة بالغ الأهمية، كما أن عدد أعضائها الصغير (من ١٠ إلى ٦٠ على الأكثر) يسمح بانتخاب دقيق : وبهذا يمكن أن يصفي الخطر رقم ١ ، التسرب. ولا جدوى هنا من تحليل المظهر التكنيكي للتهيئة. ولنكتف بأن نلاحظ أهمية الحفاظ على السر العسكري مهما كلف الثمن ، وأهمية التدريب الجسماني والعسكري على حد سواء . إن حرب الأنصار هي أولاً ممارسة رهيبة للسير الاضطراري في ميدان وعر ، قبل أن تكون سلسلة من معارك عسكرية عليها أن تسعى إلى تجنبها أصلا . ومن هذه الزاوية فإن الرومانسية تبدو مشروعاًفاشلاًسلفاً. إن الطالب البورجوازي الصغير ، المديني ، المعتاد على الحد الأدنى من رفاه المدينة ، لن يستطيع ، إلا إذا كان يتمتع بصفات جسدية استثنائية ، ان يتحمل نظام الأنصار أكثر من أسبوع واحد . وبدلاً من الاعتماد على الانتخاب الطبيعي يجدر البدء به قبل بداية العمليات : فنادرون هم الطلاب ، فيفنزويلا ، الذين تطوعوا في المحاولات الأولى بدافع الحماسة ، والذين لم يسرحوا بعد بضعة أسابيع ،مرضى منهكين . إن غالبية الأنصار في منطقة الفالكون مؤلفة اليوم من الفلاحين أولاً ، ثم من العمال ، وأخيراً من المثقفين من ذوي الأصل البورجوازي الصغير (أطباء ، طلاب ، الخ) والمتمتعين بطاقات معنوية وجسمانية استثنائية . وأخيراً لا بد أن تقوم اتصالات وثيقة بين منظمات مختلف البلدان للاستفادة من التجارب

المشتركة ولتجنب الوقوع في نفس الأخطاء التنظيمية . ان الحاجة ماسة اليوم إلى مكتب استعلامات على مستوى القارة الأميركية اللاتينية بأسرها .

٢ – لكن النضال المسلح المفهوم على انه فن – بمعناه المزدوج كتكنيك واختراع – لا معنى له إلا في اطار سياسة مفهومة على انها علم . ان الجدية التي تتم بها التهيئة العسكرية للبؤرة وتنظيمها لا يمكن إلا ان تكون سياسية الماهية . ان الحزب الاصلاحي المفتقر إلى أساس نظري هو وحده الذي سيعتبر تكوين جهاز مسلح عملاً مستقلاً بنفسه، ثانوياً ومحلياً: مجرد تدبير للأمن الداخلي. ان تطور النضال المسلح في فنزويلا قاد الحزب الشيوعي إلى انشاء استراتيجية شمولية ، مستندة إلى التحليل النظري للسلطه المزدوجة (الشكلية والواقعية) داخل الدولة نصف الاقطاعية ، وللتناقضات الطبقية الرئيسية والثانوية داخل مجتمع شوهه على حين غرة الاستثمار البترولي في عام ١٩٢٠ : وليس الهدف من مثل هذه الاستراتيجية، تبرير ممارسة موجودة مسبقاً ، بل اعطاء هدف واطار عيني للكفاح . واليوم ، حتى في كولومبيا ، يجد الحزب الشيوعي نفسه أمام الاختيار التالي : إما ان يعتبر حركة الانصار في ماركيتاليا التي بدأها ويقودها زعيمها الفلاح ، مارولاندیا ، مجرد حركة اقليمية وعرضية ، أي ألا يعطيها أي مستقبل ، أي معنى ضمن استراتيجية شمولية ، فيتركها بالتالي تموت سياسياً ومادياً ؛ وإما ان يعيد النظر في موضوعاته الدوغمائية عن الانتقال السلمي ، وفي تحالفه مع «الحركة الثورية الليبيرالية » (المؤلفة من الجناح اليساري للحزب الليبيرالي والموجهة من قبل قيادة بورجوازية) ، وفي الدفاع عن الحريات الديموقراطية ، الخ ، وان يعيد تفسير مجموع طرق الثورة الكولومبية .

ان النضال المسلح لا يمكن البتة ان يشهر في اميركا اللاتينية كشعار ، أو كفرض ، أو كعلاج في حد ذاته : نضال مسلح من قبل من ، ومتى ، وبأي برنامج ، ومع أي تحالفات ؟ هذه هي المشكلات العينية التي لن يستطيع أي شخص في العالم ان يحلها على نحو مجرد ، بالنيابة عن الطلائع الوطنية التي تحمل وحدها عبء هذه المسؤوليات السياسية . وبعبارة أخرى، ان البؤرة لا تستطيع

ان تضع لنفسها استراتيجيتها الخاصة من غير ان تحكم على نفسها بالفشل المسبق : فهي ليست إلا لحظة عليها ان تحدد مكانها ضمن استراتيجية تقبل بأن تفهمها في صدرهـا كلحظة أساسية . ولما كانت اصلاحية (أو تحريفية) بعض الاحزاب الاميركية اللاتينية قد تبلورت حول مسألة الانتقال السلمي ، فقـد وجدت التيارات الثورية التي تعارضهـا على صعيد الممارسة ، وجدت نفسها منقادة إلى اعتبار النضال المسلح هدفاً في حد ذاته . والواقع ان الحزب لا يكون اصلاحياً لأنه يرفض النضال المسلح (نادراً ما تُنكر امكانيته النظرية ، لكنه يُحول عن قصد إلى مجرد امكانية نظرية عندما تُستبعد المهمات الواقعية) ، لكنه يرفض النضال المسلح لأنه يتخلى عن الماركسية – اللينينية . وإذا كان صحيحاً أنه ما من تحليل للشروط الموضوعيـة يمكن ان يتوصل من تلقـاء نفسه إلى استنتاج ضرورة إحداث البؤرة ، فلا امكانية للنضال المسلح بدون تحليل لشروطـه التاريخية . والحال انـه لا يمكن للمرء ان ينكر ان تكون بعض المنظمات الكاستروية ، أو المتسمية بهـذا الاسم ، قد سقطت في النزعة الاراديـة وفي ميتولوجيا حرب الانصار الريفية معارضة منهـا للانحراف اليميني والوضعي النزعـة لبعض الاحزاب الشيوعية : لكن الكاستروية لا دخل لها في هـذا الموضوع من قريب أو بعيد .

لقـد عرفت اميركا مؤخراً شكلين من النضال المسلح كانا في حـد ذاتها استراتيجيتها السياسية الذاتية . اولهما ، وهو الارهب ، الحرب الأهلية الكولومبية التي اندلعت في ٩ نيسان ١٩٤٨ على أثر اغتيال الزعيم الليبيرالي غيتان ، والتي خلفت ٢٠٠٠٠٠ قتيـل حسبما تقول نشره رسمية ، و ٣٠٠٠٠٠ حسبما يقول الحزب الليبيرالي ، في مدى عشرة أعوام . فماذا تبقى من هـذا الخطب العظيم الذي بلغ مستوى من القسوة لا مثيل له في أي حرب أخرى ؟ بضـع مناطق للدفاع الذاتي الفلاحي كانت على وجه التحديد المناطق الوحيـدة التي حققت لنفسها ابان الحرب تنظيماً وقيادة سياسية (وبالتالي انضباطاً عسكرياً صارماً) . اما سائر البلاد فقد عرفت عنفاً فوضوياً لا هدف له غير الرد على عنف الحزب

الخصم (الليبيرالي أو المحافظ) ، بلا تنظيم ولا قيادة . لكن مسألة السلطة لم تطرح قط لا من قبل الشيوعيين ولا من قبل الليبيراليين الأكثر تقدماً . وقــد استمر الوضع على هذه الشاكلة حتى عام ١٩٦٤ أي حتى ظهور حركة ماركيتاليا التي اعطت نفسها تنظيماً واهدافاً ومراحل ، وبكلمة واحدة معنى . ان العفوية قد كلفت دماً كثيراً ، ومن المؤكد ان حركة ماركيتاليا الفلاحية إذا لم تتوصل إلى التحالف مع حركة جماهيرية في مناطق أخرى ، بالنظر إلى افتقارهـا إلى جهاز سياسي يشمل البلاد كلها، فإنها لن تستطيع وحدها مواجهة وطأة القمع.

اما الشكل الآخر من العنف الجماهيري – وهذا ما يثبت ان الارهاب ليس وقفاً على عفوية المثقف – فهو الموجة الارهابيـة التي اجتاحت الارجنتين ابان عام ١٩٥٩ ومطلع ١٩٦٠ : ارهاب انبثق عفوياً من قاعـدة النقابات العمالية ، البيرونية والشبيبة البيرونية احتجاجاً على خيانة فرونديزي ، وعلى توقيــع العقود البترولية ، والمطالبة بعودة الاتحـــاد العام للشغل إلى العمال (احتل العسكريون الاتحاد العام للشغل في عـام ١٩٥٥ ثم حلوه) ، وبعودة بيرون ، الخ . وبلغ عدد الاغتيالات بين ١٩٥٨ – ١٩٦٠ خمسة آلاف. لقد كانت حركة بالغة الاهمية ، لكن من عمل جماعات منعزلة ، أو ارهابيين فرديين ، دونمـــا رابطة ولا برنامـج ولا قيادة . وقـــد بدأت الحركة كشكل من اشكال دعم الاضرابات التي كانت غير مشروعة ، نذاك : كان المناضلون العمال يضعون قنبلة في مبنى مشروع رب العمل ليرغموه على الاغلاق او للثأر منـــه . ثم انتشرت بسرعة واصبحت نشاطاً يومياً دونما اهداف واضحة : قنابل في الشارع ، تحت سيارة ، على واجهة بناية اياً كانت . وفي النهاية تمكنت بعض جماعـــات من العمال الشباب من اعطاء اتجاه لموجة الاحتجاج العفوية هذه ، ووُضعت قنابل في مبـاني البعثات الامبرياليـــة ، والصندوق الثقافي البريطاني ، والمخابرات الاميركية الشمالية، لكن القمع البوليسي لم يجد مشقة تقريباً في اعتقال الارهابيين الذين لم يكن لهم أي تنظيم سري جدي . ان هذا الارهاب لا علاقة له بالطبع مع « الارهاب » الفنزويلي ، الموجه بصورة نظامية ضد البنية التحتية الاقتصادية

للامبريالية (انابيب النفط ، آبار البترول ، مخازن البضائع الكبيرة ، المصارف، البعثة العسكرية الاميركية الشمالية) . وهو يثبت مرة اخرى صحة تحليل لينين القائل ان الارهاب لا يمكن ابداً ان يستخدم كشكل للعمل السياسي نظامي ودائم ، بل فقط عند «الهجمة النهائية» ، وانه ليس متناقضاً في ذاته مع النضال الجماهيري في جو من اللاشرعية او القمع ، لكنه قد يصبح كذلك إذا لم يتطلع إلى تحديد نفسه سياسياً . لقد ادى الارهاب في الارجنتين بدءاً من ١٩٦٠ إلى هبوط في كفاحية الجماهير العمالية ، وإلى تباطؤ ملموس في الكفاح الثوري .

ان الحصيلة السلبية لهذه التجارب لا تنقض البتة ضرورة النضال المسلح المفهوم على انه ارفع اشكال النضال السياسي . انها تؤكد ، على العكس ، من جديد :

– أن تفتح البؤرة الريفية مرتبط بتحليل سياسي دقيق . ان اختيار زمن المباشرة في العمل ومكانها يفترض تحليلاً للتناقضات القومية ، مطروحاً بتعابير طبقية .

– أن البؤرة لا تستبعد النضالات الجماهيرية السلمية على صعيد النقابات والبرلمان والصحافة ، حتى وان كانت التجربة الفنزويلية تثبت ان اشكال النضال الشرعي مؤقتة ولا يمكن ان تدوم طويلاً بعد بداية النضال المسلح .

٣ – ان وجود حزب طليعي ليس مع ذلك شرطاً مسبقاً مطلقاً لاندلاع النضال المسلح . في هذا المجال اثبتت الثورة الكوبية انه إذا كان لا غنى في **المرحلة التمردية للثورة** عن تنظيم وقيادة سياسية حازمتين (٢٦ تموز) فمن الممكن الاستغناء عن حزب ماركسي – لينيني طليعي للطبقة العاملة . ولنكن اوضح ونقل : في مرحلة الاستيلاء على السلطة ، لأن تكوين حزب كهذا يصبح شرطاً لازماً لبناء المجتمع الاشتراكي . ان الكفاح من أجل التحرر الوطني ، على أساس معادٍ للامبريالية ، لا يمكن ان يقاد تحت راية الماركسية – اللينينية والطبقة العاملة ، ولا سيما في بلد مستعمر أو نصف مستعمر ، لأسباب واضحة منها : الضعف العددي للطبقة العاملة والمستوى الارستقراطي نسبياً لحياتها ،

والطابع القومي للنضال الناهض للامبريالية . امـــا الحزب فإنه سيتكون وسيصطفي اطاراته بطريق الارتقاء الطبيعي لنضال التحرير كما حدث في كوبا. وبعبارة أخرى، ان نظرية الحزب الطليعي التي تعارض بها « البؤرة » ـــ الحزب الذي يقال ان تشكيله يجب ان يسبق كل محاولة لحرب الانصار أو للنضال المسلح ـــ لا تبدو انها تتجاوب مع الواقع . وهـــذا واضح في الارجنتين حيث تتطلع جميع الجماعات والتجمعات والاحزاب اليسارية الثورية (باستثناء جماعة بورتانتيير و) إلى ان تتحول ، كل من جانبه ، إلى حزب طليعي للطبقة العاملة « المستلبة » من قبل الايديولوجية البيرونيـــة ، والمعادية في مجملهـــا للحزب الشيوعي : بسبب نزعته المتشنجة المناهضة للبيرونية التي قادته اكثر من مرة إلى التحالف مع الرجعية ضد البيرونية . لكن العقل بدون الجماهير والجماهير بدون عقل لا يشكلان تعارضاً جدلياً ، وقد ضن اليسار الارجنتيني بدعمه ، حتى المعنوي ، على « حركة انصار الشعب » ، لأنه وقف نفسه كلياً على مهمـة انجيلية هي الدخول إلى هذا المصنع أو ذاك بواسطة النشرات الماركسية لا غير.

٤ ـــ **ان التنظيم السياسي ـــ العسكري لا يمكن ان يرجأ . ولا يمكن ان تترك لتطور النضال بالذات مهمة بنائه .** ان الشروط التي رأت النور بعـد الثورة الكوبية ـــ تناقص اهمية عامل المباغتة بالنسبة للانصار ونمو التهيئة السياسية والعسكرية من جانب العدو ـــ لا تسمح في هـذا المجال ، كما يبدو ، بتجريبية مماثلة لتجريبية كوبا . ان البؤرة لا تستطيع بصورة عامة ان تبقى على قيـــد الحياة بدون جهاز للاتصال بين الريف والمدن ، لا لتأمـين الارتباط السياسي فحسب ، بل ايضاً للتموين بالاسلحـة والمال والرفد الآتي من العاصمـة أو من المناطق الاخرى ، وللتزود بمـادة الدعاية وبالقوت (ان اعتماد البؤرة بصورة مطلقة على موارد الجبل الغذائية اسطورة، وبخاصة في بداية العمل) ؛ ولا بدون تنظيم محلي ، ولو أولي ، لسكان الجبـــال (الضعفاء والمشتتين) وفي مناطق الاتصال بالخارج ، « الاراضي الواطئة » البالغة الاهميـة بالنسبة إلى خطوط التموين والاستعلام . وفي رأس الهرم نواة الجيش الشعبي المستقبل : قبضة من

رجال مطاردين ، في حركة وتنقل دائمين ، لتجنب تطويقهم من قبل العدو ولمضاعفة الاتصال بالسكان : هذه الحركية ستجعلهم يظهرون اكثر عدداً بكثير مما هم عليه في الواقع . ويقيناً ، ان هذا الهرم لن يكتمل قبل ولادة البؤرة ، وإلا توجب الانتظار ألفي عام قبل البدء بالثورة . ان الهرم ينبني من الطرفين ، من القاعدة والقمة ، وان هو إلا الصيرورة الجدلية لدماره واعادة بنائه على أساس أمتن. وتنظيم الاتصال بين الجبل – المدينة والمدينة – الجبل هو بلا ريب أكثر مظاهر التنظيم عرضة للقمع ، لأنه مرغم على العمل « لدى العدو » . وهذا ما يؤكد ضرورة التشديد على تهيئة وبناء هذا التنظيم الهرمي . ومن هذه الزاوية تمّ تقليص هامش الارتجال إلى حد كبير منذ ثورة كوبا .

٥ – في اميركا المتخلفة ، حيث الهيمنة للريف ، لا يمكن نشر الايديولوجية الثورية بصورة دائمة بين الجماهير إلا بدءاً من بؤرة تمردية .

غالباً ما تعارض حرب الانصار بفكرة وجوب تربية الجماهير الفلاحية اولاً، وتكوين الوعي السياسي لدى المستغلين قبل كل شيء . وهؤلاء المعارضون لا يقولون كيف، بل يقولون فقط ان ذلك واجب **كشرط مسبق للعمل المسلح.** والواقع ان المهمتين تشرطان احداهما الاخرى ، ولا يمكن الشروع بهما إلا سوية : لا «بؤرة» لا تتطلع إلى تكوين الفلاحين المجاورين سياسياً كهدف مباشر لها ، ولا حركات مطلبية ومنظمة للفلاحين إذا لم يدعمها النضال المسلح الذي هو السبيل الوحيد إلى حمايتها من الابادة عن طريق القمع .

من المؤكد ، في البيرو ، ان هيغو بلانكو قد قام في مدى بضع سنوات بنشاط عيني لتكوين نقابات فلاحية في وادي الكونفانشيون يفوق كل النشاط الذي قامت به الاحزاب اليسارية مجتمعة منذ ثلاثين عاماً . ففي مدى عامين تسجل ٣٠٫٠٠٠ فلاح هندي لأول مرة في حياتهم في نقابات دفاعية ، بتحريض من هيغو وقبضة من الاطارات. ولكن عندما قرر العمال الزراعيون والمزارعون في صيف ١٩٦١ ألا يدفعوا الريع للاقطاعيين ، استنجد هؤلاء بسلطة الدولة وارسلت قوات إلى منطقة الكوزكو . ولو أمكن لفلاحي الكونفانشيون ان

يقاوموا ، لما تخلفت المناطق المجاورة عن المبادرة الى العمل بدورهـــا . لكن الفلاحين لا يملكون أي وسيلة للمقاومة . ولقد كانت بضعة اعمـال فوضوية من جانبهم ذريعة كافية ليتدخل الجيش ويقمع الفلاحين بصورة جماعية . واستطاع هيغو بلانكو ، وهو رجل وحيد لا اقامة ثابتة له في المنطقة ، الافـــلات من المطاردات . وهكذا شعر الفلاحون انهم ذهبوا ضحية للخيانة : فما من انسان يدافع عنهم ضد الجيش . وبين الحياة والنقابة اختاروا الحياة : انهم سيدفعون الريـــع من جديد إلى الاقطاعي . وُهجر بلانكو لمصيره من قبـــل اعضاء منظمته النقابيه الذين اعتبروا ان بلانكو قد هجرهم . ان هذا الأخير لم يستطع الانتقال إلى مرحلة الحركة التمردية، بالنظر إلى افتقاره للسلاح والمال والاطارات، ولا سيما لدعم المنظمات السياسية القومية . وقد تمكن الجيش أخـيراً من اعتقال بلانكو ، في أيار ١٩٦٣ ، وهو ما يزال في انتظار محاكمته التي ترجئها الحكومة باستمرار خوف تجدد الاعلان عن « قضية بلانكو » . بيد ان مجهود بلانكو لم يذهب كله سدى. فلقد تشكلت نقابات جديدة، تتمتع هذه المرة بدعم الاحزاب الثورية ، وجرى احتلال الاراضي البور في أكثر من مكان ، ورفض الفلاحون ان يدفعوا ريعاً عنها للمالك . لكن يتبين بوضوح من تجربة بلانكو ان كل نضال نقابي وسياسي في دائرة نفوذ الاقطاع الزراعي ، وفي الشروط الراهنة من القمع الجسدي الوحشي ، يؤدي إلى تراجع (مؤقت في احسن الحالات) للنضال، ويثبط همم الفلاحين ، ويشوّه في نظرهم سمعة افكار التحرر الاجتماعي بالذات ، باعتبار انهم هم وحدهم الذين يدفعون تـكاليفه ولا يتحمل المحرضون نتائجه معهم.

والظاهرة نفسها تقريباً تلاحظ في الشمال الشرقي البرازيلي : فقـــد قامت الروابط الفلاحية ، منذ ان اسسها جولياو في عام ١٩٥٤[١] ، بنشاط تحريضي

(١) ان هذه الروابط ، التي تحولت الى اسطورة للتصدير ، لم تكن لها قط الاهمية السياسية التي تعزى اليها في أوروبا. ان غياب التنظيم والانضباط ، والمبالغة في تقدير اهمية الدور الثوري للفلاحين ، قد منعا الروابط من ان تتجاوز نفسها في حركة سياسية خالصة كما اراد لها جولياو في النهاية .

واسع . وقد حصلت على تحسينات هامة ، كوقف دفع الريع في بعض الاماكن وشمول القوانين النقابية لعمال قصب السكر في الساحل الذين حصلوا على حد ادنى إلزامي من الأجر ، بالرغم من ان هـذه الزيادة ترجع ايضاً إلى ارتفاع اسعار السكر في السوق العالمية بعد الحصار الذي فرض على التصديرات الكوبية. والواقع ان جولياو لم يهتم كثيراً بالأجراء الزراعيين . لكن بعد الانقلاب العسكري، ماذا حدث في الشمال الشرقي؟ عودة الاقطاعيين بالقوة، طرد اعضاء الروابط من مزارع قصب السكر . واغتيل المسؤولون عن الروابط وعُذّبوا ، ومنهم من أصيب بالجنون من شدة التعذيب. إن الاجر الادنى لعمال قصب السكر لم يمس بعد، لكن المسألة لا تعدو ان تكون أكثر من مسألة زمن. وبعبارة أخرى: انه الارهاب الابيض. ومن جديد يتلقى الفلاحون الضربات، وهم عزل من وسائل الدفاع . وليس من الصعب ان نتكهن بخيبتهم بعد موجة الامل الكبيرة .

والخلاصة انه لفعل مجرم وغير مسؤول دفع هذه الجماهير الفلاحية، المشتتة، الأمية ، المشدودة إلى ارضها بدون أي امكانية للهرب (وهي امكانية يتمتع بها المحرض السياسي القادم من مكان آخر) ، إلى نضال اجتماعي أو سياسي لا بد ان يتبعه قمع لا تستطيع مواجهته غير « البؤرة » المدربة والمعدّة . ان على الانصار ان يتراجعوا هم ايضاً أمام تقدم القوات ، لكنهم يستطيعون ان يستعلموا عن الجرائم التي تنزل بالفلاحين، وان ينتقموا لهم بعمليات خاطفة وعن طريق تصفية الضباط الذين تثبت محكمة فلاحية إجرامهم. ان حضورهم وحده، وان يكن بعيداً ، يولد الأمل من جديد في قلوب الفلاحين الذين سيشعرون بأنهم يتمتعون بحماية و « تغطية » .

ان الفلاحين الاميين ، المفتقرين إلى الصحف واجهزة الراديو ، والمتناومين منذ قرون في ظل « السلام الاجتماعي » للنظام الاقطاعي ، والذين تمتد إليهم يد البوليس الخاص والاقطاع بالاغتيال عند اول بادرة تمرد منهم ، لا يستطيعون الاستيقاظ والخروج من سباتهم وخمولهم ، ولا اكتساب وعي سياسي عن طريق التأمل أو التفكير أو المطالعة. انهم لن يتوصلوا إلى ذلك إلا عن طريق احتكاك

يومي مع رجال يشاطرونهم عملهم وشروط حياتهم ويحلون مشكلاتهم المادية . ان استرجاع قطعة صغيرة من الارض الخصبة من العدو الاقطاعي يفيد ، على صعيد الدعاية للاصلاح الزراعي ، اكثر من مئة منشور مصور عن سوفخوزات اوكرانيا . ان الشروط الموضوعية لحياة الجماهير الفلاحية في معظم البلدان الاميركية لا تسمح إلا بنمط واحد من الدعاية والتكوين السياسي : الدعاية عن طريق الوقائع ، عن طريق الممارسة العملية للفلاحين انفسهم .

٦ – ان ضرورة تبعية النضال المسلح لقيادة سياسية مركزية يجب ألا تؤدي الى انفصال الجهاز السياسي عن الجهاز العسكري . ان هذا الاستنتاج، المجرد في حد ذاته ، ينجم عن كثرة تجارب التمزق الذي وقع بين المقاومة الداخلية وبين قيادة سياسية مقيمة في المنفى ، او في عاصمة هي كالمنفى . ان تقسيم العمل بين منفذين وموجهين يبدو وكأنه إلزامي في البداية بالنظر إلى شروط النضال العينية . فالقيادة ترسل إلى الجبال جماعة من اعضائها المخلصين ، وتوجههم من بعيد ليمكنها التبرؤ منهم في حال فشلهم انقاذاً لشرعيتها : انه لموقف تقليدي في اميركا اللاتينية خرجت عنه الكاستروية كلياً . فلا وجود لحركة كاستروية في المجرد ، انما هناك قادة ثوريون في كل بلد ، يطبعون التنظيم بطابعهم الخاص ، بعد ان يكونوا قد قدموا براهينهم في نظر جميع المناضلين .

ان الازدواج يؤدي بسرعة إلى الانشقاق بين الداخل والخارج : فالمقاومون ينتمون عادة إلى الجيل « الكوبي » الجديد ولم يكتسبوا ردود فعل رجال السياسة الذين تعودوا على الحياة البورجوازية ، التي تشوه قيادة الاحزاب . ثم ان الفرق بين عالمي الحرب الثورية والنضال الشرعي سيخلق اختلافات سياسية لا يمكن التغلب عليها . والحال ان مركز الثقل السياسي سينتقل حتماً باتجاه مقاومي الداخل الذين هم على صلة مباشرة مع الشعب ومع العدو : فمن أين ستستمد قيادة الخارج سلطتها وعلى من ستمارسها ؟ لقد استنكر قادة المقاومة الداخلية في غواتيمالا الموقف الذي اتخذه الحزب الشيوعي الغواتيمالي في اجتماع الاحزاب الشيوعية لاميركا الوسطى ، التي وضعت بياناً خروتشفياً بتأييد

التعايش السلمي . ولما كان ممثلو الحزب الشيوعي الغواتيمالي يعون انهم لا يمثلون غير انفسهم ، فقد اضطروا إلى سحب توقيعهم. إذن من الخطأ ان نتصور ان القادة الثوريين المنفيين إلى كوبا أو إلى البلدان الاشتراكية « يأمرون قواتهم بطريق البرق». فهم اذا ارادوا ان يحتفظوا بشيء من الصفة التمثيلية، مضطرون إلى الارتباط بقادة الداخل الجدد وإلى التقليل من التصريحات اللاهبة . اما الآخرون فإنهم سيشكلون الزبائن المألوفين للمؤتمرات الدولية ، الذين تنشر الصحافة تصريحاتهم « المبدئية » .

ان اخطار الازدواج تخشى من الجانبين . فهناك خيانة « السياسيين » لكن هناك ايضاً تخبط « العسكريين » السياسي الفوضوي . ويبدو ان العلاج الوحيد لهذه الاخطار هو الموقف الكاستروي القائل باندماج القيادة السياسية والعسكرية، والمشابه للتقليد البولشفي ، ولا سيما الصيني .

٧ – ان التأطير السياسي للنضال المسلح غير قابل للتحقيق إلا في الريف. وهذا معناه انه لا وجود لحرب انصار مدينية كشكل نظامي للنضال الثوري.
اننا نعرف حجج شي غويفارا غير القابلة للدحض في هذا الخصوص : فما دام على البؤرة ان تهاجم اضعف حلقات السلسلة ، فعليها بالتالي ان تتجنب المناطق المدينية باعتبارها اقوى حلقات السلسلة ، اي حيث تتمركز جميع اجهزة الدولة القمعية والادارية ، وحيث لم تبلغ التناقضات الاجتماعية اوج انفجارها ، وحيث تندمج الفئات الاكثر حرماناً بالمجتمع . مع العلم بأن الهجرة الريفية إلى العواصم قد خلقت وضعاً اجتماعياً انفجارياً ، يستفحل عاماً بعد عام ، ويستعصي على الطبقات السائدة حله عاماً بعد عام : في ليما وحدها يعيش ٦٠٠و٠٠٠ في اكواخ من الطين على ضفاف الريماك . وفي كاراكاس يعيش ثلث السكان ، ٣٥٠و٠٠٠ ، في الـ « Ranchos » ، وهو حزام من التلال يحيط بالمدن وتتشابك فيه الازقة والساحات والممرات والاسطحة ، ولا يجازف فيه البوليس او البورجوازي حتى في الأيام العادية . وفي كل عام يقدم ٧٠و٠٠٠ فنزويلي إلى كاراكاس ، ويستقر نصفهم أو اكثر في هذا الحزام . ان هذا الواقع الاجتماعي – الاقتصادي

هو الذي يفسر لمَ امكن ان يتطور في فنزويلا ، لأول مرة في تاريخ اميركا الجنوبية ، شكل استثنائي لحرب الانصار : حرب الانصار المدينية . وقد كان الـ « Ranchito » القاعدة الأساسية لعملياتها وتجنيدها . وكان هدف هذه الحرب القيام بأعمال تخريبية في المنشآت الامبريالية ، وكذلك القيام ليلاً بهجمات مسلحة على قوى القمع لإضعافها وتقسيمها وتهديم معنوياتها وحصرها في كاراكاس. لكن هذه الحرب لم تطل اكثر من بضعة اشهر . ويبدو ان العمليات توقفت بناء على امر من « القوات المسلحة للتحرير الوطني » . فلماذا ؟

ان حرب الانصار المدينية لا تملك خيار الزمان والمكان. فالانصار مرغمون على العمل ليلاً (الاضاءة في الاكواخ ضعيفة جداً) لأسباب عدة : مزيد من الأمن للمقاتلين ومزيد من الأمن للسكان ، إذ ان الشوارع المقفرة تؤدي إلى سقوط عدد اقل من الضحايا البريئة (التي تسقط مع ذلك لأن الرصاص يخترق جدران الاكواخ الخشبيه أو الكرتونية). ان الليل يسمح للقوات الشعبية بالاستفادة إلى إلى اقصى حد من مزاياها : معرفة الميدان ، الحركية ، صعوبة استخدام الاسلحة الثقيلة بالنسبة إلى العدو . وبالمقابل فإن طلوع النهار يسمح بتفتيش المنازل والثأر الجماعي . اما بالنسبة إلى اختيار المكان ، فإنه يكاد يستحيل على الجماعات المسلحة الانتقال إلى المدينة (الشوارع الكبيرة مراقبة بصرامة) لمباغتة كتيبة عسكرية . والعملية تنطوي على اخطار فادحة ، نظراً لأن طريق الانسحاب يمكن قطعه بسهولة . اذن فمن الواجب جذب قوات القمع إلى التلال ، خارج ميدان عملها الطبيعي . والحال انها فهمت ، خلال اشهر ، طبيعة الفخ ، ولم تعد تتحرك ، تاركة لجماعات الانصار المسلحة السيطرة على التلال ليلاً .

اذن فحرب الانصار المدينية لا تستطيع ان تتحول، على الصعيد العسكري، إلى حرب انصار متحركة ، ولا إلى حرب نظامية . والانصار المدينيون لا يستطيعون حماية انفسهم بالانسحاب ، نظراً إلى انهم لا يملكون قاعدة ثابتة تسمح لهم بتطبيق مبدأ الانصار الريفيين : « عضّ واهرب » . ان غياب هذه القاعدة الثابتة يعني ايضاً غياب قاعدة اجتماعية واقتصادية متينة : فإذا لم يستول

التمرد المعمم دفعة واحدة على السلطة ، فلا اصلاحات جزئية قابلة للتنفيذ في الأرض المحررة . وإذا كان النصير « مصلحاً اجتماعياً » ، فما يمكن اصلاحه في المدينة ؟ وبالتالي ما السبيل إلى اجتذاب الجماهير الواسعة ؟ ان الجماعات الصغيرة التي يمكن ويجب ان تتشكل منها حرب الانصار المدينية (من ٤ إلى ٦ اشخاص) لن يستطيع ابداً ان تتوصل إلى تشكيل نواة **دائمة** ، متمركزة ، **منضبطة** ، ومدربة على الحرب الكلاسيكية وعلى استخدام الاسلحة الثقيلة . وبالاختصار ، ان الانصار المدينيين لا يمكن ان يتحولوا إلى جيش نصير ، وكم بالاحرى إلى جيش شعبي نظامي قادر في النهاية على مواجهة الجيش الرسمي القمعي ، هدف كل « بؤرة » .

ان هذا الانعزال المفروض على الانصار في المدن يمثل خطراً جدياً على تسييسهم ، وبالتالي قد يؤدي إلى قيامهم بأعمال فوضوية ، غير منظمة ، معاكسة للخط العام لجبهة التحرير الوطني . ان المقاتل الشاب في بؤرة ريفية يتكون سياسياً بأسرع بكثير من النصير المديني . ذلك انه إذا كان كل شيء يرجع بالنسبة إلى هذا الأخير إلى سلسلة من عمليات « بطولية » معزولة ، عن سياقها ، عليه قبلها وبعدها ان يعاود الانغماس في الجو المألوف للحياة المدينية (مع كل « السهولات » التي عوده عليها المجتمع القديم) ، فإن النصير الريفي يظل على احتكاك دائم مع العالم الخارجي ، ومع الفلاحين والطبيعة، ولا يشكل عمله العسكري الصرف سوى لحظة أو تفصيل من حياته . وبعبارة أخرى : ان العمل المديني متقطع ، وكل عملية تكفي نفسها بنفسها بالنسبة إلى النصير المديني . فإذا كان عاطلاً عن العمل ، وبالتالي عنصراً دائماً في التنظيم ، فإن أمنه يتطلب منه ان يستأنف ، بعد العملية ، الحياة السوية بقدر المستطاع (الذهاب إلى السينما أو المقهى ، التنزه ليراه الناس) حتى العملية القادمة . وإذا كان له عمل نظامي ، فإنه سيستأنف في صباح اليوم التالي حياته في المصنع أو المكتب، معاوداً الاندماج نهاراً بالعالم الرأسمالي الذي قاتل ضده ليلاً .

ان من خصائص البؤرة الريفية ان تعمل على خلق واعادة خلق شروط

حياتها باستمرار : وسيكون ذلك في المرحلة الاولى والاطول من النضال نشاطها الأساسي ، لا المعركة العسكرية التي يتوجب عليها على العكس ان تتجنبها . الزرع ، الصيد ، القطف ، الجني ، وباختصار القيام بأود الذات، وهذا بالاصل عمل منهك وبطولي في الادغال الاميركية . ان البؤرة الريفية على تماس مباشر، دونما وسيط ، ومع مجتمع منطقة العمليات ومع المادة : عن طريق تنظيف ركن من غابة ليمكن زرعه ، وعن طريق العمل المشترك في الارض ، والصيد، الخ . ان هذه الشروط المادية تقود بالضرورة البؤرة إلى ان تصبح بروليتارية معنوياً ، وإلى ان تحول ايديولوجيتها إلى ايديولوجية بروليتارية . ان البؤرة ، سواء أكان اعضاؤها فلاحين أم بورجوازيين صغاراً ، لا يمكن ان تصبح شيئاً آخر غير جيش من البروليتاريين . ولهذا كانت حرب العصابات تحويلاً عميقاً للرجال ولأيديولوجيتهم ، ولهذا ، على سبيل المثال،كان ذلك التفاوت السياسي في كوبا بين قادة الجيش الثائر وقادة المنظمات المدينية الذين لا يمكنهم ان يتصوروا ان تسير الثورة بمثل تلك السرعة باتجاه الاشتراكية ، مع العلم بأن تكوينهم السياسي والاجتماعي الاصلي واحد : « مثقفون بورجوازيون صغار ثوريون » . وكذلك الحال في فنزويلا : فمن ينتقل من النضال المديني إلى النضال الريفي يشعر بتغير في المناخ الانساني ، في نوعية التنظيم ، وحتى في التحليل السياسي . ان جميع الانصار يعلمون في هذا الوقت **ان الحرب ستكون طويلة ويجب ان تكون طويلة**، في الشروط الراهنة لميزان القوى، « لأننا لا نتطلع إلى الاستيلاء على السلطة بعملية انتحارية ، لنخسرها في ٢٤ ساعة . اننا لا نستعجل ، لكننا لن نتراجع ايضاً بالنسبة إلى اهدافنا » .

ان التحول السريع للبؤرة الريفية إلى بؤرة بروليتارية قد علم المقاتلين الثقة بالنفس والتواضع . ومن المستحيل تقريباً ان يتطور في بؤرة ريفية ، نواة الجيش الشعبي ، ميلٌ إلى النزعه العسكرية وإلى الايمان بأن كل شيء منوط بالنجاح العسكري . كذلك فإنه يصعب على الرومانسية ان تجد هنا تربة خصبة للترعرع . ان المقاتل الريفي يربي نفسه ليل نهار باحتكاكه مع العالم الخارجي .

اما النصير المديني فيتجه إلى الحياة في **وسط بجرد ، لأن عليـه ان يتجرد من وسطه الطبيعي** (المدينة ، العمل النظامي ، الاصدقـاء ، النساء ، الخ) من أجل أمانه وأمان التنظيم . وإذا كان العالم الخارجي المباشر — حقـل الذرة ، مزرعة الموز التي تخص أسرة فلاحية مجاورة، غدير الماء الخ — بالنسبة إلى الاول مصدر الحياة بل الوسيلة الوحيدة الممكنة للبقاء على قيد الحياة، فإن العالم الخارجي سيكون دوماً بالنسبة إلى الثاني قوة عليه ان يقاتل ضدها بوصفها العدو رقم ١، الباب المنفرج في كل لحظة ليدلف منه الموت أو الاعتقال . لذا فعليه ان يرتاب في الاشخاص (وفي الاحياء والشقق والهواتف والجموع التي تسير على الرصيف والتي يختبىء بينها على الارجح جاسوس ، الخ) الخارجيين عن التنظيم ، فمنهـم يأتي خطر التسرب والالتهاء وعدم الحذر والتراخي المعنوي . العزلة الضروريـــة ، ضعف العلاقات الانسانية ، الصمت ، الحجر على الذات ، هذا كله يجد رمزه في الليل ، اللحظة الممتازة للعمل المديني. في حين ان المقام الريفي لا يميز تقريباً بين النهار والليل لأنه يعيش نهاره وليله في الغابة ، أي لا في النهار ولا في الليل ، بل في الظل ، حيث لا شمس ، الظل الفاتر الحامي ، الذي يحجب الطابور ليل نهار عن انظار طائرة الاستكشاف أو العيون . ان المقـام الريفي لن يستخدم ابداً على سبيل المثال دروب الجبل المطروقة ، بـــل هو يقطع اشجار الدغل ويشق طريقه الخاص، في حين انقوات العدو النظامية مضطرة إلى طرق الدرب المرسوم سابقاً ، فيسهل بالتالي نصب الكمائن لها أو مراقبة تحركاتها . لكن مهما تكن شوارع ضاحية المدينة متشابكة ، فلا بد من المرور بها ، فيسهل بالتالي على دورية القمع ترصد حركة الانصار . وبقدر ما أن التطويق في الجبل مستحيل ، نظراً إلى كثرة الصخور والاشجار والمغارات والدروب ، يسهل تطويق ضاحية المدينة بسد منافذها . ان هذا ليس إلا مثـــالاً بسيطاً على كثرة الاخطار التي تتعرض لها جماعة مسلحة سرية في المدينة .

والخلاصة ان الشروط المادية لعمل الانصار المدينيين (عزلة المناضلين الذين يجتمعون قبل ٢٤ ساعة من العملية التي يجهلون طبيعتها حتى اللحظة الأخيرة ،

واستخدام الاسماء المستعارة داخل التنظيم ، واستحالة عقد اواصر الصداقة ضمن نطاقه ، والجهل الالزامي بشخصية المسؤول الذي يصدر الاوامر ، الخ) تساهم في تكوين نمط معين من السلوك والفكر المجردين قد ينتهي إلى النزعة الارادية أو الذاتية . ان الشروط المادية ، التكنيكية ، لحرب العصابات المدينية ، غير قابلة للفصل عن المضمون السياسي لعملها ، هذا صحيح ، لكنها تنعكس مباشرة عليه .

ان التشتت البالغ للجماعات المسلحة يجعل تنسيق الاعمال ورقابتها صعباً . ان المبادهة التكتيكية تخص المناضلين . ولأنهم سريون ، فإنهم غير مسؤولين عن اعمالهم إلا أمام قيادات التنظيم الأعلى منهم ، لا مباشرة أمام الفلاحين وأسرهم كما هي الحال في بؤرة ريفية . لكن إذا كانت اشكال العمل المديني هي اكثر اشكال العمل سرية ، فإنما في المدينة ايضاً يكون للعمل اكبر صدى ممكن في الخارج ، وهو بالتالي معرض إلى اقصى الحدود للتشويه على يد الدعاية العدوة الفائقة القوة ، بما تملكه من صحافة واذاعة الخ . ولذا فقد صدرت الاوامر للفدائيين الفنزويليين بعدم استخدام اسلحتهم إلا عند الضرورة القصوى ، وبتسديد النار إلى الأقدام ، إذا امكنهم ، حتى يجرحوا ويخرجوه من المعركة ، لا ان يقتلوه . وبالتالى فإن الأوامر الصادرة إلى القوات العدوة قاطعة : القتل والتعذيب . والجماعات المسلحة معرضة في المدينة إلى أخطار الإبادة المادية اكثر بكثير مما في الجبل ، نظراً إلى كثرة أعداد قوات القمع في المدينة . ولذا فإن على المناضلين ان يقتلوا حتى لا يموتوا . ولما كان المصدر الاساسي للتموين بالسلاح هو العدو نفسه ، لذا فإن المناضلين مطالبون بتجريد قوات الامن من اسلحتها . لكن ما يحدث إذا قاوم الشرطي أو الجندي ؟ هل يقتله المناضل ، أم يتركه يقتله هو ؟ والحال انه كلما قتل شرطي على هذا النحو ، صورت صحافة العدو واذاعته هذه العملية بأنها « جريمة اغتيال » ، في حين تعجز صحافة الانصار السرية عن إحباط هذه الدعاية . اما في الجبال فإن العدو عاجز عن ممارسة دعاية كهذه .

وقد لوحظ في كاراكاس ، خلال صيف ١٩٦٣ ، عـدد معين من الاصابات بـ « عصاب الحرب » بين الانصار المدينيين ، فاضطرت قيادة « القوات المسلحة للتحرير الوطني » إلى اعفائهم من مهامهم . وبذلك تكون اعصابهم قد قهرتهـم قبل ان يقهرهم القمع المادي. ومن مظاهر هذا العصاب الانحطاط ، وثبوط الهمة المتناوب مع هيجان محموم ، والرغبة في استثارة العدو للتحرر من القلق الكامن ومن النواهي التي يفرضها العمل السري الطويل الأمد . وهذا النمط من العصاب يؤدي في النهاية إلى ازدراء الحيـاة ، وإلى العمليات الانتحارية ، وإلى شكلية العمل من أجل العمل . وهذا هو وضع كل عمل سري ، مهما يكن .

ان هـــذه الملاحظات يجب ألا تنسينا في الوقت نفسه ان حرب الانصار المدينية في فنزويلا لم تقع في النزعة الفردية المستهدفة الحياة الشخصية لهذا العدو السياسي أو ذاك . لقد كان الهدف الرئيسي للعمليات الجيش ، وكذلك المنشآت الاقتصادية الامبريالية. وإذا كانت لفظة الارهاب تطلق على العمل الفردي الذي لا صلة له بتطور حركة ثورية ولا بتنظيمها ولا بأهدافها ، والذي لا يعي الشروط التاريخية والذاتية للجماهير ، فإن العمل المديني لقوات التحرير الوطني كان من هذه الزاوية ابعد ما يكون عن الارهاب، بل كان بعيداً عنه بقدر ما كان القمع الحكومي قريباً منه .

٨ – ان الجـــدال الراهن حول برنامج الثورة – أثورة ديموقراطيـــة بورجوازيـــة ام ثورة اشتراكية – يطرح مشكلة زائفة ويعرقـل الالتزام بالنضال العيني لجبهة موحدة مناهضة للامبريالية . ان الجدال حول طبيعـــة الثورة هو اليوم من الاسباب الرئيسية لانقسام المنظمات الثورية . وعلى وجـه الاجمال تعارض الاطروحة التروتسكية النزعة عن الثورة الاشتراكية المباشرة ، بدون مرحلة تمهيدية ، بالاطروحـــة التقليدية التي تقول بهـا بعض الاحزاب الشيوعية من الثورة الزراعية المضادة للاقطاع ، بمساعدة البورجوازية الوطنية ، وفي الواقع تحت قيادتها . وبين هاتـين الاطروحتين يرى الكثيرون ان الثورة صيرورة غير محدودة ، « بدون مراحل » قابلة للانفصال ، وانهـا إذا كانت لا

تنطلق بالضرورة من مطلب اشتراكي فلا بد ان تقود إليه في النهاية: وتلكم النهاية هي ، على ما يبدو ، تعاليم الثورة الكوبية . لكن هذه الثورة تعلم ايضاً ان عقدة المشكلة ليست في البرنامج الاولي للثورة ، لكن في كونها حلت عملياً مشكلة سلطة الدولة قبل المرحلة الديمقراطية البورجوازية لا بعدها. ان كوبا لم يمكنها ان تصبح دولة اشتراكية إلا لأن السلطة السياسية كانت في يد الشعب لحظة انجاز الاصلاحات الديموقراطية الوطنية. ان تحليلاً سريعاً للرأسمالية الاميركية – اللاتينية يبين لنا كيف انها ارتبطت عضوياً بعلاقات الانتاج الاقطاعية في الريف : ففي كولومبيا تتجه الارباح الصناعية إلى اعادة توظيف نفسها في الأرض ، والأسر الصناعية هي ايضاً الأسر الاقطاعية الكبيرة . وهذا ما يفسر أنه ما من بورجوازية وطنية في اميركا اللاتينية حققت اصلاحاً زراعياً حقيقياً يفترض فيه انه يوافق مصالحها من حيث انه يرفع الطاقة الشرائية في السوق الداخلية ! وخلاصة القول ان المرحلة الديموقراطية البورجوازية تفترض في اميركا الجنوبية انجاز تدمير جهاز الدولة البورجوازية ، وإلا فإن الانقلاب العسكري المألوف محكوم عليه بأن يكرر نفسه ابداً . إذن فالجدال الذي لا يني ولا يكل عن طبيعة الثورة لا يفيد إلا في قسم الحركة الثورية وفي اخفاء المشكلة التي تشرط كل المشكلات الاخرى عن الجماهير ، نعني مشكلة الاستيلاء على السلطة واقصاء الجيش ، سيف داموكليس الذي لن يكف لحظة عن محاولة تحطيم اندفاع كل حركة جماهيرية .

وإذا كان قد اصبح من الصعب للغاية ، **بعد كوبا** ، دمج قسم هام من البورجوازية الوطنية في جبهة مضادة للامبريالية ، فإن هذه الجبهة يمكن ويجب ان تظل الهدف رقم ١ . لكن هذه الجبهة لا يمكن ان تتكون ، على ما يبدو ، إلا في ممارسة نضال ثوري ، وهي تتطلب وجود طليعة فاعلة لا تستطيع في أي حال من الاحوال ان تنتظر تكوّن هذه الجبهة نهائياً على الورق حتى تشعل النضال المسلح . ولعل هذه هي مفارقة الكاستروية الكبرى : طابعها الجذري (التطلع إلى استلام السلطة) وفي الوقت نفسه غير المتحجر مذهبياً (لا يمكن

لأي حزب أو لأي شخص ان يحتكر الثورة) . وبديهي ان المفارقة لا تعود مفارقة عندما تُتخذ الممارسة معياراً ومرجعاً أساسياً لـ « الحقيقة » . والواقع ان في اميركا اللاتينية ارتباطاً قديماً بين اصلاحية بعض الاحزاب الشيوعية وبين عزلتها : فهي تطالب باستمرار بتكوين جبهة قوية لكنها عاجزة عن تحمل مسؤولية تحالف حقيقي لأنها تفتقر إلى خط وإلى تنظيم مستقل قوي . وإذا ما تذكرنا خطاباً لكاسترو القاه عام ١٩٦١ بحضور زوار اميركيين ، ظهرت لنا فكرتان تحددان المفهوم الكاستروي لجبهة التحرير ، فكرة « البدء » ، اي المبادهة الواقعية المحدثة انقطاعاً على صعيد النضال السياسي والتزاماً بالنضال المسلح فكرة ، «الممارسة الاصطفائية » اي اصطفاء التحالفات والتسويات الضرورية لمتابعة النضال . وبعبارة اخرى : إن الثورة تستطيع ان تعطي نفسها عند نقطة الانطلاق « برنامج الحد الادنى » للنضال ضد الامبريالية ، المستند إلى مطالب عينية لها صلتها بالوضع الفلاحي أو العمالي أو البورجوازي الصغير ، والمشابه لبرنامج مونكادا الذي كان راية حركة ٢٦ تموز . وعندما تستهلك كل امكانيات النضال الشرعي ، ينبغي تدشين الحرب الثورية على اوسع أساس ممكن « يحتل فيه الكاثوليكي المخلص نفس المكان الذي يحتله المناضل الماركسي القديم » . وممارسة النضال ، التي لا يمكن تحديدها سلفاً بل فقط عن طريق عيشها (إذن لا داعي لمناقشات نظرية لا متناهية عن كيفيات الثورة الزراعية المقبلة ، مناقشات لا تفيد إلا في إحداث الفرقة وتأخير تحقيق الشروط العينية لتطبيق الاصلاح الزراعي الخ) ، ان ممارسة النضال تلك هي التي ستتكفل بإعادة توزيع التحالفات السياسية والاجتماعية ، بوأدها البعض وخلقها تحالفات جديدة . وبعبارة اخرى : ان الاسئلة العينية التي تطرحها الممارسة على الثوريين ستقود إلى اجوبة جديدة من جانبهم . وكل مرحلة من مراحل النضال لها نظامها الخاص من الاسئلة والاجوبة ، الذي يتولد عن الطريقة التي حلت بها اسئلة المرحلة السابقة ، ولا فائدة البتة من الرغبة في استباق ممارسة الجبهة الموحدة بقسمها حول اسئلة قد لا تنطرح حتى عندما يحين موعدها . وان أي بادرة ، أي رفع لمستوى

النضال من أجل السلطة ، أو لمستوى النضال بعـد استلام السلطة ولمستوى أهداف العمل الحكومي ، لا يمكن ان يتم إلا إذا جاء ليلبي طلباً تاريخياً او ليسد نقصاً تشعر به الجماهير عن وعي . وبديهي ان كل هذا التصور سيسقط في الانتهازية إذا لم يكن حجر الزاوية الذي ينطلق منه هو وجود طليعة متجانسة ، مخلصة ، متشبثة بهدفهـا النهائي ، لا يشلها اي تمذهب متحجر ولا أي نموذج مسبق ، ومستعدة لطرق الدروب غـير المتوقعة لبلوغ هدفها ، ومتمرسة ومصطفاة عن طريق الممارسة الفعلية : طليعة ضمانتها هي « البؤرة » .

هـذه الثقة الموضوعـة في القيمة الجذرية لممارسة « البؤرة » التي تولد قادة واطارات الحزب المستقبلة ، وحقلها النظري الخاص ، ألا يمكن ان تكون تكريماً لاشعورياً من الكاسترویة لماضيها السابق الخاص الذي تجاوزته الاحداث وإن لم تنكره ؟ ان مـا يسمى بالكاسترویة هو ، تاريخياً ، عمـل ثوري تجريبي صادف في طريقه الماركسية ، فوجد فيهـا حقيقته . « العكس هو ايضاً صحيح : فالكاستروي المستقيم يعتبر الماركسية نظرية التاريخ بررها واكدهـا تاريخه الخاص . هل هذا الالتقاء جديد ؟ كلا : فقبل ٣٥ عاماً ، في سنة ١٩٣٠ ، صادف « بطل » ثوري كبير آخر ، هو لويس كارلوس بريستس ، الذي بلغ اوج الشهرة بمسيرة طابوره الطويلة (٣٠،٠٠٠ كم قطعها في مدى ثلاثة أعوام في قلب البرازيل ألف رجـل كانوا يقاومون كل جيوش القمع التي اطلقت في اثرهم) ، اقول صادف هو الآخر الاشتراكية العلمية فوجد فيها حقيقته . وإذا كان قـد نسب إلى الماركسية ، كما فعل كاسترو وبنفس الدوي ، اسطورتـه كـ « فارس للأمل »[1] ، إلا انه جرد هذه الاسطورة ، بالحركة نفسها ، من كل قيمـة جدلية : فبيان ١٩٣٠ ، الذي وجهه إلى الشعب البرازيلي من بيونس آيرس حيث كان منفياً ، ينكر ماضيه واسطورته واصدقاءه ونزعته القوميه ، ويقترح إنشاء فورياً لسوفييتات عماليـة في ساو باولو . ان انتماء بريستس إلى الماركسية ، في

---

(١) رواية مشهورة للكاتب البرازيلي جورج آمادو . روى فيهـا التاريخ النضالي للويس كارلوس بريستس . « المترجم »

عصر لم تكن فيه الإشتراكية بعد قد دعمت مواقعها في العالم ، كان ايضاً علامة قطيعة بريستس والحزب الشيوعي البرازيلي مـع الواقع البرازيلي ، وهي قطيعة ما تزال جراحها دامية بالرغم من الانتصارات الشيوعية الانتخابية الكبيرة بعد الحرب : وفي الوقت نفسه رحل بريستس إلى موسكو حيث غرق بين الدواليب الادارية للأممية الثالثة . إن مثل هذا التماسّ بالماركسي هو صدمة كهربائية مميتة وليست تجاوزاً . وبالمقابل فإن ما يعطي الثورة الكوبيــة قوتها هو غياب القطيعة بين ما هي عليه الآن بوصفها اشتراكية ، وبين ما كانته بوصفها قومية . والشيء نفسه بالنسبة إلى « الكاسترويه » : لأنها لم تنفصل عن جذورها التاريخية ، والاميركية ، احتلت مكانها داخل الماركسية ، وإلى جانب اللينينية. ان فيدل كاسترو لم ينكر قط اصوله ولا ما فعله ، بل اعاد تفسير مساره الثوري السابق غير الماركسي بتطويله وتحويله من الداخل. وإذا كان ٢٦ تموز ما يزال عيد الثورة الكوبية ، فهذه علامة مميزة للكاستروية ولسيرها باتجاه الاشتراكية : ان الزوار الذين يقدمون من انحاء العالم قاطبة إلى الهافانا في ذلك اليوم للاحتفـال بالنصر الاشتراكي يحيون في الواقع ذكرى « مغامرة » ، ذكرى هجوم حفنة من الثوار على مونكادا ، استنكره في حينه جميــع « الماركسيين الصالحين » في القارة الاميركية [1] . واذا ما امعنا النظر في هذا ، فقد نجد فيه حدثاً هو من اكثر

---

(١) لنذكر هنا بما كانه هجوم مونكادا : ففي ٢٦ تموز ١٩٥٣ ، في سانتياغو بكوبا ، هاجم ١٥٠ رجلاً غير مسلحين بما فيه الكفاية ، بقيادة فيدل وراؤول كاسترو ، حامية مونكادا العسكرية . واخفق الهجوم : فالجماعة الافضل تسليحاً ، ٥٠ رجلاً ، وصلت متأخرة عـن الموعد المحدد بسبب ضياعها في شوارع سانتياغو . وادى القمع الذي تلا هذه الحركة إلى مقتل جميع الذين شاركوا في الهجوم تقريباً . وقد افلت فيدل ، الذي اعتقل بعد زمن قصير ، من الموت بطريق الصدفة ، وجعل من مرافعته في المحكمة وثيقة اتهام معروفة اليوم باسم « التاريـخ سيغفر لي » . وقد كانت الفكرة ، بعـد الاستيلاء على الحاميـة ، توزيـع الاسلحة على الشعب ، وتحويل الاوريانت إلى ارض محررة ، ودعوة سائر البلاد إلى التمرد العام : وقـد علقت « إل سيغلو » ، صحيفة الحزب الشيوعي الشيلي ، على الحدث على النحو التالي : « لقد وقــع الشعب الكوبي ضحية عدوان جديد للامبريالية اليانكية . فقد وقع في ذلك البلد هجوم من حاميــة عسكرية ، فيه كل خصائص المؤامرات التي يعدها وينفذها ببرود عملاء وول ستريت، لتدعيم =

احداث الثورة الكوبية جدة وباعثاً على البلبلة : نعني التكريم الذي تضفيه في كل عام ، كما لو انها في بدايتها المطلقة ، على تلك الفضيحة النظرية والتاريخية التي كانها هجوم مونكادا .

هذا إذن ما يعطي تاريخ الثورة الكوبية وتطورها الدائم شحنة تربوية تفوق اهمية ، بالنسبة إلى القارة الاميركية ، عشرة مجلدات مفصلة ومجتمعة عن الماركسية . ان الثورة الكوبية ، برفضها الانشطار إلى مرحلتين متمايزتين ، وطنية ديموقراطية واشتراكية، تسمح بإنارة السبيل أمام المطالب القومية النزعة وبتطويرها ، تلك المطالب التي تنبثق هنا وهناك من انحاء القارة ، والتي تتهمها وجهات النظر المتمذهبة المتحجرة بأنها مطالب « ديموقراطية بورجوازية » واشكال « مشوبة غير صافية » للعمل . ان الكاستروية لا تدين هذه المطالب ، ولا ترمي بها إلى المطهر « البورجوازي الصغير » البائس ، بل على العكس تقدم لها كل عون ، لأن حاملي تلك المطالب إذا كانوا مخلصين مصممين فلا بد في النهاية ان يوجهوا اصبع الاتهام إلى الامبريالية الاميركية وان يكتشفوا طريق الاشتراكية . ان الكاستروية، بكشفها للجميع عن ان النزعة القومية الاميركية اللاتينية تستلزم الاطاحة النهائية بالدولة نصف الاستعمارية ، وبالتالي تدمير جيشها واقامة الاشتراكية ، تستحق تعريفها بأنها « نزعة قومية ثورية » ، من غير ان يستهلك هذا التعريف اصلاً كل مضمونها .

هناك سبب آخر يفسر الاولوية التي تعطيها الكاستروية للممارسة الثورية ، عندما تكون صادقة وديناميكية ، على لافتاتها الايديولوجية : ألا هو اليقين بأن ديناميكية النضالات القومية ، في الشروط الخاصة لاميركا الجنوبية ، لا بد

= مركز الحكومات الهزيلة في السلطة عندما تبدأ موجة الاستياء الشعبي بالصعود» «إل سيغلو»، ١ آب ١٩٥٣ ، إمضاء كارلوس روزاليس ، عضو اللجنة المركزية » . ومن المؤكد ان هجوم مونكادا كان تكتيكاً خاطئاً جزئياً، لكن ليس من المؤكد بالقدر نفسه انه كان مناورة يانكية ! لكن الشيء الذي نحن اكيدون منه هو ان الاصلاحية متحجرة مذهبياً بطبيعتها، نظراً إلى انها منفية من التاريخ الواقعي .

ان تقود تلك النضالات إلى الانتماء للماركسية . وبخـــلاف الحروب المناهضة للاستعمار في آسيا وافريقيا ، فإن النضالات الاميركية للتحرر القومي قد سبقتها تجربة ولو محدودة للاستقلال السياسي . وفي مثل هـذه الحال فإن النضال ضد الامبريالية ليس جبهياً ، في البداية ، ضد قوى الاحتلال الاجنبي، بل يمر بالحرب الاهلية الثورية . ومن هنا تكون القاعدة الاجتماعية أمتن ، والايديولوجية اوثق تحديداً وأقـل تعرضاً للتأثيرات البورجوازية . وإذا كان النضال الطبقي ، في آسيا وافريقيا، يمكن ان يختلط أو يؤجل، نظراً إلى ضرورات الجبهة القومية، إلى غداة التحرير ، فإن النضال الطبقي والنضال القومي في اميركا الجنوبية يجب ان يسيرا جنباً إلى جنب . ان طريق الاستقلال يمر فيها بتصفية الطبقة السائدة عسكرياً وسياسياً ، تلك الطبقة المرتبطة عضوياً بالدولة المتروبول بحكم مصالحها الاقتصاديـــة .

ان النزعة القومية الثورية أو « الكاسترويه » التي ترفع لواءهـــا المنظمات الجديدة المناضلة في اميركا الجنوبية منذ ثورة كوبا لا يمكن ان تشكل ايديولوجية خاصة . وهذا ما يميز الكاسترويه عن النزعات القومية المضللة التي سبقتها . ان الطبيعة الطبقية التي تكتشفهـا في جذور المطلب القومي واثناء حرب التحرير تضع حداً للموضوعة القومية المتخذة كهدف للخطابات وكأسطورة سياسية . إذن فما الصلات التي تقيمها الكاسترويه مع القوميات – الايديولوجيات ؟ هناك عدة صلات : لنأخذ اولاً مثال النزعة القومية البورجوازية التي تطالب بالتنمية الصناعية القومية وببناء الدولة القومية عن طريق القوميـــة صناعة ثقيلة وحماية تجارية . ان علاقتها بالكاسترويه هي مثل العلاقة بين الرأسمالية والاشتراكية ، بالرغم من ان واضعي هذه الايديولوجية معجبون بكوبا بوصفها البلد الوحيد الذي نجح في تصفية الاقطاعية التي يحلمون هم ايضاً بالتمكن من مهاجمتهـا ذات يوم . وكذلك تتميز النزعة القومية الثورية عن « الحكومـــة القومية والديموقراطية » التي تطالب بها معظم الاحزاب الشيوعية في برنامجها : فهي مرتبطة عضويـــاً بالمطلب الاشتراكي وتستهدف تحويل سلطة الدولة عن طريق الاستيلاء عليهـا

وتحطيمها تحت شكلها البورجوازي . ان النزعة القوميـة الكاسترويـة ، بخلاف النزعة القومية التي تقدمهـا الاحزاب الشيوعية عادة ، ليست دفاعية ، بـل جذرية. لذا فهي تضع في مصاف الاوهام غير المجدية المطالب الجزئية والتسويات والمصالحات التي يمكن ان تصدر عن « حكومة قوميـة » محتملة تحاول تحقيق الثورة بقفزات صغيرة « من غير ان تلفت الانظار » . ومن هنا فإن مناهج عملها ستكون مغايرة . فهي لن تحصر نفسها طويلاً في الدعاية الانتخابيـة ولصق الاعلانات والاجتماعات على مستوى القمة مع الاحزاب السياسية الموجودة ، بل ستهيء ايضاً شروط عمل مباشر وهجومي مسلح من قبل الجماهير . العلاقة إذن مع الكاسترويـة هي كالعلاقة بين الاممية الثانية والثالثة .

ولأن الكاسترويـة ليست بأيديولوجية ، فهي ايضاً ليست عنوانـاً ، ليست طليعة مكونـة ، ليست حزباً ، أو جمعية متآمرين مرتبطة بكوبا . ان الكاسترويـة ليست إلا الصيرورة العينية لولادة الماركسية – اللينينية من جديد، بدءاً من الشروط الاميركية اللاتينية وبدءاً من « الشروط السابقة » لكل بلد . ان الكاسترويـة ، أو اللينينية المعاد اكتشافها والمتلائمة مع الشروط التاريخيـة لقارة كان لينين يجهلها ، هي في سبيلها للانتقال إلى واقع الاستراتيجيات الثورية في اميركا اللاتينية . وانه لن يكون لها ابداً ، بين بلد وآخر ، الوجـه نفسه : فهي لا تستطيع الانتصار إلا إذا باغتت . ولهـذا فلنتمنَّ حتى ان تختفي كلمة « الكاسترويـة » بالذات .

« الازمنة الحديثة »
كانون الثاني ١٩٦٥

التولياتيّة

بقلم : جان بول سارتر

اني اجنبي [1] ، بيد انني أحس بحداد ايطاليا وكأنه حدادي . وهذا مـــا يظهر بدون ادنى ريب حظوة توليياتي الدولية . لكن هناك شيئاً آخر : إن من يلتقي بمسؤولين من الحزب الشيوعي الايطالي، خارج بلادهم ، بين ممثلي الاحزاب الشيوعية الاخرى ، يدرك على الفور تفرد حزبكم : انه حزب محبوب . ولقـد فهمت في النهاية أن ما ُيحبّ فيـــكم اولاً – بعيداً عن كل مسألة شخصية – هو توليياتي . ولما كنت لن اتكلم إلا عن تجربتي وحدها ، فسأقول انــه لم يكن هو اول من رأيته . لقد كان اصدقائي الشيوعيون الاوائل – اعضاء الوفد الايطالي إلى مؤتمـــر فيينا – يتميزون عن الآخرين بحرية الكلام ، وبصحو الفكر ، وبسخرية خفيفة تجاه انفسهم ، لا تحجب عن الانظار لا مجاهرتهم ولا اخلاصهم. كان الآخرون من حولهم يستشهدون كثيراً بماركس . وما كانوا هم يستشهدون به : بل كانوا يطبقون مبادئه ومنهجه ، لا على البورجوازية فحسب ، انما ايضاً على تاريخ حزبهم وتاريخ البلدان الاشتراكية ، بحزم .كانت الماركسية بين ايديهم تصبح ما يجب ان تكونــه : مجهوداً هائـــلاً وصابراً للبحث ، ويمزج الممارسة بالنظرية ، وتأملاً دائماً في الذات . لقد رفضوا دومــــاً ان تفلت المجتمعات الاشتراكية والاحزاب الشيوعية – بما فيها حزبهم – من التأويلات الماركسية ، متجنبين بذلك تلك الغلطة الطبيعية لكن الثقيلة الوطء بالنتائج التي جعلت اولاد فرويد ، في ذكريات طفولتهم ، يخضعون جميـع الناس للتحليل النفسي باستثناء والدهم . كنت مفتوناً . كنت اقول في نفسي : هي ذي الروح الايطاليه . كنت أنسب حرية فكرهم إلى تقاليد ذلك البلد الذي رأى مجداً كثيراً وحداداً كثيراً،

---

(١) : نشر هذا المقال ، تحت عنوان « بالميرو توليياتي » في صحيفة « يونيتا » اولاً غـــداة وفاة توليياتي . « المترجم »

والذي يحتفظ ، وهو في أوج همته ، بذكرى الكثير من الامجـاد الغابرة . لم اكن مخطئاً ، بمعنى من المعاني ، لكن التفسيرات بواســطة الماضي ليست بذات قيمة إذا لم نضف إليها التفسيرات بواسطة الحاضر والمستقبل . كان الحزب الشيوعي الايطالي هو ايطاليا . لكن عندما قابلت تولياتي ، فكرت : ايطاليا هي تولياتي . انه يحافظ عليها ، يحملها ، يغيرها . هو رجل الجميع ورجـــل بلاده ، الحافظ لحزبه من كل دوغمائية ، وقائده بصبر وحزم إلى الاشتراكية .

في اول مرة شاهدته فيها – كان ذلك، ان لم اكن مخطئاً ، في تموز ١٩٥٩ – أذهلني شيء مـــا : كنت معتاداً على تصنع زعماء الاحزاب ورؤســاء الدول وتحرسهم ، المبرر تمامـــاً في غالب الاحيان . ودعاني إلى العشاء في مطعم في تراستيفيري وجاء اليه بمفرده ، مع صديقي أليكاتا وغوتوزو، وشخصين أو ثلاثة آخرين لا يمكن للمرء ، مع احترامي لهم ، ان يحسبهم غوريلات . مع انه قبل ستة اعوام بالضبط أو تقريباً ، اطلق عليه مواجهة شاب مجنون من اليمين المتطرف ، دفعت به إلى الجريمة تحريضات الصحافـة البشعة ، ثلاث رصاصات اوصلته إلى عتبة الموت . ومع ذلك فإن هذا الانسان الذي بعث من الموت كان هو الذي أتى للقائي بخطى وئيدة مرنة ، منفرج الاسارير . كان هو الذي اخذ مكانه في ذلك المطعم الرصيفي الذي تعج بالاجانب ، وبإيطاليين معادين بـــلا ريب . كانت سانتا ماريا دبل تراستيفيري آنذاك ساحـــة غريبة : في عرض الطريق فقراء ، غالبيتهم من الشبان ، واولاد ؛ وفي مقهى من المقاهي ، زال من الوجود مذ ذاك ، امهات يحملن اطفالهن ويرضعنهم ولا يرجعن قبـل منتصف الليل إلى غرفهن القارية ليجنبنهم جو الشقق الرومانية الخانق . بضع سيارات نادرة ، باهظة الثمن وجسيمة ، تحمل شعار الولايات المتحدة الاميركية . وفي أبهاء المطاعم ، اغنياء . في ذلك الحين لم يكن التعايش بـــين الاغنياء والفقراء مستحيلاً . فقد كان يُغض النظر عن اولئك النهمين الذين يأكلون على ضوء مصابيح صغيرة ، على نغم موسيقى معزوفة برتابة واغانٍ متكلفة العذوبة ، مـع شعور مبهم بمشاركة العامة حياتهم . انني لا اتخيل هذا عندنا . ومع ذلك فإن الصراع

الطبقي في ايطاليا لا يقل قسوة ، واحياناً يزيد، لكن ليست له الصفات نفسها. والسائح ، الذي يستهلك محلياً البضائع المعدة للتصدير ، يقع ضحية السخرية والاحتيال ، لكنه يحترم . وأجلسنا تولياتي على الرصيف ، وفي البدء لم يتعرف احد هذا الرجل بملبسه البورجوازي الصغير ، ووجهه الناعم ، الباسم ، وحركاته الطلقة لكن المطبوعة بمسحة من الحياء . ثم ، على حين غرة ، بينما كانت تحمل الينا المعجنات ، كان الانقضاض . كان مورافيا قد قال لي وهو ينظر إلى لولو بريجيدا تمر، في شهر حزيران من عام ١٩٥٢ : « حتى تكون للمرء مثل هذه الشهرة ، فلا بد ان يكون نجماً سينمائياً » . اني ارى الآن انه كان مخطئاً : فتولياتي لم يكن نجماً سينمائياً ، انما كان رجلاً كالآخرين ، ويشارف على الستين . لكن الجموع كانت تطوق المطعم : يا لها من عيون ! عيون فقدت صرامتها . وكنت اقرأ فيها حناناً . وبدأ بعضهم ثم الجميع بالهتاف : « تولياتي ! عاش تولياتي ! » . وراح الزبائن الاجانب يتساءلون بقلق : اي عمود من اعمدة الفوروم ، اي نصب انتصب على حين بغتة في وسط تراستيفيري ! كان الايطاليون منهم يعرفون ما الأمر : فكانوا يتكلمون بصوت خافت ، وبشيء من الضيق . وإذا كان تولياتي قد سره ان يتحقق مرة أخرى من شعبيته ، فانه لم يظهر شيئاً من ذلك . كان يتكلم ، وكان على الأخص ، بأدبه الجم وفضوله الحاضر ابداً ، يسألني عن فرنسا ويصغي إلي . كان مغني المطعم ، وهو منحنٍ على عجوز سويسرية زرقاء الشعر ، يدمدم بأغنية نابولية . وسمع الصياح ، فاستدار واقبل علينا ، شاحباً من الأنفعال ، وقال : « رفيق تولياتي ، انني عضو في الحزب » . واخرج محفظته وأظهر بطاقته بفخر : « ماذا تريد ان اغني؟ » فقال تولياتي : غننا اغاني رومانية قديمة » . وفعل ذلك . ولسوف اذكر دوماً احداها – رجعية بدون شك :

بدارِ ! بدارِ
المغاربة نزلوا من السفن
غاريبالدي عند ابواب روما

كان توليـاتي يصغي باسماً ، متحمساً عفوية هـذه الاغاني اكثر من تحسسه مضمونها . ففي الازمان التي كان فيها البابا سيد رومـا ، اخترع بشرٌ ذلك . بشر : كان هذا يكفيه . انه لم يدن احداً قط قبل ان يسعى اولاً إلى فهمه . كان الجمع يرافق المغني بصيحاته الصم لكن المليئة بالأمل . وفهم اخيراً اولئك الذين كانوا يتناولون عشاءهم . ما اغربه من مشهد: هذا الأكول الرابط الجأش، الباسم ، المحاط بدائرة صغيرة من الكراهيـة ، وإلى أبعد ، بنصف دائرة من الحب . وبدأ القلق يساور مائدتنا : إذا صدر عن الاغنياء تحدٍ مـا ، فسوف يُجتاح المطعم ، وينشب العراك . وكانت تلك هي بالضبط اللحظة التي اختارها اميركيان ليصفرا . صفرتان ، يخنقهما الخوف . لكنهما سُمعتا من الخـارج ، وتعالت زمجرة . وطلب اليه اليكاتا وغوتوزو بحزم ان يغادر المكان : « إذا لبث ، فسيقع شر » . واصغى اليهما ، ونهض مكدر المزاج، وامتنع عن الكلام في السيارة التي حملتنا . كنت ارى امامي رجلاً غاظه ان يحرم من الحقوق التي لسائر البشر . ولقد رأيته منذ تلك الحادثة مراراً عدة في المقاهي الرومانية . وأذكر ان ابنته بالتبني جاءت ذات مـرة تحيي سيمون دي بوفوار التي كانت تتناول العشاء معي . كانت قد قرأت كتبها . ورفعت رأسي : على بعد مترين كان تولياتي يتناول عشاءه، مطمئناً، مديراً ظهره للشارع بصحبة امرأة ورجلين. لمَ هذا العناد المتواضع لكن الذي لا يقهر ؟ ان جميع مسؤولي الحزب الشيوعي الايطالي يفعلون الشيء ذاته ، وهم الذين ساعدوني على معرفة روما . لكن هو ؟ كان يغامر بجلده. لا من قبيل التحدي ولا من قبيل المكابرة : فالنضال السري وحرب اسبانيا قد اتاحا له اكثر من مناسبة ليبرهن على شجاعته ، وهو بالتالي ليس بحاجة إلى إظهارها . كلا : لقد فهمت رويداً رويداً انه يريد ان يكون في آن واحد قائد حزبه وانساناً بين الناس . وهذه ، إذا ما صدقتموني ، طريقة بين ألف طريقة أخرى (يتمتع بها جميعاً اصلاً) ، قد تكون اقلها فاعلية لكن اكثرها عفوية ، لعدم الانفصال عن الجماهـير . لقد كان تولياتي ، هو المثقف والامين العام للحزب الشيوعي الايطالي ، اقول كان ويريد ان يكون رجل

شارع . انني لأذكر تلك النادرة عن لينين ، عندما كان يذهب على قدميه إلى الحلاق وينتظر دوره وهو يقرأ جريدته : كان آنذاك — ومنذ زمن ليس ببعيد — رئيساً للاتحاد السوفياتي . وكان هناك، في كل مكان تقريباً ، من يرغب في موته ، والدليل انه أُطلقت عليه النار وانه لم ينهض قط من جراحه . ان هذا السلوك النموذجي لم يقتد به احد ، على حد علمي ، غير شخصين : فيدل كاسترو وتولياتي .

لهذا اولاً احببته . ولقد رأيت مذ ذاك رؤساء آخرين . ومررت ، حتى اجتمع بهم في مكتبهم ، بين صفوف من الشرطة والغوريلات . انهم يجيدون الكلام لكنهم وحيدون : انني لم اصادف قط ، لدى اي منهم ، ذلك الحب البسيط والقوي للشوارع المكتظة ، للجماهير . انهم يخاطبونها من عالٍ ، من بعيد ، وتنشرح صدورهم إذ يرون ، إلى ما لا نهاية ، ذلك الكافيار الاسود ، رؤوس المستمعين . لكنهم لا يدخلون فيها ، وينفرهم ان يصبحوا حبة بين الكافيار . ولقد كان تولياتي يحب الناس حتى هذا الحد : كان يكلمهم هو ايضاً من فوق منبر ، فتلك كانت وظيفته . لكنه كان يدخل في الجموع كلما استطاع ذلك . كانت تحمله وتؤرجحه . كان يحب حياة المدينة العامرة بقدر ما كان يحب عزلة الجبال . ولم ينفصل عن الجماهير قط. ان هذا الحب — الذي استطيع ان افهمه لأنني أتشاطره — كان اكثر بكثير من تكتيك ، كان شيمة من شيم طبعه . والنتيجة : ٢ مليون مناضل مسجل و ٨ ملايين ناخب . لقد فهمت الجماهير انها ، بتصويتها له ، تصوّت لنفسها . وعندما اطلقت النار عليه عام ١٩٤٨ ، قذف الغضب بالجماهير إلى الشارع ، ضد الشرطة والجنود ، وخيل للحكومة ان الارض انشطرت تحت قدميها .

ان حزبه على صورته . عندما كنت ارى على جدران سان جيمينيانو — وحتى على جدران الكنيسة — اعلانات تدعو جميع الناس بلا تمييز إلى عيد الـ « يونيتا » ، وعندما كنت اكتشف ، في قلب مدينة ايطالية صغيرة ، في ساعة القيلولة ، رجلاً مسناً متناوماً على عتبة باب ثقيل مفتوح على مصراعيه على

قاعة فارغة ، واقرأ فوق رأسه « مركز الحزب الشيوعي » ، كنت افهم المدى السياسي لما كان في البدء سمة شخصية . ان الحزب لا يحرس نفسه : بـل يضع ذاته تحت حماية الشعب. وقد يكون يجازف بذلك بالتعرض إلى محاولات النسف بالقنابل : وبالفعل وقعت مثل هذه المحاولات لكن بنسبة اقل من اي مكان آخر . إلا انه لا ينعزل بنفسه عن الأمة ، ويحرم اعداء الشيوعيـين من الحق بوصفه انه « انفصالي » . ولا ريب في ان فرصة الحزب الشيوعي الايطالي القاسية هي انه كون نفسه – مقابل اي تضحيات ! – في النضال السري ضد موسوليني وظهر في نظر سائر المناهضين للفاشية كحركة مقاومـة قومية ضد الفاشية التي كانت تقود الأمة إلى الدمار. ولم يكن آنذاك لا ستالينياً ولا مناوئاً للستالينية: فقد كان الاتحاد السوفياتي بعيداً ، وكان الموقف في ايطاليا يأتي في المقام الاول . لكن ما اعظم الانفراج ، بعد المؤتمر العشرين ! وهل فهم احد ، خـيراً من تولياتي، ان حزب الشعب يجب ان يعيش في اتحاد مع الشعب، وان دروس حرب الانصار يجب ألا تصبح نسياً منسياً يوم تنتهي ؟ ان الحرب الشعبية لا تنتهي مع السلم : انها الشكل الممتاز للصراع الطبقي ، والطريقة الوحيدة ، المتاحة لحزب شيوعي ، كيما يكون امميا هي ان يرتفع بوحدته مع الامة إلى اسمى آفاقهـا . ومن هذه الزاوية يمكن القول – ولقد قال لي تولياتي ذلك بنفسه ذات يوم – ان « الطريق الايطالي إلى الشيوعية » كامن بصورة اولية في النضال ضد الفاشية . فمنذ ذلك الوقت كان الحزب الشيوعي الايطالي يقاتل بمفرده، ولم يكن يستطيع لا الاستفادة من المعونة السوفياتية ولا اتباع نصائح الكومنترن : فالشيء الوحيد الذي كان عليه ان يحسب حسابه هو تحالفه مع سائر المناهضين للفاشية ، وميزان القوى الداخلية المتأرجح . قال تولياتي : « الناس لا يفعلون ما يريدون ، بـل يفعلون ما يستطيعون» . لكن الاستطاعة تحدد الكينونة. كان الحزب يستطيع ويتوجب عليه ان يحرر الامة من موسوليني : ولهذا السبب اصبح حزباً قومياً . قومي لا ذو نزعة قومية[١] : فقد افاض تولياتي في شرح فكرة ان تعدد المراكز

(١) « National et non nationaliste ».

هو الطريق الوحيد إلى الوحدة . ولو قبل الحزب بأوامر خارجية – وان تكن صادرة عن اتحاد جميع الاحزاب الشيوعية – لجازف بالانفصال عن المجتمع العيني الذي يعيش فيه ، لأن مثل هذه الاوامر صعبة التكيُّف مع كل موقف خاص . ان شموليتها بالذات هي التي تدينها. صحيح انه لا بد من وجود مبادىء مشتركة وهدف عام ، لكن يتوجب على كل حزب ان يصل إلى هذا الهدف ، انطلاقاً من تلك المبادىء ، كيفما استطاع ذلك . ان اللوم الذي امكن ان يوجه في بعض الاحيان إلى الاتحاد السوفياتي وإلى نزعته الارادية ، استطاع تولياتي ان يتجنبه كلياً : « الناس يفعلون ما يستطيعون » . وهذا لا يعني انه كان قدرياً . فحقل الامكانات محدود ، بالتأكيد ، لكن يمكن للمرء ان يختار ، وعندما كان تولياتي يختار ، كان يتمسك باختياره هذا بحزم ، بملء ارادته ، من غير ان يتراجع بوصة واحدة ومن غير ان يعدل . بيد ان هذا الفكر الحي والرحب كان يريد، قبل الشروع في اي شيءكان ، ان يتمعن في كل الممكن وان يختار بهدوء. يقال انه تمتم ، في عام ١٩٤٨ ، وهو على الفراش الذي ظُن انه فراش موته : « لا مغامرات ، يا رفاق ، لا مغامرات ! » . وفي تلك اللحظة كان مدٌ بشري يجتاح ايطاليا، ويحمل في تياره كل شيء. وكان يعلم ذلك او يخمّنه تخميناً. لكنه كان يعلم ايضاً ان الحكومة ، بعد لحظة الذعر الاولى ، سترد وستستنجد بالجيش . وكان لا بد ان يفشل التمرد الشعبي لأن العدة لم تعد له ، ولأنه كان نزوة من نزوات الحمية العاطفية ولم يكن مشروعاً مدروساً . والفشل انما كان يعني الارهاب وعشرة اعوام من التأخر في الحركة العاملة المقصومة الظهر . انه هو الذي اوقف على فراشه ، غضبة عاصفة لم تغب بعد عن ذاكرة الصناعيين والسياسيين . وكان ذلك البرهان الاكبر على شعبيته ، والبرهان الاكبر على فطنته . لكنه كان على الاخص البرهان الاكبر على انه ما كان يريد ان يزج بالبلاد في النار والدم. ولقد اعترف له الجميع تقريباً – بما فيهم اعداء الشيوعية – بالجميل وحسن الصنيع على هذا الاعتدال . كان يريد أن تكون ايطاليا غير ما هي عليه ، بنظام آخر وبنى اخرى . لكنه ما كان يريد – كما قيل ذلك غالباً –

ان يرمي بايطاليا في مغامرة قد تندثر بعدها . ومنذ ذلك اليوم اصبح الحزب الشيوعي ، القوي المطمئن ، حزباً قومياً من غير ان يكون قد تقصد ذلك . كان يُتهم ، بالتأكيد – كما يتهم غيره في البلدان الاخرى – بأنه يتلقى اوامره من موسكو ، لكن هذه التهمة لم تكن صادرة من القلب ، ولم يكن أحد يؤمن حقاً بأن تضامن الشيوعيين الايطاليين العميق مع بلد الثورة يذهب إلى حد التبعية . لقد مرت لحظات صعبة ، بلا ريب ، وكان لا بد من التزام الصمت فيها . لكني كنت في روما في تشرين الثاني ١٩٥٦ ، عندما كان متمردو بودابست يوصفون في البلدان الاخرى بأنهم فرساويون وفاشيون . ورأيت شيوعيين . وقرأت الـ « يونيتا » يومياً : لم اكن اشاطرهم وجهات نظرهم ، ولم اكن استطيع الايمان بضرورة التدخل الروسي . لكنهم كانوا بالنسبة إلي إخوة : كان غوتوزو قلقاً مبلبلاً ، اكثر مني بالذات . وكذلك كان تولياتي بلا ريب . ولم تشتم الـ « يونيتا » المقهورين قط : كانت تصوّر التمرد المجري على انه كارثة قومية ، وكانت تدعو الغالبين ، وهي تدعم التدخل ، إلى تجديد البناء بصورة تستحيل معها عودة اعمال العنف تلك . وفيما بعد ، عندما افتتحت السوق المشتركة ، كان تولياتي هو الذي فتح عيون السوفييت ، المحاطين بنصّاح ارديا ، وبين لهم قوتها واخطارها الحقيقية . وهو الذي عارض ، اخيراً ، قدر طاقته ، ادانة الحزب الصيني ، بالرغم من أنّ هذا الاخير اتخذ منه مرمى لهجماته ، وبالرغم من انه كان يشاطر موسكو افكارها عن سياسة بكين : هكذا كان حزبه القومي والحر – الحر لأنه قومي – يفعل كل ما في وسعه لإنقاذ الصداقة الاممية .

ان الوحدة ، على ما اعتقد ، هي الكلمة – المفتاح لفهمه . لكن هذا الرجل الانساني والطيب ما كان يريد ان تفرض من الخارج : لا على حزبه من قبل هيئة دولية ولا على مناضليه من قبل سلطة عليا مفصولة عن الجماهير . كان اسلوبه فريداً وكبير الفعالية : فقد رأيته يخاطب مناضلين ما كانوا دوماً على اتفاق معه . لم يكن يصبح رئيسهم إلا بتبنيه تناقضاتهم ، وبحلها في وحدة شخصه وحده ، حائلاً بذلك دون انفجار النزعات ودون تصادم الجماعات المتنافسة . لقد روى

لي احد الاصدقاء هذه القصة : كان على خلاف في الرأي مـــع بعض مفكري « ريناسيتا » ، فتناول الغداء ذات يوم مع تولياتي واخـــبره بذلك . ودحض تولياتي ، واحدة تلو الأخرى ، حججه ، وغادره من غير ان يهتز في نفسه وتر. وبعد مدة من الزمن عقد اجتماع لمحرري « ريناسيتا » والمسؤولين عن الثقافة . وايد الخطباء الأوائل وجهة نظر تولياتي نفسها . فطلب صديقي الكلام ليرد . فنهض تولياتي وقال له : « إذا لم تكن ترى من مانع ، فسوف اتكلم اولاً » . واستمع اليه صديقي، مذهولاً، وهو يتبنى معظم الاعتراضات التي كان قد دحضها قبل اسبوع. وباختصار، انه الآن تولياتي ضد تولياتي. وختم كلامه بتوجيهه اللوم إلى صديقي وإلى بعض الآخرين لأنهم لم يعلموه بالمسألة قبل ذلك الحين . ان هذه القصة تثبت – لكن هل ثمة من حاجة إلى ذلك ؟ – ان تولياتي كان يعرف كيف يصغي ويفكر . لقد كان من ذوي الرؤوس الصلبة ، ولم يكن يحب ان يخطّىء نفسه . وكانت حركته الاولى تجاه من يماحكه هي شن هجوم مضاد ، ثم ، عندما تنتهي المحادثة ، كان يتابعها بينه وبين نفسه ، ويزن موضوعيـاً المع والضد، ولا يخشى – هذا شيء نادر لدى مسؤول – في بعض الحالات من تخطئة نفسه . والواقع انه لم يكن يسمح لأحد غير نفسه بإقناعه ، لكن كان يحدث ان يقنع نفسه ضد قراراته الاولى ، انطلاقاً من اعتراضات صاغها الآخرون . واني لأفضل هذا على احتمال استسلامه من الوهلة الاولى : فهو بذلك يجمع بـين قوة الشكيمة وحرية الفكر . لكن ما يشدهني على الاخص هو انـــه كان اول من تكلم ، فاتهم نفسه ، هو القائد ، متبنياً المآخذ المنطوقة ، مجرداً صديقي سلفاً من كل سبب للتدخل اللهم إلا ليعلن : « انني أصفّ إلى جانب رأي تولياتي » . ولو كان صديقي تدخل ، من شدة سخطه ، لخلق لنفسه اعداء. واصدقاء ايضاً، على ما أفترض . ولكانت الثقافة أصبحت ميداناً مغلقاً تتواجه فيه جماعتان من الانصار . ولما كان في وسع القائد ، حتى لو تكلم بعـــد ذلك وصوب رأي احدى الجماعتين ، ان يوفـّق بينهما . فعند اول مناسـبة كان الصراع سينشب من جديد ، وعلى نحو اقسى. لكنه ، بصياغته الانتقادات من تلقاء نفسه ، وبتحويله

إياها إلى انتقادات ذاتية ، كان يحمل كل شيء على عاتقه ، ويصبح في وسعه ان **يقرع** معاونيه من غير ان يذل احداً ما دامت ضرباته تصيبه هو نفسه اولاً . ثم انه كان يوحد اسباب الجميع في تركيب بارع ومؤقت يسمح بالتخفيف من حدة النزاع ، وبترك المسألة مفتوحة ، وبختم النقاش في آن واحد . امـــا القرارات النهائية فكان يحتفظ لنفسه بحق اتخاذها بعد ان يكون النزاع قـــد نضج او تلاشى . إن من يغادر الحزب او يطرد منه ، في بـلدان اخرى كثيرة ، يصبح وكأنه مهان حتى الموت . معنوياً واحياناً مادياً : ذلك ان قيادة الجماهـــير لا تتفق إلا بصعوبة بالغة مع احترام الشخص . وقد كان تولياتي يعرف كيف يجمع بين الشيئين : فالمبعدون – ولقد كان هناك بالتأكيد مبعدون ، لكن بنسبة اقل مما في البلدان الاخرى – لا يفقدون شخصيتهم يوم لا يعود الحزب راغباً فيهم . انهم يظلون على قيد الحياة . والنادرة التي رويتها تبين الاهتمام الذي كان هـــذا المسؤول عن حزب تعداده مليونا عضو يخص به كل واحد منهم : فقـد كانت قاعدته عدم التحطيم ، عدم الإذلال . وبسببه يستطيع الشيوعي الايطالي ان يتباهى بأنه انسان كامل . اما انا فغالباً مـا شعرت ، ازاء التهذيب الذي كان يسألني به عن بلد يعرفه بقدر ما أعرفه ، بأن في انتباهه احتراماً للانسان الذي يعرض عليه افكاراً صادقة ومعاشة ، مهما يكن شأنـه . وكذلك بأن افكاره الخاصة بـه متكونة لكن معلقة ، وبأنـــه يحتفظ دوماً بالأمل في ان يساعده مخاطبه ، حتى من غير انتباه ، في إخراجها للنور ، وفي تغييرها عند الضرورة . لقد شاهدت يوم دفنه ، بالقرب من مركز حزبه ، كلمة « واحـــدي الخط » « monolitne » مرسومة على جدار ، بيد احد الفاشيين الشباب بلا ريب . ولقد كنت سأبتسم ، لو كان لدي الاستعداد النفسي : لم يكن احـــد بعيداً عن « وحدانية الخط » مثله ، ومن ثم حزبه . لقد عرف كيف يجمع بـــين صفتين يصعب الجمع بينهما ، احداهما يجب ان تكون للقائد المسؤول والثانية لا غنى عنها للمثقف : فهو لم يكن يكوّن فكرة من غير ان تكون حاملة بذرة نقدها الذاتي ، ومن دون ان يتردد في العمل ومن دون ان يشكك البتة في المبادىء والمنهـــج

الهدف . ولهذا السبب كان غالبية الكتاب على علاقة طيبة دوماً مع الحزب . ان ايطاليا، بخلاف فرنسا التي يشكل فيها المثقفون المحافظون أو الرجعيون قوة حقيقية بعامل التقاليد ، لا تعد الكثير من المثقفين اليمينيين . لقد جذبت الشيوعية سائر الآخرين . ومعظمهم لم ينتم إلى الحزب لكنه يخوض معه معظم النضالات. وهكذا – وكان يجب ان يكون الأمر وكما لم يكن دوماً – فإن حزب المستغلين هو ايضاً حزب الذكاء. ولهذا السبب قلت له ذات يوم: « ان ايطاليا ، بخلاف فرنسا ، تملك خير الصحف اليسارية واسوأ الصحف اليمينية » . وهذا ايضاً يعود الفضل فيه اليه . فعندما اسس « ريناسيتا » بعد الحرب احتج بعض الشيوعيين : ان الحاجة ماسة إلى اعادة البناء والكفاح ، فما ضرورة مجلة نظرية؟ ان عشرين سنة من الفاشية قد خلفت آثارها حتى لدى الذين حاربوا موسوليني بأكبر ضراوة : فقد كانوا يؤمنون بالطلاق بين الفكر والعمل . ولم يستسلم تولياتي : فقد كان له تناقضه ، تناقض بالغ الخصوبة . ففي زمن حرب اسبانيا عرف الايطاليون والاسبانيون مواهبه كمنظم . لكن رجل العمل هذا بقي حتى اطراف اصابعه مثقفاً . ولا ريب في انه وضع ثقافته وفهمه الكبير كاملين في خدمة الجماهير الظمأى . لكنه لم يخفف قط من غلواء كراهيته للتعميمات والتبسيطات . كان يتبنى عبارة ماركس « نحن لا نريد ان نفهم العالم ، بل نريد ان نغيره » ، لكنه كان يضيف اليها – وهذا ما لم يكن ماركس ليستنكره – أن تغييره هو الطريقة الوحيدة لفهمه لأن العمل يسلط الضوء على ما هو كائن بدءاً مما سيحدث . ان المرء عندما يقرأ كتاباته وخطاباته ، يلفي هذه الكلمة التي تتكرر مئة مرة : **جديد** . ان كل شيء **جديد** دوماً بالنسبة اليه ، وفي كل موقف يرى اولاً الجديد ، اللامتوقع . ان فترة ما بعد الحرب ستشهد ظهور « ordine nuovo » التي يعمل فيها مع غرامشي ، والفاشية تقترح مهام جديدة ، وهي في حد ذاتها رد فعل لا سابق له للبورجوازية . وجديدة هي الحرب العالمية الثانية ، وجديدة هي مشكلات صعبة ما بعد الحرب الثانية ، وجديدة هي في النهاية المشكلات التي ولدت من الاحتكارات ومما يسمى خطأ

بـ « المعجزة الايطالية » . وفي كل مرة لا بد من التلاؤم والفهم . لا بـــد من استخدام المنهج الماركسي حتى نهايته : اجل . انه المنهج الوحيد الصحيح . اما الزعم بأن ماركس توقع كل شيء ، وانه لم يتغير شيء منذ « البيان الشيوعي » ، وأما النجاة بالنفس ببضعة استشهادات ، فلا . لقد قال في مكان ما انـه ينبغي تعميق التحليل ليشمل كل التفاصيل ، وانه ينبغي عدم إهمال أي شيء ، واننا لن نفسر شيئاً إذا ما اكتفينا بأن نرى في اي ظرف المناورة الدفاعية المشهورة للرأسمالية المهددة . فهناك التقاليد ، الماضي ، الجماهير ، العلاقة الداخلية بـــين قوى اليسار ، المناورات الكاذبة ، وألف عامل آخر ينبغي عدم اهمـــال اي منها . ان الرأسمالية ايضاً تفعل مـــا تستطيعه ، لا مـــا تريده . ولا بد في كل لحظة ، وإذا كنا نريد ان نفهمها ، من ان نحدد حقل امكاناتها . وهو الذي قال ايضاً ان الاشكال التي تولد من التاريخ ، أي من نضالاتنا ، أعقد من أن يمكننا توقعها . وبسبب هذا ، بسبب روح التحليل والتركيب هذه ، الموروثـة عن غرامشي وتولياتي ، فإن الحزب الشيوعي الايطالي ليس حزب العمال فحسب ، ولا حتى حزب الذكاء فحسب : بـل هو ايضاً اذكى الاحزاب . فبعد فترة من الحيرة ، كان اول من كيّف كفاحه مع ذلك الشكل « الجديد والمعقد » المتولد من سياسة الاحتـــكارات ، والذي يسمى ، عن خطـأ أو صواب ، بـ « النيو رأسمالية » . وبسبب حرية رئيسه ، اصبـــح بالنسبة إلى المنتمين اليه لا وعداً بتحرر قادم فحسب ، بل اصبح ايضاً حريتهم الراهنة في التفكير والعمل ، وفي فهم العالم وفك قيود استلاباتهم . ولهذه الاسباب بالذات لا للأسباب التكتيكية المعروفة فحسب — الدفاع عن الحريات البورجوازية لأنها تصبح بين ايدي الجماهير ادوات ممتازة للكفاح — اصبح الحزب الشيوعي الايطالي خير مدافع ضد البورجوازيين انفسهم عن الديموقراطية .

لقد أحببته بسبب هذا كله : كنت اجده في جميـــع اصدقائي الشيوعيين ، حتى عندما كنت لا اراه . لقد كان هناك اسلوب تولياتي سيبقى من بعده ، على ما آمل ، حياً . بيد انه كان ، في بساطته المطمئنة وابتسامته وسخريته — التي

يمكن ان تكون ، على مـا قيل لي ، لاذعـة ، وان كنت اجدها انا ساحرة ـ وثقافته ، وقوته المختبئة تحت حجاب رقيق من الهدوء كما لو أن مارداً من المردة دخل بطريق السحر في جسم استاذ الثانوي وتكوم فيه ، اقول كان غير قابل للتقليد . وعلى هذا فإن ون آسف عليه ليس الرجل الذي جبل بيديه حزباً من رجال أصلاب وأحرار فحسب : فهـذا الحزب سيعرف كيف يستمر من بعده ويتابع طريقه . بل هو قبل كل شيء الرجـل المسن الهادىء القوي الذي رأيته للمرة الأخيرة في ايار الماضي . رجل كنت احبه . صديقي تولياتي .

« الازمنة الحديثة »
تشرين الاول ١٩٦٤

الفـانونية

بقلم : جان بويون

ان ما يأسر الانتباه في هذا الكتاب [1] ، كما نوه بذلك سارتر في مقدمته ، هو استقلاله : فبصوت فانون « يكتشف العالم الثالث **نفسه** ويخاطب **ذاته** » ، وفي اعماق ذاته يبحث عن إحالاته . يقيناً ، ان اوروبا ليست غائبة عن هـذا الكتاب – وكيف يمكنها ان تكون غائبة ! – لكن إذا كان الكلام مـا يزال يدور عنها في غالب الاحيان ، فان الخطاب لم يعد يوجه اليها . فعندما يتكلم فانون عن الغرب ، لا يستشهد بـ « القيم » التي يزعم هذا الأخير انه يجسدهـا ويحميها ، ولا بـ « رسالته » المزعومة التي كان يمكن ان تبرره حتى عندما يعترف بأنه قد خانها قليـلاً . انـه لا ينتظر شيئاً منه ، لا يغمض عينيه عن اوروبا الوحشية في واقعها ليخاطب اوروبا مثالية ، وهذه اللامبالاة قد صدمت احياناً « ليبيراليينا » : فآثروا في غالب الاحيان ان يمتدحوا « غنائية هـذا الكتاب الخارقة » حتى لا يكونوا مضطرين إلى ابداء رأيهم في تحاليله . ان مـا يذهب اليه تفكير فانون ليس ما تزعم اوروبا انها **كائنة عليه**، بل الى ما **فعلت** منه هو وأمثاله ، أو بالاحرى إلى الطريقة التي فسختهم بهـا وحطمتهم واستلبتهم ، وبالتالى إلى الطريقـة التي ينبغي عليهم ان يعيدوا بها بناء انفسهـم وتركيب ذواتهم . انه لا يسأل الاوروبيين ، وبخاصة الفرنسيين ، سواء أكانوا متروبوليين أم معمرين ، ان يسلكوا غير سلوكهم في الماضي : فهذه مسألة من اختصاصهم ، من اختصاصنا نحن ، سواء أشئنا ذلك أم أبينا ، وسواء أأمكننا ذلك ام لا . اما قضيته هو ، فهي ان يسعى إلى تحديد شروط تواصل مباشر غير مشوه، بين المستعمَرين الذين يتحررون ، شروط علاقات اجتماعيـة حقيقية متطهرة من

---

(١) يقصد « معذبو الارض » لفرانز فانون « المترجم »

وجود ذلك العنصر المشيب – المعمر – الذي افسد العلاقات القديمة ، او قطع اواصرها . وخلاصة القول ان المسألة هي مسألة بناء مجتمع .

كدت اكتب : مجتمع مغاير . لكني لو فعلت ذلك اكون قد بالغت وخنت فانون : فـ « المجتمع » الاستعماري لا يستحق هذا الاسم الذي يستلزم ولو حداً ادنى من التبادل ، في حين ان العالم الاستعماري هو عـــالم « مشطور شطرين » ، والقاعدة التي يرتكز عليها هي التفرقة العنصرية المكشورة تارة والمتوارية طوراً (في حالات قليلة جداً بالأصل) . والحال ان هـذه التفرقة تقوم على العنف ، والعنف وحده يستطيع ان يضع حداً لها . وليست المسألة بالاصل مسألة عنفين متمايزين : عنف المعمر وعنف المستعمَر . فعنف الثاني ليس غير عنف الاول وقد رد إلى نحره . غالباً ما يقال ان ساكن البلاد الاصلي لا يعرف غير القوة . هـذا صحيح ، وينبغي ان نأخذ الصيغة بحرفيتها : انه لا يعرف غـير قوة المعمر ولا يمكنه ان يرد عليها إلا بخضوع متحجر أو بتمرد يتناسب عنفـه والعنف الذي يكابد منه . ولهذا ينفتح الكتاب على وصف لا تزويق فيه لعلاقة القوة هذه التي تميز الوضع الاستعماري ، وعلى التوكيد بأن على المستعمر ، كيما يحـــذف تلك العلاقة ، ان يحولها اولاً لصالحه ، وبعبارة اخرى ، على التوكيد بأن التحرر هو دوماً ثمرة نضال ، وانه لا يمكن إلا ان ينتزع انتزاعاً ، حتى عندمـا يبدو على المستعمِر وكأنه يقبل به : ان تحطيم الاستعمار هو من عمـــل المستعمَر ، لا من عمل القوة الاستعمارية . وعندما تزعم هذه الأخيرة انها تتولاه بنفسها ، فذلك اما لتموّه تراجعها ، وإما لتحاول فرض شكل جديد من الهيمنة .

لقد شاء البعض ألا يرى في هذا إلا تمجيداً للعنف ، حتى يمكنه بسهولة اكبر ان ينقض الاستنتاجات التي يزعمون انها مستقاة من شخصية فانون لا من الوقائع. لكن ينبغي ألا نؤخذ بغنائية الاسلوب ، وألا نتخيل لدى فانون تصوفاً للعنف يجعله يفضل في جميع الظروف النضال على التسوية ويحجب عن انظاره واقعـــاً اكثر تعقيداً . اننا لا نستطيع ان نقرأ بدون انفعال هـــذا الكتاب المكتوب بتسرع مهووس من قبل رجل كان يعرف ان أجله محتوم . ومع ذلك كان من

الممكن ان يحرر بأسلوب بارد جليدي كالاسلوب الذي تحرر به شهادات الوفاة.

وبالفعل ليس العنف وسيلة تختار بين غيرها من الوسائل ، لأسباب تتعلق بالظروف ليس إلا . ولما كان الاستعماريون الجدد مضطرين اليوم إلى ذر الرماد في العيون وإلى الظهور بمظهر « الموضوعيين » ، فهم يعترفون عن طواعية بفظاعات الفتح والغزو « التي يؤسف لها » ، ويعترفون ايضاً بأنه من الممكن ان تكون قد وسمت السكان الاصليين بميسمها ، وان تكون قد انطبعت في ذاكرتهم ، لكنهم يرون انه إذا كانت هذه الذكرى هي التي تدفع بهم إلى التمرد ، فإن المسألة لا تعدو ان تكون اكثر من مسألة بسيكولوجية ، يضاف اليها بالطبع الشروط الحياتية غير الكافية . فإذا ما وجد « الوطني » من يفهمه ويطعمه على نحو افضل ، اعترف من ناحيته بأن واقعاً جديداً قد خلق ، وبأن خير سبيل أمامه هو ان يندمج فيه . ان هذه الاطروحة مناسبة بدون ادنى ريب ، لكنها غير صحيحة . ان عنف المستعمَر لا يمكن ان ينسب بمثل هذه السهولة إلى الماضي وحده ، كما لو انه لم يبق اليوم غير عنف الوطني المتمرد . ان الاستعمار عنف راهن ، بكلا معنيي هذه الصفة : اليوم وبالفعل . انه « العنف في حالته الطبيعية الخام ولا يمكن ان يطأطىء إلا أمام عنف اكبر » . إذن فعنف المستعمِر ، عندما يطلق العنان لنفسه ، هو نقيض رد غير متكيف ، بل هو على العكس الرد الوحيد الذي يمكن تصوره في عالم التفرقة . وبالاصل يستمد الاستعمار ، بوصفه نظام استغلال ، احالته من صراحته : فهو لا يموه ابداً طبيعته الاضطهادية . ان المعمر ليس بحاجة إلى تزويق هيمنته ، لأنه يملك ويعتقد انه يملك القوة دوماً لحسابه الخاص . ونزعته العرقية توفر عليه بالاصل تحمل مثل هذا العناء . ان الخطب الكبيرة عن « رسالة المستعمِر التمدينية » انما هي للاستعمال الخارجي ، وموجهة إلى المتروبوليين القلقين او إلى الاجانب المتشككين ، لكن بالتأكيد ليس إلى المستعمَرين . « ففي المستعمرات يقوم الدركي او الجندي بدور المخاطب المعتمد للمستعمَر . وفي المجتمعات ذات النمط الرأسمالي يخلق التعليم الديني او العلماني ، وتكوين افعال انعكاسية اخلاقية ،

قابلة للانتقال من الاب إلى الابن ، والاستقامة النموذجية للعمال الذين يمنحون الاوسمة بعد خمسين عاماً من الخدمات الصالحة والخلصة ، وتشجيع حب الحكمة والانسجام ، اقول ان هذه الاشكال الجمالية من احترام النظام القائم تخلق حول المستغل جواً من الخضوع والردع يسهل إلى حد مرموق مهمة قوى النظام . ان وفرة مناساتذة الاخلاق والنصاح والمضللين تقوم بين المستغل والسلطة في البلدان الرأسمالية . اما في المناطق المستعمرة بالمقابل.. فإن وسيط السلطة يستخدم لغة العنف الصرف . فالوسيط لا يخفف من وطأة الاضطهاد، ولا يتستر على الهيمنة. بلهو يعرضها، يسفر النقاب عنها بكل الضمير المرتاح الذي تتمتع به قوى النظام».

هل سيقال ان الامور لم تعد كما كانت بالأمس ، وانه منذ تم الفتح حدث تطور لا بد من اخذه بعين الاعتبار ؟ هذا صحيح ، لكن بمعنى محدود للغاية : فما امكن ان يتغير انما هو نمط المعمرين في الاقامة والتوطيد ، وعلاقات حضورهم ، وعلاقاتهم مع المتروبول ، لا علاقتهم مع الوطنيين التي تظل علاقة استبعاد وإقصاء . وحين يتمرد الوطني ، لا يفعل ذلك لأنه يؤثر العنف ، بل لأنه لا يستطيع ان يسلك غير هذا السلوك ، ولأن العنف منقوش في الوقائع . وعلاوة على ذلك فإن تحطيم الاستعمار ، مهما تكن التواءاته ، هو دوماً قطيعة وانقلاب: « مهما تكن الزاوية التي ندرسها منه ... فإنه بكل بساطة استبدال **نوع** من البشر **بنوع** آخر من البشر » ، وذلكم هو معياره الاول . ولا ريب في انه يمكننا ان نتصور ان يتم هذا الاستبدال بدون نضال مسلح ، لكن العنف ، اللهم إلا إذا كانت المسألة خديعة ليس الا ، يظل ماثلاً فيه كتهديد كامن وملجأ ممكن . ونستطيع بكل بساطة ان نقول انه عندما تقرر الدولة الاستعمارية إخلاء المكان بدون نزاع ، فهذا اما لأنها فهمت ان ميزان القوى لن يكون في صالحها ، وإما لأنها تواجه في مكان آخر تمرداً تخشى انتشاره . ان الاستعمار لا يقدم هدايا ، والجزائريون ، وهذه حقيقة يعرفها الجميع ، لم يحرروا غير انفسهم في افريقيا الفرنسية سابقاً . وفي جميع الاحوال لا يمكننا فهم عملية تحطيم الاستعمار إلا إذا تعرفنا العنف الذي تنطوي عليه والذي جعلها ممكنة . اما إذا

اعتبرناها مجرد تسوية او تطور ، فلا نكون قد فهمنا منها شيئاً ، أو نكون قد اعتبرناها مجرد خدعة . وهذا ما يحدث كثيراً بالأصل !

يمكن للبعض ان يرد على هـذا التحليل باعتراضين ، مترابطين بالاصل ، دحضهما هو الذي يعطي الكتاب مداه العام . والاعتراض الاول هو ان نقول ان فانون يعمم من دون حق حالة خاصة : حالة الجزائر التي يفسر ما لاقاه فيها الفلاحون من اضطهاد دورهم الحاسم في التمرد ، وهو دور مـا كانوا يستطيعون ان يلعبوه في البلدان الافريقية الاخرى التي اتخذ فيها الاستعمار طابعـاً مغايراً تماماً. والاعتراض الثاني يتولد منطقياً من الاول : طالما ان فانون يتخذ من المثال الجزائري مثالاً نموذجياً ، فهو مضطر بالتالي إلى المبالغة في تقدير اهميـة الطبقة الفلاحية التي ينطبق عليها وحدها تحليله للعنف . لكنه إذا كان يبالغ على هـذا النحو من اهمية دور الأرياف ، فهذا ، على حد ما يقال ، لأنـه يقلل ، بصورة تعميمية ايضاً ، من اهميـة دور بروليتاريا المدن والبورجوازية الوطنية ، الشيء الذي يفسر قلة ثقته بالوسائل السياسية الصرف ، وتشكيكه في الموضوعـات القائلة انه في الإمكان الاقتصاد في التمرد والتحقيق المرحلي (على مراحـل) للأهداف التي يمكن ان يضر بها تمرد سابق لأوانه .

أما أن فانون يضع في المقام الاول الثورة الفلاحية ، وانه يرى فيها ضمانـة تحرر اصيل ، وانه يؤكد الفشل الحتمي لكل عملية تحطيم استعمار تتولاها فقط الاحزاب السياسية العاملة في المدن والمنظمة على صورة احزاب المتروبول، فهذا أمر لا يحتمل نقاشاً . لكن فانون لا يفعل ذلك انطلاقاً من موقف قبلي او من تقييم عاطفي للطبقة الفلاحية ، شبيه بالتقييم الذي يحيط بـه اليسار الاوربي البروليتاريا في غالب الاحيان . ان فانون يعبر عن تجربة واقعيـة ويسعى إلى جعلها مفهومة ، اي نموذجية ، على الاقل إلى حد ما. وهذه التجربة هي بالطبع تجربة الجزائريين . وبالفعل ، كانت شروط الاستعمار في الجزائر تحتم على الطبقة الفلاحية ان تكون ثورية وإلا عاشت مسحوقة . ولم يكن في وسع الفـلاح الجزائري ان يريد شيئاً آخر غير ارض المعمر واعادة توزيعها. ولم يكن يستطيع

الاندماج في عالم استعماري هو عنه مقصى . اذن لم يكن في وسعه ان يتصور تسويات مع اولئك الذين كانوا ينكرونه او لا يرون فيه غير مصدر للاستغلال: فبالنسبة اليه لم يكن هناك حد وسط بين استمرار ذلك الوضع إلى ما لا نهاية وبين إلغائه الجذري . اما وضع الاقلية ، التي تشكل غالبية سكان المدن – بروليتاريا جنينية وبورجوازية وطنية – فكان مغايراً تماماً . كان وجودها بالذات مرتبطاً بالاستعمار ، وكانت في الواقع « زبوناً » ، وبالتالي في وضع ممتاز نسبياً ان جاز القول . كانت مصالحها مرتبطة بمصالح المعمرين ومضادة لها في آن واحد . مرتبطة بها لأنها كانت تستمد اسباب حياتها من المشاريع او الادارة الاستعمارية : فقد كان العمال واعضاء المهن الحرة والتجار والموظفون مدرجين جميعهم ، على درجات متفاوتة ، في التنظيم الاستعماري . ومضادة لها لأن هؤلاء الناس كانوا هم ايضاً مستغلين ، ويشغلون مراكز ثانوية يريدونها ان تكون اعلى شأناً . لكن لهذا السبب على وجه التحديد كانت مناقضتهم للاستعمار ملتبسة في غالب الاحيان : وزبدة القول ان ما كانوا يريدونه هو ان يتمتعوا بنفس وضع المعمرين . وهذا ليس نقداً ولا إدانة على وجه الخصوص لهؤلاء الناس. انما يعرض فانون ببساطة هذا الوضع المتناقض الذي كانت تتخبط فيه اقلية لا تتعرض إلى نفس الدرجة من الاستغلال المكشوف الذي تعاني منه الطبقة الفلاحية ، لكنها تكابد من تضليل اعمق بكثير . ان هذا التناقض ، الذي لم تستطع الاحزاب السياسية التقليدية ان تتجاوزه قط ، يفسر إخفاقها الدائم وعجزها عن استخلاص الدرس من هذه الواقعة : فبدلاً من ان تعيد النظر في تنظيمها ومناهجها ، كانت تفضل ان تطلق اسم تسويات على هذه الاخفاقات وان تصورها كمراحل ضرورية . ولقد تمت اعادة النظر الضرورية هذه على يد المناضلين السياسيين الذين رفعوا بكل بساطة التناقض واتجهوا إلى اولئك الذين جهلوه دوماً – الفلاحين – ليشعلوا تمرده ويحولوه إلى ثورة ، اي بالدرجة الاولى إلى عملية اعادة بناء اجتماعي. ولم يكن القادة القدامى يجهلون ديناميكية الجماهير الفلاحية هذه ، لكنهم كانوا يتخوفون منها ، ويخشون ان تتجاوزهم ،

وهذا بالاصل ما حدث . فقد انطلق النضال من الأرياف ليجتاح المدن . ولم يكن في الامكان ان تتم حركة التوحيد بالاتجاه المعاكس .

لكن هل ينطبق مخطط الثورة الجزائرية هذا على غير الجزائر؟ ألا يدل الاستقلال الذي نالته دول افريقية عديدة على ان هناك طريقاً آخر ممكناً ، بل ضرورياً ، عندما تكون الظروف مختلفة ، ام ينبغي على العكس ان نعتبر هذا الاستقلال مصطنعاً؟ ان تطور هذه البلدان يشكل ، للوهلة الاولى على الأقل ، مثالاً للتحرر على مراحل ، بقيادة احزاب سياسية فعالة . والواقع ، وكما اشرنا سابقاً ، يدين المنهج السلمي بجزء من نجاحه للكفاح العنيف الذي خاضته جبهة التحرير الوطني: هل منا من يعتقد حقاً ان الحكومات الفرنسية كانت ستسلم بمثل تلك السهولة بمطالب القادة الافارقة لو لم تكن تواجه حرباً استعمارية ثقيلة الوطأة؟ ان وحشية القمع في الجزائر وبعض الليبيرالية في جنوب الصحراء الكبرى كانتا وجهين لسياسة واحدة . وعلى هذا نستطيع ان نشك في العديد من الحالات في واقع هذا الاستقلال ، وعلى الاقل في متانته . ففي معظم هذه البلدان بقيت البنى الاستعمارية هي هي ، وحلّ القادة الجدد محل الاداريين الفرنسيين القدامى ، ولما لم يبدلوا شيئاً في النظام لم يعد في الامكان تمييزهم عنهم في النهاية ! فهل هذا تحرر ناجح؟ أليس هو بالاحرى نجاحاً للاستعمار الجديد هدفه تجميد استقلال المستعمرة القديمة ؟ وكيف يجوز الكلام بالاصل عن الاستقلال في تلك البلدان المرتبط مصيرها ارتباطاً صحيحاً بالمعونة الممنوحة لها من قبل الدولة المتروبول السابقة ، والتي لم يتبدل اقتصادها تقريباً عما كان عليه في ظل النظام الاستعماري ؟ يقيناً ، ان الجزائر المستقلة لن تستغني هي الاخرى عن معونة خارجية ، لكن استقلالها الذي اخذته **مسبقاً** ، يستطيع ان يسمح لها بمراقبة المساعدة ، في حين ان المساعدة تهدف ، في افريقيا الاستوائية الفرنسية سابقاً على سبيل المثال ، إلى الابقاء على الاتجاه الوحيد الطرف للاقتصاد ، ثم يأتي الاستقلال الاسمي **فيما بعد** ليموه هذه الواقعة . ان البورجوازية الوطنية ، القابضة على زمام السلطة في معظم هذه البلدان ، لا تستطيع ان تفعل اكثر من ذلك : فالمرحلة الوحيدة التي

تستطيع اجتيازهـــا بنفسها هي المرحلة التي تقود من الاستعمار الكلاسيكي إلى الاستعمار الجديد . وبالاصل ان اسم « البورجوازية » لا يطلق إلا من قبيـــل التبسيط اللغوي على تلك المجموعة من الوسطاء والموظفين ، العاجزين كل العجز عن ان يلعبوا في افريقيا الدور الذي لعبـــه البورجوازيون الحقيقيون في اوروبا القرن الماضي . ونحن لا نجد بالاصل في هذه البورجوازية الافريقيـة الكاذبة ، هذه « البورجوازية المتخلفة » كما يقول فانون ، لا رجال صناعة ولا رجال مال. واعضاؤها لا يحتلون إلا مكاناً ضئيلاً جداً في الانتاج ولا يعيدون توظيف ارباحهم في القطاعات المنتجة داخل بلادهم . والتطوير الاقتصادي الوحيد الذي يقدرون على تشجيعه هو التطوير الذي يزيد من تبعيتهم للدولة المتروبول القديمة ، ويبقي على الهوة التي تؤمن لهذه الأخيرة هيمنتها دونما أمل في ردمهـا ذات يوم . وعلى هذا فإننا نكون مازحين هازئين إذا ما اقترحنا على البـلدان الافريقية كقدوة تحتذي بها الطريق الذي رسمته دول اوروبا الصناعيـة . ان نظرية مراحـــل التطور ، التي تستغل لتبرير هذا الاقتراح ، يجب ان تسمى هنا باسمها الحقيقي : نظرية الجمود والخمول . ونستطيع ان نقول ان الافارقة سيجدون بعض الفائدة لو تأملوا في تاريخ اميركا اللاتينية ، إذ انهم سيرون ان العهـد الاستعماري لن يتلوه بالضرورة عهد الاستقلال ، وانه يمكن ان يتلوه عهـــد الدمى التي تحرك كيفما شاء لها سادتها .

ان ما يريد فانون ان يوضحه هو انه لا تحرر بدون ثورة اجتماعية ، وان هذه الثورة لا يمكن ان تتحقق على يد البورجوازية الحريصة ، على العكس ، على الحفاظ على البنية التي خلقها او دعمهـا الاستعمار ، وان الثورة بالتالي يجب ان ترافق مجهود التحرير بالذات ، وأن هذا المجهود ، مهما يكن باهتاً في اصالته ، يجب ان يأخـــذ بالضرورة مظهر نضال عنيف ، لتصفية الاستعمار اولاً ، ولمنـــع البورجوازية من إفراغ الاستقلال من كل مضمون واقعي ثانياً . لكن ثمة سؤالين ينطرحان هنا ، يكرران بصيغة اخرى الاعتراضين اللذين سبق ان ذكرناهما : اذا كان الارتباط بين التحرير والثورة في الجزائر قد أمنته طبقة فلاحيـــة هي

محرك التحرير والثورة معاً، أفليس من الطوبائية ان نعتقد ان مثل هذا الارتباط ممكن في المناطق التي لا يبدي فيها الفلاحون ، الذين لم تصادر منهم اراضيهم ، نزعة جذرية مماثلة ؟ وثانياً ، أليس من الممكن ، حتى بعد استقلال فعلي ، ان تجهض الثورة ، وان تقطع البورجوازية الاواصر التي نسجها الكفاح المشترك بينها وبين سائر السكان ، وان تستعيد ، بحجة ترميم ما خربته الحرب ، دورها الملتبس كوسيط؟ ان فانون لا يتعلل بالاوهام، وكان يعرف ان الاستقلال يمكن ان يؤخذ قبل اكتمال الثورة وأن حرب التحرر يمكن أن تنتهي بسلم قائم على التسويات، سلم ينتزعه المستعمرون ليتابعوا ثورتهم بنجاح، لكنه في الوقت نفسه سلم لا تقبل به الدولة المستعمرة إلا لتمنعهم من متابعة ثورتهم، وان الصراع بالتالي سيستمر تحت شكل آخر. ان انتهاء الحرب يبرز إلى النور من جديد التناقضات التي موهها النضال المشترك ، والصفاء المحبب لبداية التمرد لا يمكن ان يدوم . وبعبارة اخرى، ان فانون ليس البتة ملقن دروس، وهو لا يترفع بالنموذج الجزائري للتحرر والثورة عن كل مناقشة. وإذا كان ينوه بالمظاهر الكاذبة للاستقلال الممنوح منحاً وبعجز البورجوازية في بلد متخلف، تلك البورجوازية التي لا تعدو ان تكون اكثر من طائفة طفيلية وذات امتيازات ، فليس ذلك لينتقد السياسة التي تنتهجها عدة حكومات في افريقيا السوداء فحسب ، بل ايضاً ليحذر الجزائريين انفسهم ، كذلك التونسيين والمغاربة ، مما يسميه « مغامرات الوعي القومي العاثرة » .

لا مجال للشك في ان تمرداً فلاحي الاصل من النمط الجزائري هو تمرد يستحيل تصوره تقريباً في جنوب الصحراء الكبرى . بيد ان الجواب على السؤال الاول لا يمكن ان يكون في اي حال من الاحوال ضرورة منح البورجوازية الثقة . انما يجب ان ينص هذا الجواب على توقع فشل البورجوازية ليمكن توجيه القوى التي سيحررها هذا الفشل باتجاه ثوري . وبالفعل ما سيجري ، او ما جرى في غالب الاحيان ؟ ان البورجوازية الحاكمة ، بوصفها تعبيراً عن وقائع اقتصادية هي وقائع اجنبية في البلد المستعمَر ، تظل عالقة ، ان جاز التعبير ، على « غصن » الدولة المستعمرة ، وتفشل بالتالي بعد الاستقلال في تحقيق اندماج

البلد . وتلاحظ الجماهير الريفية التي تشكل غالبية السكان الساحقة ، تلاحظ من جانبها انه ما من شيء قد تبدل في الوقت الذي تجد فيه الدعاية الحكومية نفسها مرغمة على زعم العكس . لكن إذا أرادت هذه الجماهير ، التي ايقظتها تلك الدعاية ، ان تفرض مطالبها ، اصطدمت بقمع لا يتميز بشيء عن القمع الاجنبي بالرغم من انه موجه إلى مواطنين في بلد واحد . وحتى تواجه هذا القمع لا يبقى أمامها من وسيلة غير الانكفاء في اطاراتها التقليدية التي ما تزال على قيد الحياة، بالرغم من انها منخورة . وبعبارة اخرى ، ان تمردها او معارضتها يأخذان طابعاً قبلياً ، الشيء الذي تنجم عنه انقسامات داخلية يعرف الاستعمار كيف يستفيد منها . إذن فنحن نرى ان فانون لا ينسب إلى الفلاح طاقة ثورية غير مشروطة . ان الاملاق المدقع والاضطهاد يمنحان الفلاح ديناميكية ، لكن هذه الديناميكية تستطيع ان تكون « رجعية » او « ثورية »على حد سواء . والاستقلال من النمط البورجوازي وما يستتبعه من تناقضات يوجهان تلك الديناميكية في الاتجاه الاول ، وتصبح المشكلة كلها توجيهها على العكس في الاتجاه الثاني . اما في بلد كالجزائر ، فإن المشكلة هي الابقاء على ديناميكية الفلاح في الاتجاه الثاني ، الثوري، والجواب على السؤال الثاني يصلح ايضاً للسؤال الاول ، ومن هذه الزاوية المحددة تملك التجربة الجزائرية قيمة نموذجية . فالحل يأتي عن طريق تسييس الجماهير ، اي عن طريق ما تهبه لنفسها من ثقافة وتربية بانتظامها في حزب يعبر عن حاجاتها وجهودها ويوضحها . ومثل هذا الحزب ينبغي ألا يكون اداة في يد الحكومة ، اداة لتجميع السكان ولنقل الشعارات. انما ينبغي ان يكون تنظيماً لا مركزياً إلى ابعد الحدود ، لا يمثل في نظر الشعب السلطة ، بل الجهاز الذي يبين الشعب بواسطته عن ارادته ويمارسها. ينبغي ألا يكون واجهة ، انما ينبغي ان يسمح « بالانتقال الحر لافكار الشعب باتجاه القيادة » . ان تسييس الجماهير لا يعني تكليف زعيم من الزعماء بإلقاء خطاب كبير دورياً ، بل يعني « فتح الفكر .. الاستماتة في سبيل إفهام الجماهير أن كل شيء يتعلق بها ، واننا إذا كنا نراوح في مكاننا فهي خطيئتها ، واننا إذا كنا

نتقدم من غير ان يكون هناك ابداع فهي غلطتها ايضاً ... » . نحن نرى إذن أن ما يخشاه فانون هو تحول الحزب إلى ادارة بيروقراطية ملتفة حول « زعيم » مهمته الوحيدة – أسواء أدرك ذلك أم لم يدركه – تجميد النظام ، وتهدئة شعب فرغ صبره ، وتخليد هيمنة البورجوازية الجديدة التي ستفرزها مثل هذه الادارة آلياً . وعلى وجه التحديد لأن جبهة التحرير الوطني كانت نقيض حزب من هذا النوع كان نضال التحرير نضالاً وطنياً حقاً ، وما امكن للقمع ان يحطمها ولا للاستعمار الجديد ان يضللها ، وبقدر ما ستظل تعبيراً عن التربية التي تحققها الجماهير بنفسها لنفسها ، لا اداة للرقابة عليها ، ستظل الثورة الجزائرية حقيقة واقعية . اما في البلدان المتخلفة الاخرى التي لم تعرف محن الجزائر والتي تم فيها نيل الاستقلال بدون مساهمة الشعب ، فإن هذا الاستقلال لن تتاح له فرصة الدوام والتوطد إلا إذا تشكل حزب سياسي ، بالمعنى الذي يقول به فانون ، ليبرهن على غرارة البورجوازية وعدم نفعها ، وليناضل من اجل إشراك الشعب في تسيير الشؤون العامة .

ان هذه الكلمات قد تبدو جوفاء بالنسبة إلى اولئك الذين يعتبرون التسييس مجرد خدعة ، مجرد وسيلة لحث الشعب على ان ينفذ آلياً ما يريده الحكام منه . لكن فانون يعطي تلك الكلمات معنى عينياً للغاية : « كما ان كل محارب في مرحلة النضال يحمل الأمة على طرف ذراعيه ، كذلك فإن على كل مواطن في مرحلة البناء الوطني ان يستمر من خلال عمله اليومي في ارتباطه بمجموع الأمة ، وفي تجسيد حقيقة الأمة الجدلية ابداً ، وفي ارادته هنا والآن انتصار الانسان الكامل . إذا كان بناء جسر من الجسور لن يغني وعي كل من يعملون فيه ، فحري بهذا الجسر ألا يبنى ، وحري بالمواطنين ان يستمروا في عبور النهر سباحة او بالمعدية . ينبغي ألا يمد الجسر ، ألا يفرض بطريقة سحرية ومن الخارج على اللوحة الاجتماعية ، بل ينبغي على العكس ان يخرج من عضلات ودماغ المواطنين . يقيناً ، قد تكون هناك حاجة إلى مهندسين مدنيين ومعماريين اجانب كلياً احياناً ، لكن على المسؤولين الحزبيين المحليين ان يكونوا حاضرين

حتى يترشح التكنيك في صحراء المواطن الدماغية ، وحتى يعقل المواطن الجسر في تفاصيله ومجموعه ويتحمل مسؤوليته » . ان هذا المثل ، الذي يضربه فانون عابراً ، هو على الارجح المثل الذي يعبر عن كل معنى كتابه ، كذلك عن معنى تلك « القومية » التي لا صلة لها ، لحسن الحظ ، بما تعنيه هذه الكلمة في لغتنا السياسية ، قومية هي نقيض الاستلاب والانغلاق على الذات ، ما دامت تهدف إلى « منح كل مواطن كرامته من جديد ، وإلى تأثيث الادمغة وملء العيون بالاشياء الانسانية والكشف عن بانوراما انسانية ، انسانية لأنه يسكنها بشر واعون ، سادة انفسهم .

« الازمنة الحديثة »

نيسان ١٩٦٢

الاشتراكية في إفريقيا السوداء

بقلم : ر. ديبيني

يؤكد لنا رينيه دومون ان « افريقيا السوداء قد أساءت الانطـــلاق » على الصعيد الاقتصادي . ونحن نتساءل بدورنا – والجمهوريات الافريقية الناطقـة باللغة الفرنسية تحتفل بالعيد الثالث لاستقلالها – هل بدأ الحظ يجانب افريقيا على الصعيد السياسي ايضاً ؟

ان كثيراً من الجمهوريات قد استسلمت لإغراء الامبريالية الجديدة : فمكان الاوليغارشية الحاكمة الاجنبية حلت اوليغارشية « وطنية » حافظت على البنى الفوقية القديمة ، وبذلك يكون إناء الزبدة قد انتقل من يد إلى يد ليس إلا . كما ان الانظمة البورجوازية بكل مظالمها الاجتماعية ما تزال قائمة ، وان بقيادة رجال « اصطفتهم العناية الالهية » وبدعم من الاحزاب التي كونوهـــا على النحو الذي يوائمهم .

لقد خامر الكثيرين الأمل بأن تعمل افريقيا السوداء على قلب بناها ، وبأن تحل محل الرأسمالية الاستعمارية الخانقة اشتراكية افريقية شابة تعبر عـن ادارة التجديد الشامل . والحال ان هناك جمهوريتين فقط ، غينيا ومالي ، حاولتا ان تقطعا الصلة بماضيهما وتشيدا مجتمعاً جديداً . وقد جرت في البلد الاخـير على الاخص محاولة جدية لبناء نظام يقصى عنه المستغلون وتملك فيه الدولة وسائـل الانتاج وتسيير المبادلات الاقتصادية والمرافق العامة : وباختصار نظام تحظى فيه المبادىء الماركسية الاساسية بمكانة فعلية وإن على حياء .

ان حكومات اخرى كثيرة تتباهى بأنها تولي القضايا الاجتماعية اهتماماً بالغاً وتلفظ هي الاخرى كلمة الاشتراكية ، لكن هذه الكلمة لا تعدو ان تكون اكثر من عنوان جميل لترويج بضاعـة مشبوهة ولتصوير السهولات الفورية التي يوفرها الاستعمار الجديد مقابل التضحية بالمستقبل بأنها نجاح افريقي ...

إذن يحق لنا ان نتساءل لمَ قبلت هذه البلدان الجديدة بوداعة كبيرة بالمذاهب الاقتصادية والسياسية المتخلفة ، ولمَ لا تؤدي الانتفاضات الحالية إلى تبدلات عميقة في البنية ، وما الاسباب التي تجعل الاشتراكية ، حتى في البلدان الصادقة في تقدميتها مثل مالي ، مذهباً تعتنقه النخبة اكثر منها ايماناً يؤجج حماسة الشعوب ، اختياراً عاقلاً من جانب قبضة من الحكام اكثر منها اندفاعاً جارفاً من القاعدة .

هناك جوابان تبسيطيان سهلان جديران بأن نرفضهما دونما تمييز : جواب يقول ان الافريقي المتوسط الذي يأسف على سهولات العهد الاستعماري يصبح بيسر مستغلاً ولن يكون قادراً ابداً على بناء نظام قابل للحياة بدون مساعدة الغرب ، وجواب تمليه الدوغمائية والمذهبية المتحجرة او المغلوطة المعلومات ، يلقي بالذنب كله على عاتق الامبريالية التي ما تزال بالتأكيد تعمل تحت قناع معونة مالية سخية ، لكن التي تعجز من تلقاء نفسها ، ولو لم تجد الطريق معبداً ، عن مثل تلك الهيمنة الواسعة . كما ان هذا الجواب يتعامى عن ثلاث وقائع اساسية :

اولاً – ان رؤساء الدول الذين تركوا الاستعمار الجديد يوطد اقدامه في بلادهم هم انفسهم الذين ناضلوا في سبيل الاستقلال طوال عشرة اعوام . ومهما تكن اخطاؤهم المذهبية أو ارتباطاتهم الطبقية ، لا يمكن اعتبارهم مجرد دمى هزيلة تبيع البلاد للاجنبي .

ثانياً – في البلدان التي تحررت من البدء من الهيمنة الرأسمالية ، تتوطد الاشتراكية بجذر بالغ ، متجاوزة ببطء عقبات داخلية كثيرة ، ومكتفية بتطبيق تعاليم الماركسية الاقتصادية من غير ان تسعى إلى تعميق او نشر المفاهيم الفلسفية للمادية الجدلية حتى وان كان الحكام قابلين بهذه المفاهيم .

ثالثاً – ان الفئة المستنيرة من السكان هي وحدها التي تشارك بصورة فعلية في الحياة السياسية لجميع هذه البلدان ، وتساهم في البناء القومي ، متسترة بحماستها على لا أبالية الجماهير المستعدة للتصويت بنسبة ١٠٠٪ للحكومة . ومثل هذه

الـ « نعم » الاجماعية ليست معياراً للنضج والتبصر السياسيين .

إذن لا بد ان نعترف بأنه إلى جانب التدخل الاجنبي ، توجد عوامل محلية ومواقف افريقية نوعية وردود فعل عاطفية تعارض قيام بنى تقدمية صميمة .

تلك العوامل هي ما اريد ان ادرسه هنا . ويمكن اولياً تصنيفها على ثلاثة انواع : سياسية ، واقتصادية ، وسوسيولوجية - بسيكولوجيه . لكن التعمق قليلاً في التحليل يبين ان الصنفين الاولين يرجعان إلى الصنف الثالث . ولذلك سنستعرضها بايجاز لننتقل من ثم إلى دراسة العوامل السوسيولوجية - البسيكولوجية دراسة مفصلة .

العوامل السياسية

عاملان لعبا دوراً اساسياً بالنسبة إلى مستقبل افريقيا المستقلة القريب : عدم وجود مذهب مشترك بين مختلف الجمهوريات ، وفجأة الحصول على الاستقلال وما استتبع ذلك من ارتجالات .

والواقع ان حزب « التجمع الديموقراطي الافريقي » كان في جوهره اداة كفاح محددة الهدف : كان نيل الاستقلال يلخص برنامجه كله . وكان هذا يتجاوب في الاصل مع سبب نفسي : وكان هذا الحزب يعبر ، بوصفه حركة نخبة افريقية ، عن الحاجة العاطفية لهذه النخبة لإنهاء هيمنة السيد الابيض وللارتفاع إلى مستوى كرامة الانسان .

اما الفترة التي ستلي الاستقلال فلم تعد لها العدة بالمرة . والحال ان الاستقلال قد منح على نحو مفاجىء ، بتعمد من المستعمر السابق حتى لا يترك للحكام فرصة تنسيق برامجهم ، وهكذا جاءت « البلقنة » الايديولوجية لتعمق البلقنة الجغرافية .

لقد انبثق الاستقلال عملياً بكل فظاظة الحدث الثوري ، لكن من غير ان تسبقه فترة مديدة من الإنضاج ما قبل الثوري أو معركة تحريرية كما حدث في الجزائر . وهكذا تحتم الارتجال وكانت النتيجة الاولى ارتقاء زعماء الحزب القدامى إلى مصاف رؤساء الدول ، فكان لشخصيتهم ونفسيتهم اثر حاسم في

تحديد اتجاه بلادهم . والحال انه من الجلي والواضح ان المستقبل الذي يتصوره رجل كموديبو كيتا ، وهو معلم يساري محب للمجازفة ومستعد لقلب البنى رأساً على عقب ، هو غير المستقبل الذي يتصوره رجل كسنغور وهو شاعر ، هادىء ومحافظ بطبيعته ، نال شهادة عليا في علم القواعد ، وهو ايضاً غير المستقبل الذي يتصوره رجل مثل هوفوي بوانيي ، سليل اسرة غنية ومتبرجزة، مؤهل لأن يكون بطل الرأسمالية الافريقية الجديدة . وخلاصة القول انه كان من المحتم ، في افريقيا الفتية هذه ، المفتقرة إلى رأي عام متمرس ، ان تنعكس السمات النفسية لهؤلاء الرؤساء في الحكومات التي سيشكلونها باعتبار انهم سيختارون وزراءهم من بين رفاق الكفاح القدامى .

العوامل الاقتصادية والاجتماعية

عاملان كانا وما يزالان حاسمين . الاول لعب وما يزال يلعب دوراً اساسياً في الاختيارات التي تقوم بها الاجهزة القائدة ، والثاني يفسر لامبالاة الجماهير حيال هذه الاختيارات لحظة اتخاذها ، ويفسر انصراف الجماهير الشعبية في الوقت الراهن عن التأييد أو الكفاح . الاول يتمثل في لا تساوي الثروات المحلية حسب الاراضي (مرافىء ، مناجم ، زراعة) فتكونت بورجوازية « وطنية » في بعض المناطق قبل الاستقلال وفي مناطق اخرى لم تتكون . والعامل الثاني يتمثل في عدم وجود اي تنظيم للجماهير الشعبية : فلا وجود في اي مكان لبروليتاريا صناعية، ولا وجود في اي مكان لطبقة فلاحية تتمتع بوعي طبقي. ان جميع الاجهزة القائدة مكونة في غالبيتها العظمى من الموظفين القدامى . ان اولئك المعلمين والاطباء والبياطرة ورؤساء المكاتب والخزنة الذين كونتهم الادارة الاستعمارية ليخدموها ، قد شكلوا نوعاً من انتلجانسيا كانت وحدها المؤهلة لاستلام مصير البلاد بيدها . لكن في حين ان هذا الجهاز ، في المناطق المحرومة ، قد أُخذ من قلب الكتلة المتخلفة فاحتفظ بالتالي بتماسه مع الشعب وبانجذابه نحو المذاهب الاجتماعية ، نجد أن اصله في المناطق الاخرى يعود بوجه عام إلى البورجوازية الصغيرة التي تكونت تحت إشراف السادة المستعمرين .

ان هذا المخطط — بلد بلا ثروات ، انتلجانسيا فقيرة قابـــلة بحاضر صعب بهدف الوصول إلى مستقبل مزدهر بالنسبة إلى مجموع الشعب الذي لم تنفصل عنه؛ وبلد غني ، وانتلجانسيا متبرجزة حريصة على ازدهارها المباشر ومتناسية ان مصلحتها تبتعد اكثر فأكثر عن مصلحة الجماهير — اقول ان هذا المخطط ينطبق على جميع بلدان افريقيا السوداء باستثناء الفولتا العليا، الفقيرة والراتعة مع ذلك في احضان الاستعمار الجديد ، التي يحكمها قادة تشبعوا بمبادىء كاثوليكية متخلفة تجعلهم يرون في الاشتراكية طريق الشيطان !

ان الموقف يميل إلى التطور منذ الاستقلال . والافريقي العادي بدأ يخرج من خموله . والحكومات البورجوازية تبذل كل ما في وسعها ، بلغة اشتراكية كاذبة او كاثوليكية متخلفة ، لتمنعه من حل تناقضاته ، لكنها لا تستطيع ان تمنع انتفاضات الوعي الشعبي الاولية ، المبشرة على حياء بإعادة النظر الكبيرة التي لا بد ان تحدث ذات يوم .

وتعمل الحكومات الاشتراكية على العكس على تنشيط هذه اليقظة الشعبية، لكن هذه اليقظة تتم على نحو ابطأ مما كانت تتمناه ، لأنه لا بد من قلب لا البنى فحسب ، بـــل ايضاً طريقة التفكير بالذات — وهذا ما نقصده بالعوامـــل البسيكولوجية التي هي مفتاح كل تجديد افريقي حقيقي .

العوامل السوسيولوجية والبسيكولوجية

ان هذه العوامل الخفية ، المتلونـة ، العميقة الجذور في الافريقي ، هي في آن واحد اهم العوامل على الصعيد المحلي واكثرها جهلاً من قبل المراقب الاجنبي.

لقد سمحت وما تزال للعرقيين — بعد ان عمموها وشوهوها — بأن ينظروا إلى الافارقة كقطيع يكفي المرء شيء من الحيلة حتى يستعبده ابداً .

كما انها ، إذا ما اساء اصدقاء افريقيا تقديرها او تأويلها ، تؤدي إلى اساءة معرفة الواقع المحلي ، والتأويل المغلوط للمواقف السياسية ، وشيء من الخيبـــة امام بطء التطور الاجتماعي .

هذه العوامل المعقدة مرتبطة بالتاريخ ، بشروط الحياة، ومن اختصاص عالم

النفس وعالم الاجتماع وعالم السلالات على حد سواء . وهي ليست ملازمة لطبيعة خاصة بالرجل الافريقي ، تجعل منه كائناً فريداً من نوعه . ان مواقف الافريقي مغايرة في الوقت الراهن لمواقفنا لأنه ترعرع في ظل حضارة خلفت فيه أثراً عميقاً . وميزة العرقية هي انها تنظر إلى هذه الفوارق على انها نوع من القدر وتصنفها وفق سلم تعسفي للقيم يضع كل ما هو غير ابيض في اسفل الدرجات .

إذن لا بد من ان نعترف لهذه العوامل بأهمية بالغة في الظروف الحالية وان نترك لها في الوقت نفسه دلالتها الاصلية بوصفها بنية فوقية خلّفها موزاييك من مجتمعات قديمة لكن منسجمة، هدفها الفتح الاوروبي من غير ان يقدم لها عناصر تمكنها من تجديد نفسها ، وهو تجديد كان سيفشل بالاصل في روحه حتى ولو تحقق عملياً ، نظراً إلى ان المانوية الاستعمارية كانت ستزيفه . والواقع انه إذا كان النظام الاستعماري قد انساب فوق الكتلة الفلاحية منغير ان يبدلها نفسياً، إلا ان ذلك لا ينطبق على النخبة التي كونها الاحتكاك مع الاوروبي ، والتي تأثرت به رغماً عنها تقريباً ، فوجدت نفسها في مواقف مائعة تتراوح بين القبول والرفض . ولهذا لا نجد امراضاً نفسية لدى الكتلة الفلاحية، بينما تكثر ذهانات عدم التلاؤم لدى سكان المدن وبخاصة من قضى منهم مراهقته بجوار الاوروبيين.

ان هذه العوامل تقسم إلى فئتين : من جهة اولى مخلفات العهود الغابرة التي يتوجب ان نميز فيها المخلفات ذات الصفة الاخلاقية والميتافيزيقية والمخلفات ذات الصفة الاجتماعية او التاريخية ، والتي تغذيها العزلة الفكرية للفلاح الافريقي المحبوس في أمية علينا ألا نقلل من اهميتها . ومن جهة ثانية العادات ، الجيدة احياناً والرديئة في غالب الاحيان ، المكتسبة من الاحتكاك بالمستعمر ومن حضارة حديثة لم يجر تمثلها كما يجب .

المخلفات الاخلاقية او الميتافيزيقية : يأتي هنا ، وفي المقام الاول، ما سأسميه بالروح التوراتية . وهذه نادرة مقتضبة تساعدنا على ان نفهم المقصود من هذا التعبير .

في قرية تقع في منطقة شديدة التمسك بالتقاليد وزع شيخ مسن يبلغ من

العمر اكثر من ثمانين عاماً ولا اولاد له ، وزع بدافع الصداقة حقوله على فلاحين فتيان من غير ان يأخذ مشورة رئيس القرية . فكان رد فعل هذا الاخير عنيفاً ولم يتردد في اصدار أمره إلى اولاده ليجنوا ثمـــار شجرة تمر هندي تخص ذلك الشيخ . وتولى التحقيق رئيس المنطقة . وبرر رئيس القرية تصرفه بقوله : « ان ذلك الرجل قد اهانني إذ لم يستشرني ، ولا يحق له اصلاً ان يوزع اراضيه لأنـــه اجنبي » . فتساءل رئيس المنطقة : « اجنبي ؟ ولكنه ولد في هذه القرية... » — « اجل ، لكن اباه ليس من هنا ... » — لمن تخص حقوله إذن ؟ » - « للقرية ، إذن لي ، مثل ماء النهر والعصافير على الاشجار » .

وقد صعب على رئيس المنطقة كثيراً ان يفهمه ان ذلك الاجنبي مالي شأنـــه هو ، وان السيطرة المعنوية التي يعزوها إلى نفسه تبعاً للتقاليد الموروثة لا يمكن ان يعترف له بها القانون .

يقيناً ، لا يتساوى جميع زعماء القرى في هـــذا التصور المتصلب لدورهم ، لكنه موجود عندهم جميعاً على درجات متفاوتة . ويجب ان نضيف ان مخلفات العهود الرعوية هذه تختفي شيئاً فشيئاً بفضل احاطة الزعيم التقليدي بمستشارين منتخبين ، ولا سيما بفضل وجود لجنة سياسية مؤلفة من العناصر الحزبية الشابة في كل قرية .

وإذا كانت هذه العناصر المتسيسة تقبل ، على حياء بالأصل ، بأن تطوي كشحاً عن الماضي فيما يتعلق بحياة القرية المادية ، إلا انها لا تقبل بذلك عندمـــا تمسّ الامور الدينية ولا سيما السحرية . ان إفريقي عصر الذرة ما يزال كائنـــاً ميتافيزيقياً عريقاً . ومن المفهوم بالاصل ان يكون قد شعر ومـــا يزال يشعر بالحاجة إلى التشبث برؤى وهمية ، ولا سيما اشباح القوى المعادية التي يرمز إليها تحت شكل أبالسة تجاه طبيعة مختلفة التوازن دوماً : حرارة غير انسانيـــة ، جفاف مشؤوم ، او على العكس نباتات وادغال مجنونة الكثافة . وهذه الأبالسة هي ايضاً صورة عن ذاته : قوية وضعيفة ، قوية عندما يكون جاهلاً بالطقوس الكفيلة بطردها ، وضعيفة إلى حد مضحك بالنسبة إلى من يعرف كيفية اتقائها.

أليست شبيهة بالافريقي الذي يشعر ، في ظل حماية صنمه ، بأنه قوي بما فيه الكفاية لمهاجمة الأسد بالحربة ، لكن الذي سيموت بعد ثمانية أيام بالكزاز لأنه جرح قدمه اثناء القنص ؟ ان زرقة مصل كانت كافية ...

ان هذا الحسّ بالمعجز ليس وقفاً على الفلاح الأمي . فمع تقدم التطور الاجتماعي تخلي الوثنية مكانها لأديان اسمى ، للاسلام في الشمال ،وللمسيحية في الجنوب ، لكن المعجز يظل متجسداً فيها . اليكم ما قاله معلم في الخمسين من العمر ، مناضل في « التجمع الديموقراطي الافريقي » من اليوم الاول ، ومسلم طيب متدين ، اثناء كلامنا عن غاغارين : « لا بد للمرء ان يكون شجاعاً حقاً حتى يدور حول العالم في صاروخ ... ترى ماذا كان سيفعل لو صادف الله هناك ؟ » . وقد قال لي ذلك بعد ان كان اخبرني انه مسرور لأنه اشترى من المكتبة الشعبية حقيبة مليئة من الكتب الماركسية .

وهل من حاجة بعد هذا لأن نقول انه إذا كان المثقفون « اليساريون » يقبلون بالتطبيقات الاقتصادية للاشتراكية ، لكنهم لا يريدون البتة ان يسمعوا اي كلام عن النتائج الفلسفية للمادية التاريخية : وصحيح ان واحداً من اهم المفاهيم ، مفهوم الاستلاب ، مجهول منهم عملياً ، لأنه ليس في الامكان تصوره في وسطهم الاصلي . فالفلاح لا يبيع قوة عمله ، بل يستهلك ثمارها مباشرة ، وما لا يستطيع استهلاكه يقايضه فيغالب الاحيان. ان المقايضة لم تخف من افريقيا. فالمزارع يقايض كيلاً من الذرة البيضاء بإناء من اللبن يأتيه به مربي الماشية . والمرأة التي تذهب إلى السوق تحمل معها منتجات البستنة لتبيعها لكنها تشتري على الفور منتجات مصنوعة - سكراً ، اقمشة قطنية ، الخ - بحيث ان النقود لا تمر بيدها إلا مرور الكرام ، ولا تتعدى العملية ان تكون اكثر من مقايضة. ان العمل ينتج دوماً خيرات يمكن لمسها باليد ، وبالتالي لا يمكن ان يكون مستلِباً .

وعلى هذا فالزعماء الافريقيون النادرون الماركسيون حقاً مرغمون على تمويه موقفهم الايديولوجي ، وعلى الذهاب احياناً إلى الصلوات العامة ، وعلى التمهل

في التطبيق العملي للاشتراكية خشية ذعر الجماهير التي يمكن ان تدفع بها التدابير الجذرية اكثر مما ينبغي إلى السقوط في عالم الغيبيات من جديد .

المخلفات التاريخية والاجتماعية : استطاعت الواقعة القوميـــة في معظم الجمهوريات ان تمحو دستورياً الواقعة القبلية ، لكنها لم تستطع ان تقضي عليهـا عملياً في اي مكان . ان اسم الاسرة هو تذكير دائم بانتماء سلالي ، واحيانـــاً قروي . ان السادة دولو وتوغو وكوليبالي وتوري وتال ، الطلبة الباريسيين ، هم بالنسبة إلى رفاقهم الفرنسيين افارقـة فحسب . لكنهم عندما يعودون إلى بلادهم ، تعود اليهم سلالاتهـــم : فدولو سليل سانغا ، وتوغو سليل بوزون ، وكوليبالي مولود فيمكان ما من بلاد البامبارا ، وتوري مولود عند احد ينابيع النيجر ، واسلاف تال عرفوا هوس الجغرافية إذ كانوا بدواً رحلاً تنقـّلوا بـــين فوتا وماسينا .

ولو كانت هذه السلالات مجرد ألقاب ، لما كانت هناك من مشكلة كبيرة . لكنها اكثر بكثير من مجرد ألقاب : انها ملامح جسمية محددة ، لغة ، طريقة في التفكير ، وعلى الاخص إحياء للماضي . ان امبراطوريات كثيرة ، قامت بالتوالي على هذه السلالات ، قد تعاقبت على افريقيا . وهي لم تنسَ بعد ، وكل فرد يتذكر ان اسلافه حكموا جاره . وما يزال الناس في مالي يتغنون بذكرى عمر تال الذي آثر ان ينسف نفسه مع برميل بارود على ان يستسلم . لكن لكل قبيلة من القبائل صفحتها المأثورة في التاريخ . وكثيراً مـا يؤدي التنافس القبلي إلى وقف كل عمل بنـّاء . وصحيح ان هذه الحزازات لا تتجاوز نطاق القرية عادة لكنها تعرقل بالضرورة الانطلاق الاقتصادي والسياسي .

ويبدو ان هذه الواقعة توائم بعض الحكومات التي يهمها ان ترعى التمايزات العنصرية لنفس الاسباب التي كانت تدفع بالحكومة الفرنسية إلى تشجيعها . وانه لما يلفت الانتباه بالفعل ان نلاحظ انه لا وجود في مالي ، البلد الاشتراكي ، لأي منظمة سياسية تقوم على اساس عنصري ، في حين ان الكثير من الفروع والمكاتب واماكن الاجتماع في ساحل العاج ، البلد الرأسمالي ، تخص هذه السلالة او تلك

دون غيرها . ان مبدأ « فرق تسد » هو دوماً مبدأ ممتاز حين لا يكون هناك ايمان بالشعب .

وواضح ان تجزئة الجماهير هذه إلى « عوالم صغيرة » تشكل عقبة كأداء امام ولادة الوعي الطبقي ، وحتى أمام العمل التعاوني البسيط . ولقد عالجت بعض البلدان ، ومن بينها مالي ، المشكلة بحزم إذ جردتها من كل اساس جغرافي – سياسي . وبالفعل كان التقسيم المحلي القديم على اساس مناطق تضم كل منها عشرين او ثلاثين قرية ويتزعمها رئيس تقليدي ، يعزز التقسيم العشائري ويغذي عبادة الماضي والحزازات الضلالية . وقد اختفت المناطق وزعماؤها ، وقسمت كل واحدة منها إلى خمس او ست وحدات تبعاً لكثافة السكان والخصائص الجغرافية والاقتصادية ، لا تبعاً للسلالات . ويقف على رأس كل وحدة موظف حكومي ، وبالتالي قابل للتبديل ، يبذل جهده ليثبت لسكان وحدته ان السونراي او البامبارا موطن مالي لا يقل صلاحاً عن البول او الدوغون .. لكن هذا البرهان لا يفهم من الجميع دوماً .

ان هذا الانقسام إلى سلالات ليس الانقسام الوحيد الذي يمنع تلاحم الامم الافريقية : فالانقسام إلى طوائف يأتي ايضاً ليجزيء تجانس السلالة . لقد كان الانقسام الاخير عنصراً اساسياً في جميع المجتمعات الافريقية . وكان لكل طائفة دورها وحدودها ، لكن النواهي الطقسية ما كانت تمنع المبادلات الودية بينها . فالنبيل ما كان ينسى ان حديد الحداد ، وهو رجل من طائفة دون ، قد جعل منه رجلاً يوم ختانه ، وكان النبيل الشاب صديق ابن حداده الذي كان في غالب الاحيان يبحث له عن زوجة ويدفع نفقات زواجه . والمفارقة ان هـذه العناصر التي كانت ايجابية فيما مضى اصبحت سلبية ومتخلفة الآن لأن السياق قد تبدل : فالحداد لم يعد يتمتع بهالة دينية لأنه لم يعد هو الذي يستخرج الحديد وبات يكتفي بشرائه او بشغل حدائد قديمة . ولم يعد العراف شاعر الملاحم المجيدة بل اصبح رجلاً يبتز المال من غيره اعتماداً على سلاح التشهير والشائعات . ان هذه المجتمعات التي حرمت من اطاراتها تتفتت وتحبو اليوم ،

ومع انه كانت لها ايام مجيدة إلا ان مخلفاتها باتت الآن عقبة ، ولا بـــد من مساعدتها على الاضمحلال مع التحسر ، من الجائز ، على ذلك العالم الذي لم تفسده الامبريالية .

ان الطوائف لم يعد لها وجود رسمياً . ففي المدرسة يجلس جنبـاً إلى جنب اولاد العراف والحداد والنبيل والأسير السابق . ويحق لعدة بلدان افريقية ان تقول ان كل مواطن ، مهما تكن طائفته ، يملك في درجه المدرسي محفظة وزير . لكن على مستوى القاعدة، على مستوى المشاكل اليومية والعمل والقرية والزواج والعلاقات الانسانية ؟

ان الانقسام إلى طوائف، الموروث عن ماض كان يتجاوب فيه مع ضرورة اجتماعية ، لا يمكن ان يستمر في الوجود إلا بقدر ما يستمر المجتمع الذي ولده . والحال ان القاعدة ، كما بينت ، ما تزال قريبة جـداً من الماضي ، ومن الطبيعي بالتالي ان تبقى البنى الفوقية لهذا الماضي على قيد الحياة . وهكذا ما تزال توجد مناطق كثيرة يرفض فيها النبيل ان يتزوج من ابنة شاعر جوال، ويرفض فيها الحداد ان يصبو إلى غير مهنة آبائه . وإذا كان النبيل من قبيلة بامبارا لا يلوث شرفـه إذا مـــا حرث حقله بنفسه ، فالأمر على العكس بالنسبة إلى النبيل البول الذي يترك هذه الاعمال « الدنيئة » لأسيره بينما يتولى بنفسه حلب بقراتـــه ، الشيء الذي لا يتنازل سليل البامبارا لفعله .

يصعب إذن كثيراً على الماركسي الاوروبي ان يقدر تعقيد المشاكل الاجتماعية الافريقية حق قدره . ففي اوروبا صفى التضامن العمالي الحرفية والاقليمية على حد سواء، وكشف النقاب سافراً عن المفاهيم الطبيعية . اما في افريقيا ، فإن الفلاح النبيل من بامبارا الذي يحرث بصعوبة وعناء ارضاً فقيرة ، وأسير البول الذي يقوم بالعمل نفسه وبالمنكاش نفسه ، والحداد الذي صنع لهما هذه الادارة التي لم يطرأ عليهـا تبدل منذ قرون ، والبول الذي ينظر اليهما يعملان بازدراء بينما يرعى بقراته العجاف ، ان جميع هؤلاء الرجال المتساوين في الفقر والخاضعين للقوى المعادية ذاتها وللظلم نفسه ، لا يشعرون بالتضامن فيما بينهم ويجهلون ايضاً

انه في مقدورهم ان يصبحوا متضامنين .

لقد ألححت كثيراً على هذه التجزئة لأنها تبدو لي عاملا حاسماً : فالمجتمع الافريقي لا يتألف من طبقات بل من منظمات صغرى متصافة لا يجمع بينها اي قاسم مشترك . لا شرطي على الطريقة الكوبية ، ولا مرابي على الطريقة الصينية ، ولا اقطاعي يدفع له نصف المحصول الهزيل ، ولا اغنياء اجانب يتعهرون ببنات الفلاحين . ومهما نكن معارضين لمبدأ الاستعمار ، إلا انه لا يمكننا إلا ان نقر بأن الاستعمار الفرنسي لم يكن طاغياً ومذلاً إلى حد يفرض الوحدة ضده من خلال التمرد . وهكذا تابعت كل جماعة صغيرة حياتها الخاصة ، غير آبهة ببلقنة افريقيا وبالنظام الذي يقترحه عليها حكامها . ومن هنا كانت المهمة الاولى للقادة الاشتراكيين دمج هذه العوالم الصغيرة المغلقة لتتشكل منها كتلة مصممة على الخلاص من الاقدار الكاذبه ، باعتبار أن بناء اشتراكية فعلية لا يمكن ان يبدأ إلا بعد هذه المرحلة الاولى .

إذا كان التحرر الاجتماعي معركة وكفاحاً ، فلا بد ان تساهم فيه النساء كما كانت الزوجة الافريقية في الماضي، تشجع المحارب بصياحها وتعد الطعام للمنتصرين. فهل تقوم بهذا الدور الآن؟ لنترك جانباً هاوا كايت ، الوجه المألوف في كل مؤتمرات تحرر المرأة ، ولنترك جانباً اولئك الطالبات الجامعيات اللواتي أصبحن كالباريسيات ، ولنترك جانباً ايضاً قبضة من الممرضات والمدرسات والقابلات ، ولنهتم بزوجة الفلاح في قريتها . فهي قد ظلت ، في هذا الاطار الرعوي ، زوجة الأمس المثالية ... ولقد كانت دوماً بعيدة غاية البعد عن الصورة التي يرسمها عنها العرقيون كآلة لهرس الذرة البيضاء وتفريخ الاطفال ، ترتيبها في التسلسل الاجتماعي يأتي بعد الحمار تقريباً . يقيناً ، انها تعمل ، وعلى الاجمال في اعمال منهكة ، وتنجب مراراً عديدة ، لكن دورها لا يتوقف عند هذا الحد . انها لا تظهر في المناقشات العامة لكن صوتها يسمع فيها مع ذلك : وإذا كانت على الاخص أماً فإن رأيها هو الذي يسود في البيت . وتعدد الزوجات لا يحول دون احترام المرأة ، وهي تستحق هذا الاحترام في غالب الاحيان .

انها شديدة التعلق ، هي الواعية منذ نعومة اظفارها لما سيكون دورها كأم وزوجة ، بالبنية التي كونتها . إذن فهي عامل استقرار ، لكنها قد تكون عقبة في مرحلة التطور . فتلك الجدة على سبيل المثال تريد ان يذهب حفيدها الى « الكتّاب » ليتخرج منه وهو فاقد القدرة على التلاؤم مع الحياة الحديثة ، بدل ان يذهب إلى مدرسة مركز الناحية حيث قد ينسى الدين . وهذه الأم الارمل تريد من ابنها الوحيد ، الذي بات موظفاً هاماً ، ان يتزوج فتاة من القرية، مثالية حسب مفاهيم الماضي لكنها لا تتجاوب البتة مع المشاريع الزوجية لذلك الابن . وتلك الام الاخرى ستحول دون اجراء عملية جراحية لابنها حتى ولو كان سيموت . وكثيراً ما يتقيد الابناء بهذه النواهي ويعانون بالتالي من ازمات ضمير حادة .

وبالمقابل إذا ما حمل المرء نفسه مشقة إفهام الافريقية ما ستفيد اسرتها من تجديد مقترح (لا مفروض فرضاً) فمن الممكن ان تصبح عامل تقدم ، وهي على سبيل المثال اكثر استعداداً من الرجل لهجر طب الساحر إلى طب المستوصف ، وقد شاهدت امهات يأخذن اولادهن إلى الطبيب غصباً عن ارادة ازواجهن احياناً .

إذن فالمرأة الافريقية التي تعيش لأسرتها وبأسرتها قد اكتفت حتى الآن باتباع الجماعة التي تنتمي اليها ، سواء أكانت طائفة ام سلالة . وفي اي حال من الاحوال لم يكن نفوذها كافياً لفرض اختيار حاسم . ومن هذه الزاوية قدرت أن من واجبي ان اصنف المرأة بين المخلفات الآبدة التي تعرقل تطور البلاد .

هكذا يكون الافارقة الذين تشلهم تابوات طوائفهم وتحبسهم انسابهم وتعميهم اديانهم ويفصلهم عن سائر انماط التفكير والحياة عدم وجود لغة مكتوبة ، قد عاشوا حتى الاستقلال في دائرة مغلقة اقتصادياً وفكرياً . وما كانت هذه العزلة تثقل عليهم ، بل على العكس كانوا يتمنونها ويرعونها لأنه لم يأت احد ليحطم قوقعتها غير الجابي ليأخذ مالهم، والموظف ليرسلهم إلى العمل الاجباري والضابط ليجند ابناءهم . ان الخوف من المتاعب التي يحملها العالم

الخارجي كان يغذي العزلة وكانت العزلة تغذي الخوف من المجهول ... انها الحلقة مفرغة لم تنجح النخبة بعد في تحطيمها نهائياً . ان افريقي السهوب قد ظل عظيم الريبة والحذر : فالثقة المتسرعة غير الناضجة قد سببت لهم كثيراً من الخيبات. وهذه الروح هي التي املت عليهم مدة طويلة من الزمن مقاطعة المدرسة . وكان المستعمر قد بذل مجهوداً ضئيلاً في ميدان التعليم ، واتخذ من تحفظ الجماهير ذريعة ممتازة كيلا يلح على الموضوع كثيراً ، ولا يرسل إلى مقاعد الدراسة غير عدد زهيد هو كل ما تحتاجه الادارة الاستعمارية من موظفين « وطنيين » ثانويين. إذن فالأمية ما تزال عقبة كؤوداً امام التطور . وان نشر تعاليم الحكومة وشعارات الحزب مستحيل عن طريق النشرة او الصحيفة او الاعلان ، وعلى المسؤولين ان يقطعوا السهوب من قرية إلى قرية ، فتكون النتيجة ضياع وقت كثير وتأخر . والميتافيزيق الافريقية هي وحدها التي تعدلت بعض الشيء قبل الاستقلال ، إذ ان تقدم الاديان المستورة لا يشكل عامل تطور اجتماعي ، ولم يلعب اي دور في حث المؤمنين على التحرر من سلطة دينية تشبه إلى حد بعيد سلطة المستعمرين .

ومنذ الاستقلال تطور الوضع بمقدار اخلاص الحكام العاملين على تربية الشعب : ان مكافحة الأمية وتسييس الجماهير وتحرير المرأة هي وسائل العمل الاساسية . ولا نستطيع إلا ان نقر بأن بعض النجاح قد تحقق في هذا المجال ، وبأن جميع قرى مالي تطلب اليوم مدرسة ومستوصفاً . ولقد كانت مثل هذه الامنية مستحيلة التصور قبل الاستقلال .

العوامل البسيكولوجية الفردية : وينبغي ان نقسمها بدورها إلى قسمين : العوامل المرتبطة بالمواقف التقليدية والعوامل التي تتفسر بدلالة الماضي القريب .

العوامل الاولى هي في حد ذاتها خصال حميدة ، لكن نموها المرضي المفرط يشكل احياناً عقبة في وجه الحزم الذي يجب ان يكون عليه المجتمع الاشتراكي. انها من جهة اولى اللطف والروح الرفاقية ، ومن جهة ثانية التعلق بالأسرة وبالبيئة الاصلية . ان الافريقي يحب ان يخدم غيره ... بل هو على استعداد

للتخلي عن حقه لصالح صديق . ولطافته تدفع بـه إلى مسامحة المذنبين بسهولة اكبر مما ينبغي ، وهو يتألم بصدق إذا ما رأى صديقاً له يعاقب ، حتى ولو كان للعقاب مبرره . انه لا يفعل ذلك تحسباً لاحتمال تعرضه بدوره للعقاب ، بل هو يفكر بأسرة صديقه وببؤسه ، ويتمنى ان يراه يخرج بسرعة من السجن وان تعهد اليه الادارة من جديد بمنصبه السابق حتى لا تقع اسرته في عوز ما دامت هي غير مذنبة .

قال موديبو كيتا ذات يوم : « ان الشعب المالي الواسع الصدر لا يتمنى معاقبة المذنبين بل يتمنى اعادة تثقيفهم ... » . وهذا الكلام يستقبل بالترحاب الكبير من شعب ينفر من الصرامة المبالغ فيها . لكن الاشتراكية مع الأسف لا تبنى بالعواطف الطيبة وحدها ، والتسامح قد يكون مشجعاً على استسهال الذنب .

اما التعلق بالبيئة الاصلية ، بالتقاليد ، بالأسرة التي يخشى الافريقي حكمها اكثر مما يخشى حكم رؤسائه الاعلى منه ، فإنه يخلق عقبات كبيرة أمام التطبيق العملي للتدابير المقررة على مستوى الحكومة . لقد منع التسول مؤخراً في مالي على سبيل المثال . والحال انـه كانت له قيمة دينية . لذلك فإن اي موظف في الريف قد يحاول تطبيق هذا التدبير يجد نفسه موضع حكم صارم من السكان ، ولذلك ايضاً يكون هو اول المستعدين لدفع حصته من الارز او الذرة البيضاء إلى من يأتي لينشد على بابه الصلاة التقليدية : فضنّه بمثل هذه الهبة عار، وترحى للانضباط الاشتراكي !

ان هذه السجايا التي اصبحت عيوباً ، لها نتائج محدودة في النظام الاشتراكي لكنها تصبح بالغة الضرر في النظام البورجوازي. فعندما يكون النظام السياسي والاقتصادي قائماً على الظلم ، يسهل تحويل الروح الرفاقية وحطها إلى مستوى المتاجرة بالنفوذ ، والقبول بعمولة مقابل الخدمة المؤداة ، وانتشار الاكرامية والرشوة ، ودفع النظام إلى حضيض الفساد الصريح .

وهناك سببان آخران يسهلان هذا الانزلاق .

فمن جهة اولى تنهار اخلاقيــة معينة نتيجة الانفصال المفاجىء عن المجتمع التقليدي من غير ان يتاح الوقت لحلول اخلاقية اخرى محلها. فالافريقي عندما يلفظ مجموع عالمه ، يلفظ ايضاً دونما تمييز خير ما كان فيه وما كان ينبغي ان يستمر منه في حياته الجديدة، ولا سيما الشرف والاستقامة. ان السرقة والكذب عار شديد لدى معظـــم السلالات . لكن « المتطور » الذي بقي في منتصف مساره ، والذي قطع جذوره من غير ان يغرس جذوراً جديــدة ، لا يعتم في غالب الاحايين ان يحيــد عن الطريق القويم . ونحن نستطيع ان نستخلص من ذلك درساً : إذا كانت الامبريالية مجرمة بخنقها عن عمد يقظة الافريقي، إلا انه ينبغي بالمقابل ألا يقسر ايقاع التطور قسراً ، انمــا ينبغي ان يلد المجتمع القديم بحرية المجتمع الذي سيخلفه .

ومن جهة اخرى استفحــل خطر الفساد والرشوة لأن افريقي الطبقات الحاكمة راغب في الاستفادة على سعة من السهولات المكلفة للحياة الحديثــة ، وذلك حتى في الانظمة التي تحاول ان تبني الاشتراكية ، الشيء الذي ينجم عنه تناقض فاضح . وهذا الميل مرتبط مباشرة بماضٍ قريب ولا مناص من تحليله بعمق ووضوح إذا كنا نريد ان نفهم سلوك بعض الافارقة المضاد لا شعوريــاً للمجتمــــع .

ان ارتداء الملابس الاوروبية الباهظة ، والتباهي بالقدرة على دفع مثل هذا الثمن ، وامتلاك بيت جميل وسيارة وثلاجــة ، واحتساء الوسكي (إذا لم يكن المرء مسلماً ، وإذا كان مسلماً فبشرط التكفير عن ذلك بصيام رمضان) ، لا تولد ازمة ضمير لدى كثيرين من الافارقة ممن يحسبون انفسهــم اشتراكيين ، في الوقت الذي لا يجهلون فيه ان الدخل السنوي المتوسط للفرد هو حوالي ١٢٠٠٠ فرنك قديم . كما ان ربحهم في اسبوع واحد او اقل ما يربحه الفلاح المتوسط في عام كامل لا يولد لديهــم شعوراً بالانتماء إلى طبقة صاحبة امتيازات . وهـــذا اللاشعور يرجع إلى دوافع معقدة .

فالافريقي المثري يستطيع اولاً بسهولة كبيرة ان يتحرر من هـذه المظاهر

الثانوية المكلفة . فهو كثيراً ما يرجع إلى اسرته الفقيرة في السهب ويشاركها حياة الكفاف من غير أن يأبه كثيراً بحرمانه من رفاهه ، ولا بحرمان الآخرين بالتالي . انه يعتقد صادقاً انه ما يزال ينتمي إلى الجماهير ، نظراً إلى انه لم يقطع ارتباطاته ونظراً إلى انه يستطيع بسهولة ان يجد مكانه فيها من جديد . ومما يعززه في اعتقاده هذا موقف اسرته ، وبالتالي موقف قريته التي تسر لنجاح عضو من اعضائها وتشجعه على الاستمرار في هذا النجاح الذي لا بد ان يلحقها بعض فتاته . وطالما ان القاعدة لا تتمتع بوعي طبقي ، فإن العناصر المتبرجزة ليست مكرهة بدورها على ان تعي انها في طريقها إلى ان تصبح طبقة . ولما لم تكن الجماهير متماسكة البنية ، كما بينت سابقاً ، ولما كان هناك تفاعل دائم بين العناصر المتطورة والتقليدية ، الغنية والفقيرة ، لذلك فإن هذه البورجوازية الجديدة الوليدة لا تدرك انها بدأت تحتذي جزمة السادة البيض القدامى وترث امتيازاتهم .

ان هذه الواقعة تفسر السهولة التي تسرب بها الاستعمار الجديد إلى غالبية الجمهوريات الافريقية : فقد وجد هذا الاستعمار ، بفضل بعض المال والمادة ، وسطاً معداً لاستقباله . ان انتصار الاستعمار الجديد كان ممكناً ، هذا من غير ان نقلل من اهمية دور المصارف والاحتكارات التجارية والامبريالية بمختلف اشكالها ، لأنه وجد تواطؤاً ، اقتصادياً لا سياسياً ، من قبل تلك النخبة التي تتخذ المال والسهولة بالنسبة اليها اهمية كبيرة منذ ان لبيت رغبتها في الاستقلال بالحصول على علم ونشيد وطني .

وحتى في البلدان التي سلك فيها القادة المتبصرون سلوك رجال الدولة حقاً واختاروا الاستقلال الحقيقي لكن المتقشف بدفعهم في اتجاه الاشتراكية، يكثر عدد الذين ينظرون نظرة حسد إلى البلدان التي يتدفق فيها المال بغزارة ، وكلهم استعداد ليصبحوا مستغلين بدورهم . وللاقتناع بذلك يكفي ان نقرأ خطاب موديبو كيتا الاخير الذي كان بالغ الصرامة بالنسبة إلى نخبة العاصمة باماكو .

ان هذا الموقف يتناقض كل التناقض مع بساطة الافريقي الفطرية ، ولا بد

بالتالي من محاولة تفكيك آليته .

من السهل على العنصريين المكابرين ان يقولوا : « ان هؤلاء القادة الافريقيين لا يحبون غير المال وهم مستعدون لتسيير الآخرين بالعصا إذا كان في ذلك ربح لهم . وما ان يحصلوا على شيء من السلطة ، حتى يسيئوا استخدامها، ولا يبالون إن فطس الشعب من الجوع مقابل ان ينالوا ما هم بحاجة اليه ... » . ان هذه الاوصاف تنطبق في الواقع على اولئك اين ين ينسبونها إلى الافارقة ، ولكأنهم يصفون انفسهم ، جميع اولئك « البيض الصغار » الذين استفادوا مدة طويلة من الزمن وظيفة ثانوية في ادارة استعمارية ، او من تجارة فائقة السهولة إلى ان كل شيء منظم لضمان نجاحهم على حساب الافارقة الذين تحرم عليهم حتى منافستهم على هذا الصعيد التجاري الصرف .

لقد عانى افارقة الانتلجانسيا ، طوال سنوات الحقبة الاستعمارية ، من اختناق خفي ، من اجتثاث يومي للمظهر الانساني نتيجة الظلم اكثر مما عانوا من المظهر الاقتصادي لهذا الظلم ، بحيث ان التمييز العنصري الاستعماري جعلهم يقترفون غلطة في تأويل العوامل الاجتماعية . لقد كان الاستعمار من صنع طبقة: فبورجوازية المال احتاجت إلى تلك الاراضي الجديدة لتوظف فيها رأسمالها . وقد استخدمت جهازاً اوروبياً من الموظفين كانت تركن اليه : عسكريين ، موظفين منتخبين ، بورجوازيين صغار طموحين . وباستثناء بعض الحالات النادرة جداً ، كان الجهاز الاستعماري رجعياً ، مجسداً للمثل العليا البورجوازية، همه كسب اكبر قدر ممكن من المال ، ينظم لنفسه حياة غريبة تماماً عن حياة الافارقة ، يتجنب التمييز العنصري « قانونياً » لكنه يحققه « عملياً » بواسطة تفاوت القدرات الشرائية. وكان هذا الجهاز يشكل في افريقية طبقة بورجوازية حقيقية اجنبية الاصل . وقد احس الافارقة بالتمييز من غير ان يفهموا آليته ، وقليلون هم الذين فهموا ان المسألة في الواقع هي مسألة اضطهاد طبقة واستطاعوا ان يستخلصوا من شخصية المضطهِد صفته كبورجوازي . اما الغالبية الساحقة فقد رأت « الابيض » وحده : فـ « الاضطهاد » ليس اضطهاد طبقة بل

اضطهاد عرق ، فأدى هذا الخطأ إلى خلط في القيم الاجتماعية . وعند الاستقلال كانت استعادة وظائف الابيض تعني استعادة امتيازاته التي تمتع بها والتي كان الافريقي يعتقد انه حرم منها بسبب لونه لا بسبب سيادة نظام اقتصادي معين. ان الافريقي لم يدرك انه، بقبوله بهذه الامتيازات، قد قبل في الوقت نفسه بامتيازات طبقية وتبنى لحسابه الخاص الظلم الاجتماعي الذي كان السيد الابيض يوقعه بمواطنيه . وبإخلاصه الظلم الذي عانى منه ، كان يجهل انه يخلق ظلماً آخر . وفي البلدان التي لم يتوفر فيها قادة متبصرون يرغمونه على فتح عينيه ، يبذل الاستعمار الجديد الذي تسرب بسرعة قصارى جهده ليبقيه ضمن هذا المنظور الخاطىء .

والواقع ان هذا الميل الشائع إلى الاستفادة من السهولات المتاحة هو نتيجة للاستعمار وتعبير عن ردود فعل صحيحة وسليمة ، وان فيها شيئاً من الحماسة الزائدة والخرق ، لكائن هو في سبيله إلى وعي ذاته وإلى فهم العالم : انها حاجة انسان حر وواعٍ انه حر . إذن ينبغي ألا تؤول هذه الواقعة على انها عيب عضوي في العرق ، انما يجب ان تفسر كتوكيد للحيوية ، فياض واخرق، يكفي تثقيفه وتوجيهه ليتحول إلى رغبة جماعية في تحسين مصير الشعب بأكمله .

وبالاصل ، إن هذه الرغبة في تملك العالم ليست وقفاً على النخبة وحدها . فقد شرعت تمتد بتؤدة إلى الجماهير ، مؤكداً حيويتها العميقة . أليست هي انتصاراً على الليل في السهوب التي ليس فيها مصابيح كهربائية ؟ ان القروي ما يكاد يملك شيئاً من المال حتى يحلم بشراء راديو ترانزيستور : وهذا دليل على ان العزلة القديمة بدأت تصبح ثقيلة الوطء وعلى ان هناك رغبة في معرفة العالم . ان الفتيان جميعاً يريدون دراجة : وهذه رغبة في مواصلات أسرع وفي تقليل المسافة بواسطة السرعة ، الشيء الذي يشكل نوعاً من الانتصار على الطبيعة المعادية .

لكن مما لا شك فيه ايضاً ان لهذا المظهر الايجابي مقابله الذي يعرف الاستعماريون كيف يستغلونه : فالافريقي قابل بسهولة لأن يصبح مستهلكاً

للسلع الزاهية الزائلة غير ذات النفع . يقول العرقيون : مرض طفولي ، تقليد للابيض . اما نحن فنرى في ذلك على العكس رد فعل سوي يصدر عن كائن يحاول اكتشاف عالم لم نعرف كيف نهيئه له ، او بتعبير ادق عالم لم نشأ ان نهيئه له ، لأملنا في ان نبقيه دوماً على هامشه ، جاعلين بذلك من هيمنة البيض ضرورة ، وبالتالي صنيعاً مستحسناً ، انسانياً . وبذلك ايضاً يكون الرياء البورجوازي قد نجح في تبرير الاستعمار .

ان جميع هذه الاخطاء الفردية مرتبطة إذن بالماضي القريب العهد ، وهي عبارة عن رد فعل عارض لا يسد مستقبل افريقيا ، لكنه يشكل عقبة جديدة في وجه تقدمها إلى الأمام .

★ ★ ★

تلك هي الصعوبات العميقة التي اصطدمت وتصطدم بها الاشتراكية الافريقية . وتنجم عنها ثلاث نتائج اساسية .

اولاً – ان البناء الثوري للاشتراكية في بلد افريقي نال الاستقلال بدون كفاح أمر مستحيل في الوقت الراهن .

ثانياً – ان بناء الاشتراكية برغبة من الحكومة امر ممكن لكن صعب ، ويتطلب من المسؤولين مجهوداً متصلاً ويقظة دائمة . ان مالي هي الدليل على ان مثل هذه التجربة قابلة للحياة .

ثالثاً – ان خدعة الاستقلال المحول إلى هيمنة للاستعمار الجديد عن طريق بورجوازية محلية هو أمر يخشى منه لسنوات عديدة ، والكثير من الحكومات تمارس هذه الخدعة .

هل هذا يعني ان مستقبل افريقيا مسدود ؟ بالتأكيد لا . فالافريقي ، كما بينت في دراسة العوامل الفردية ، محشو الآن بالتناقضات . وهذه التناقضات لا يمكن ان تحل إلا بقفزة جديدة إلى الامام . وستكون هذه القفزة سهلة في البلدان التي عرفت سياستها كيف تعد العدة للمستقبل إذ اتاحت له امكانية تطور تدريجي منتظم عبر افق محدد بوضوح . لكنها ، اي القفزة ، مهددة بأن تكون صاخبة

ودامية في البلدان التي سدت حكوماتها ابواب المستقبل ، والتي لا بـد ذات يوم ان تطيح بها شعوبها . ان الدراسة المفصلة لشروط وحظوظ نجـاح الاشتراكية الافريقية تخرج عن نطاق هذا المقال ، ولكن النظرة السريعة التي القيناها على العقبات التي تصطدم بها الاشتراكية الافريقية تسمح لنا بأن نستنتج بأنــه لا توجد عقبة لا يمكن التغلب عليها ، وبأن خرق كثير من الحكومات وطاقات الجماهير ستخلف ظروفاً ثورية تسمح بتحويـل الاستقلال السياسي الكاذب إلى تحرر اجتماعي حقيقي .

« الازمنة الحديثة »

نيسان ١٩٦٤

الاشتراكيّة الانكليزية

بقلم : توم نيرن

يعتبر حزب العمال الانكليزي من أهم القوى السياسية في العالم الرأسمالي . وهو أكبر الأحزاب الاشتراكية – الديموقراطية قاطبة بفضل عدد أعضائه البالغ ستة ملايين . والاثنا عشر مليون صوت التي نالها في الانتخابات الأخيرة تمثل غالبية الطبقة العاملة . طبقة عاملة لا يقسمها لا الدين ولا الايديولوجية ، وتعتبر عنصر الأمة الحاسم على الصعيد السوسيولوجي . إن حزب العمال ليس محض حزب معارضة . فهو قد اعتاد على الحكم ، وإن كان مارسه في حدود ضيقة . لقد قامت في الماضي ثلاث حكومات عمالية ، ونجمت عن الانتخابات الأخيرة حكومة رابعة ، وهذا ما يعتبر حدثاً بالغ الأهمية في التطور السياسي لأوروبا ، بل للعالم أجمع .

إذا كانت هذه هي نقاط القوة في حزب العمال ، فإن نقاط الضعف فيه لا تقل عنها وضوحاً ، وهي تعبر عن مظاهر مختلفة لتطور سياسي وتاريخي واحد لم يجر بعد تحليله بما فيه الكفاية من العمق . إن حزب العمال قد حيّر دوماً الأجانب بهذا القدر أو ذاك بتاريخه وتنظيمه وفلسفته المغايرة لمثيلاتها في الاحزاب الاشتراكية – الديموقراطية الاوروبية . كما أن الانكليز أساؤوا بدورهم فهمه لأسباب مغايرة . إن اليسار الانكليزي، المعروف بميوله الذرائعية، كان ينفر دوماً من تحليل نفسه بصورة نقدية. وحزب العمال لم يخلق تبعاً لنظرية تملي ما يجب أن يكونه حزب اشتراكي . إنما تأسس تدريجياً وتجريبياً ، شأن المجتمع البورجوازي الانكليزي قبله . ولقد تشربه هذا المجتمع بسرعة ، وكأنه نصب جليل يقبل به المرء من غير أن يطرح أسئلة . وهكذا ورثت الاشتراكية الانكليزية، إلى حد ما ، من المجتمع البورجوازي الانكليزي حبه للرفاه المعنوي، وعلاوة على ذلك فإن حزب العمال يهيمن على المسرح السياسي الانكليزي ، ويضم

عناصر متباينة ، ويمد جذوره عميقاً ، بصورة لا يمكننا معهـــا التفكير باحتمال حدوث تبدل جـــذري بالنسبة إلى ما كان عليه حتى الآن : هل هناك من نقد يمكنه أن يؤثر على مثل هذا التنين ؟ إن الأبعـــاد العظيمة للعمالية الانكليزية تتحدى التحليل .

إن كل تفسير للظاهرة العمالية لا بد أن يكون تاريخياً حتى يكون مطابقاً . ونحن لا نستطيع أن نقوم بتحليل تاريخي من غير أن نأخذ بعين الاعتبار ملاحظة غرامشي القائلة « إن تاريخ حزب من الأحزاب... لا يمكن إلا أن يكون تاريخ طبقة اجتماعية محددة . فكتابة تاريخ حزب تعني بكل بساطة ، في الواقع ، كتابة تاريخ بلد انطلاقاً من وجهة نظر خصوصية ، تخصيصية ، مع إبراز مظهر من مظاهره » . إن هـــذه الملاحظة تبدو سديدة كل السداد بالنسبة إلى حزب كحزب العمال . فأصوله التجريبية ، غير المذهبية ، والطابع المحلي الصرف لجذوره تحول دون إمكانية فصله عن المجتمع الذي أنجبه . إنـــه شأن كل الأحزاب الاشتراكية الجماهيرية حزب مجدد – تجديده لا يتجاوز على كل حـــال كونه نواة مجتمع جديد جذرياً – لكن ارتباطه بالماضي يحجب صفته هذه عن الأنظار . وهذا يتجلى في آن واحد في بسيكولوجيا الحزب وفي بسيكولوجيا الجماهير .

الثورة التي ولدت ميتة

إن الطبقة العاملة الانكليزية هي أقدم طبقة عاملة في العالم ووراءها ماضٍ طويل من التنظيم والنضال . ومع ذلك كانت آخر من شكل حزبـــاً اشتراكياً جماهيرياً . فحزب العمال لم يتأسس في شكله الراهن ، ولم يتبنَّ برنامجاً اشتراكياً إلا في عام ١٩١٨ ، أي بعد حقبة طويلة من تأسيس حركات اشتراكية ـ ديموقراطية كبيرة في فرنسا وألمانيا وايطاليا .

إن الولادة المبكرة للطبقة العاملة الانكليزية بالذات هي التي تفسر جزئيـــاً تطورها البطيء هذا . وكثيراً ما شهد التاريخ حالات غريبة كهذه ، أدى فيها الانطلاق السريع والسابق لأوانه إلى جمود وخمول فيما بعد . والطبقة العامـــلة البريطانية ، التي كانت أول من تحدى سلطة الرأسمـــال ، اضطرت من قبيل رد

الفعل إلى الاحتماء طوال قرن من الزمن في نزعـــة امتثالية ، في اعتدال غريزي متحرس مازال حتى اليوم الفعل المنعكس الأساسي للحركة العمالية .

إن الهجومات الرئيسية التي شنتها الطبقة العاملة البريطانية على البورجوازية قد حدثت في عصر كانت فيه هذهالطبقة تفتقر إلى النضجوكانتمعزولة. وكانت تلك الهجومات عبـــارة عن نضالات طليعية تستند إلى استراتيجيات مرتجلة ارتجالاً بالضرورة ومتعجلة وغير مطابقة. وبالمقابل كان الخصم الذي شنت عليه، أعني الطبقة السائدة الانكليزية ، موطد الدعـــائم منذ زمن بعيد ، ولا يني عن تدعيم سلطته وتضامنه وثقته بنفسه . إن الـبروليتاريا الانكليزية لم تستطع أن ترث ، نظراً إلى أنها كانت البروليتاريا الكبيرة الأولى ، ايديولوجية بروليتارية حقاً ، ايديولوجية اشتراكية ، لتلائمها مع حاجاتها الخاصة ، بخلاف البروليتاريا الروسية،بعد قرن من الزمن، في عالم نصف إقطاعي، وبالرغم من ضعفها العددي. لقد كان على العمال الانكليز أن يبتكروا اشتراكيتهم الخاصة، اشتراكية طوبائية وساذجة مستلهمة من روبير أوين ومن النقابية الثورية في أعوام ١٨٢٩—١٨٣٤ . لقد وصف انجلز في مقطع بات اليوم مشهوراً الاشتراكية الطوبائية بأنهـا ظاهرة نموذجية في المرحلة التي تباشر فيها الطبقة العاملة « بالانفصال عن الجمـــاهير غير المالكة لتشكلنواة طبقة جديدة،عاجزة بعد تماماً عن العمل السياسي المستقل، أي في المرحلة التي تكون ما تزال تعاني فيها من الاضطهاد .. والتي لا يمكن أن تأتيها فيها المساعدة إلا من الخـــارج ، من الأعلى ... وصحيح إلى حد ما أن التصورات الاشتراكيـــة عرضت على العمال « من الأعلى » من قبل أوين ، المثالي المحب للخير . لكن ما ميز الحركة ليس«عجز العمال عن تدبير شؤونهم بأنفسهم» على حد تعبير انجلز ، بل ميلهم الخارق للمألوف إلى تقفي آثار كاذبة لا يمكن أن تقودهم إلى غير الفشل ، وهذه ، كما سنرى ، سمة دائمة من سمـات الحركة العمالية الانكليزية . ولقد كانت النقابية على طريقة أوين تمثل مجهود بروليتـاريا وليدة لتحل وحدها ولصالحها مشكلة استلابها ، من غير أن تبالي بسائر المجتمع ، أي بالطبقة السائدة والدولة وسلطتها ، مجهودها للخروج بنفسها ، في مرحلة وحيدة

بسيطة وحاسمة ، من أوجاع العهد الصناعي الجديد ولبلوغ نوع من فردوس مشاعي .

لم يكن لهذه الحركة من مستقبل غير الفشل . وفي مدى بضع سنوات تمكن تحالف أصحاب المصانع وملاك الأراضي والدولة من قهرها . وأثبتت الهزيمة للجماهير أنها لا تستطيع الخلاص من بؤسها إلا إذا استولت على الدولة ، وهذا ما نمى حسها بالواقع . وهكذا ولدت الشارتية ، تلك الحركة السياسية الإصلاحية الكبيرة التي امتدت بين ١٨٣٧ و ١٨٤٨ . فقد كانت البورجوازية التي ولدت من الثورة الصناعية قد اكتفت بإصلاح ١٨٣٢ السياسي الهزيل . ومن هنا دعمت البروليتاريا الحركة الشارتية لتحتل مكانها في العالم السياسي . بيد أن برنامج الشارتية لم يكن يطالب بأكثر من توسيع منطقي للديموقراطية البورجوازية : انتخابات عامة وسنوية ، التعويض على النواب ، الاقتراع السري .

إن التباين بين الأوينية والشارتية وهزيمتهما المشتركة يتيحان لنا أن ندرك التناقض الأساسي الذي كانت تتخبط فيه الطبقة العاملة آنذاك . فالحركة الاشتراكية التي أطلقها أوين كانت ، بالرغم من محدوديتها ، تهدف إلى ثورة **اجتماعية** حقيقية ، أي إلى تحويل نمط الإنتاج الإقتصادي وجميع العلاقات القائمة في المجتمع البورجوازي . وكانت أقل ما تطالب به تملك العمال لوسائل الإنتاج وإشرافهم عليها . وبعد هزيمة ١٨٣٤ فهمت الطبقات الكادحة أن مثل هذه الثورة الاجتماعية يجب أن تبدأ بالضرورة بثورة سياسية . والثورة السياسية تتطلب بالأصل لتنجح وضعاً ثورياً ، ولا بد أن تكون الطبقات السائدة والدولة التي تمثلها منقسمة على نفسها ، مستضعفة . وهذا معناه معركة رهيبة الطول ، صعبة ، على الطبقة العاملة أن تخوضها ، وأن تستعد فيها لسفك الدماء والحرب الأهلية لتحصل على نتائج جزئية للغاية أصلاً .

كانت الطبقة العاملة عاجزة عن خوض النضال إلى ما لا نهاية في مثل هذه الشروط . وكان وضعها ، بمعنى من المعاني ، بعكس وضع البروليتاريا الفرنسية في العصر نفسه ، كما وصفه كارل ماركس عام ١٨٤٤ : « كلما كان التفكير

السياسي لشعب من الشعوب أكثر تطوراً وشمولية ، بذرت البروليتاريا (في البداية على الأقل) قواها في تمردات عبثية ولا مجدية ستغرق في الدم حتماً . ولأن البروليتاريا تفكر بتعابير سياسية ، لذا فهي تعتبر أن مصدر المظالم يكمن في إرادة إنسانية وإن الوسيلة الوحيدة لتحسين الأشياء هي استخدام **القـــوة والاطاحـــة** بنظام معين . انظروا ، على سبيل المثال ، إلى الانتفاضات الأولى للبروليتاريا الفرنسية . فقد كان عمال ليون يعتقدون أنهم لا ينشدون سوى أهداف سياسية ، وأنهم ليسوا إلا جنود الجمهورية ، في حين أنهم كانوا في الواقع جنود الاشتراكية . وهكذا كان فهمهم السياسي يحجب عنهم جذور بؤسهم الاجتماعي ويمنعهم من فهم أهدافهم الحقيقية **ويثلم غريزتهم الاجتماعية** » . وقد كانت البروليتاريا الانكليزية متخلفة نسبياً على الصعيد السياسي . ولم يكن في إنكلترا تقاليد ثورية كبيرة يمكنها استلهامها. فقد عاشت للطبقة العاملة الانكليزية أيامها الأولى ، طوال الفترة الممتدة بين ١٧٩٠ و ١٨٣٠ ، في ظل **ثورة مضادة** رهيبة كانت بمثابة صدى، في داخل البلاد، للحروب ضد نابليون وللثورة الفرنسية لكن من مفاوقات الأمور إن هذا التخلف أدى إلى تقدم في مجال آخر أكثر أهمية بكثير . فالطبقة العاملة الانكليزية ، المنفية من العالم السياسي ، والمنكفئة على نفسها، اكتسبت حساً أكثر واقعية ، بوضعها الخاص . و« غريزتها الاجتماعية » لم « تثلمها » الأوهام السياسية ، ولا الإيمان بفعالية الثورة السياسية لحل المشكلات الاجتماعية – الاقتصادية . إنها لم تتكون سياسياً كما تكونت الطبقة العاملة الفرنسية ، وهذا شيء أُسف له فيما بعد ، لكنه جنّبها بالمقابل أوهام مثل هذا التكوين . إذن فسوف يكون دورهـا التاريخي الأول السعي ، دونما منهج واضح، إلى إنضاج الثورة الاجتماعية، وسيأخذ تحديها الأول للمجتمع البورجوازي شكل اشتراكية ساذجة مثالية . بيد أنه كان لا بد أن تكتشف ، حسب تعبير ماركس ، أن « الثورة هي ، بصورة عامة ، **فعل سياسي** . وإنه لا يمكنها بعد الآن الاستغناء عن هـــذا الفعل السياسي كما . . . لا يمكنها الاستغناء عن تحطيم العلاقات الاجتماعية القائمة » ، وإن الشارتية لن تسمح لها بإنجاز هذا « الفعـــل

السياسي » .

إن الطبقة العاملة الانكليزية ، التي لا تملك لا الرغبة ولا القدرة على متابعة أسطورة ثورة سياسية لن تكون أصلاً **الثورة الفعلية** ، أي الثورة الاشتراكية التي باتت ناضجة مع ذلك بفضل التقدم المعجز الذي حققته الرأسمالية الانكليزية ، لم تجد موضوعاً لاندفاعاتها الثورية الأولى . وقد كانت هذه الاندفاعات باطلة كلياً . وهل كان بالأصل ينتظرها من شيء غير الهزيمة **الكاملة** ، هي التي كانت رائدة ثورة اجتماعية سابقة لأوانها ، والتي كانت تواجه كخصم أقوى نظام رأسمالي في العالم ؟ ولقد كانت تلك الهزيمة ساحقة لأنها لم تفرض بالقوة . فبعد ١٨٤٨ تبخرت الشارتية وكل الاندفاع الثوري للبروليتارية الانكليزية وكأنهما لم يوجدا قط . وكانت الضحية الأولى لهذه الهزيمة وعيها الطبقي ، إذ يبدو أن نوابضه بالذات قد أصيبت إصابة قاتلة .

النزعة المحافظة الرأسمالية

تأثرت نهاية القرن الثامن عشر وقسم كبير من القرن التاسع عشر تأثراً كبيراً بأيديولوجية « عصر الأنوار » الفرنسية ، وبثورة ١٧٨٩ وبنتائجها . وكانت السبب في ذلك التقدم الفكري والسياسي الهائل الذي حققته البورجوازية الفرنسية بحيث بدت سائر البلدان وكأنها « متخلفة » . والبلد الوحيد الذي كان استثناء للقاعدة هو بريطانيا العظمى . وحتى هذا الاستثناء كان جزئياً ، لأن الثورة البورجوازية الانكليزية حدثت مبكراً جداً ، في بداية تطور البورجوازية ولم تعقلن المجتمع كما فعلت الثورة الفرنسية التي نجمت عنها محصلة من التجارب الفكرية والسياسية أكثر أهمية وأعظم جرأة . لكن بالرغم من أن الثورة الانكليزية تبدو من وجهة النظر هذه نصف ثورة ، كان التطور **الاقتصادي** للبورجوازية البريطانية عظيماً ، حتى أن إنكلترا بدت متفوقة على فرنسا في حوالي ١٨٠٠ اقتصادياً بقدر تفوق فرنسا على سائر العالم سياسياً . ومن هنا كان تأثير الثورة الفرنسية على انكلترا مغايراً جداً لما كان عليه في سائر أوروبا .

إن مجتمع ١٨٠٠ البورجوازي الانكليزي يمكن أن يبدو ، على الصعيد

السياسي والايديولوجي والثقافي ، وباختصار على صعيد البنى الفوقية ، قروياً وقديماً . لكن هذا المجتمع نصف البورجوازي كان متقدماً بالنسبة إلى التجار المزدهرة أحوالهم في لندن وبريستول ، وبالنسبة إلى الصناعيين الجدد في الشمال. كان قد قام بالثورة الصناعية ، أفليس ذلك خيراً من المغامرات الطوبائية الفرنسية ومن « الإله العقل » ؟ وحين جاء عام ١٧٨٩ كانت البورجوازية الانكليزية قد حصلت من التاريخ على كل ما كانت تريده تقريباً ، ولم تكن تتمنى البتة أن تتنافس مع الفرنسيين . بل على العكس ، فسرعان ما تزعمت التحالف الرجعي للدول التي عادت إلى حروب القرن الثامن عشر التجارية والاستعمارية لتهاجم الثورة . وقد ثبّت هذا النزاع البورجوازية الانكليزية في الدرجة التي كانت قد بلغتها آنذاك من التطور السوسيولوجي . إن الانكليز لم يعارضوا الثورة الفرنسية لأنهم مناهضون للثورة روحياً ، وبهدف الحفاظ على نظام إقطاعي مصيره الزوال على كل الأحوال . فالازدهار الرأسمالي بلغ في إنكلترا درجة باتت معها البورجوازية الانكليزية قادرة على أن تحافظ **بنجاح** على بعض عناصر الوضع القديم للأشياء وتدمجها بصورة دائمة بالحياة التأسيسية والاجتماعية.

انه لشيء بالغ الاهميه ان نفهم دلالة هذه النقطة الحاسمة في التاريخ الانكليزي: فتأثيراتها على الطبقة العاملة ما تزال محسوسة إلى اليوم ، نظراً إلى استقرار المجتمع الانكليزي وإلى قابلية الطبقة العاملة الكبيرة لتقبُّل الاخلاق البورجوازية . ان جميع العناصر القديمة في المجتمع الانكليزي الحديث ليست مجرد مخلفات وبقايا من الاقطاعية تتناقض والوضع البورجوازي ، ولا تشكل قطاعاً متخلفاً يسوء البورجوازية ان تتآلف معه . ويمكننا القول ان البورجوازية هي التي **اختارتها** ورعتها منذ الحروب النابوليونية ، ودمجتها عن عمد وقصد بالمجتمع الرأسمالي الجديد . فلقد وجدت فيها البورجوازية البريطانية احد عناصر الحل الذي وقع اختيارها عليه للمشكلة التي تواجهها كل طبقة بورجوازية وطنية . إذ ما يكاد الاقتصاد الرأسمالي يكتسب بعض القوة حتى تواجه الطبقة الرأسمالية عدواً جديداً ولدته الرأسمالية بالذات ، اي الطبقة العاملة . وهكذا تجد البورجوازية

نفسها تحارب على جبهتين ، بعد ان كانت في السابق تناضل فقط ضد الاشكال الاجتماعية ما قبل الرأسمالية، ويتوجب عليها بصورة عامة ان تتوصل إلى اتفاق مع النظام القديم لضمان الاستقرار الاجتماعي . ومن هنا تميل البورجوازية أكثر فأكثر إلى ان تصبح طبقة محافظة .

لقد امكن للبورجوازية الانكليزية ان تستغني عن المرحلة « اليعقوبية » . فقد كانت تحتل ، بفضل ثورة القرن السابع عشر ، مركز قوة يسمح لها باختيار سياسة اتحاد مع الطبقة النبيلة القديمة من ملاك الاراضي ومع الاشكال الارستقراطية القديمة من الحكم القومي والمحلي ومع الملكية والكنيسة الانغليكانية. ان البورجوازية الانكليزية لم تكن **بحاجة** إلى اليعقوبية لتخلف امة متحدة وواعية لذاتها كشرط مسبق لنمو الرأسمالية . فلقد كانت الرأسمالية منتصرة بالأساس ، وما كانت تحتاجه البورجوازية هو قبل كل شيء الاستقرار والرقابة الدائمة على مطالب البروليتاريا وقاعدة متينة تنطلق منها لغزو العالم اقتصادياً . لم تكن بحاجة إلى منح الجماهير الاحساس بأنها تساهم بحماسة في خلق عالم جديد، ولا إلى تعبئة طاقاتها ضد خصم صعب المراس كالعهد الفرنسي القديم . انما كانت بحاجة على العكس إلى وعي وإلى إرادة شعبية **منقسمة على نفسها** . ولقد كان على الطبقات الكادحة ان تتلاءم مع الانضباط الصارم للاقتصاد الرأسمالي وان تندمج بهذه العبودية الجديدة. ولم تسع البورجوازية البريطانية إلى إخفاء السلاسل والقيود تحت ازهار بلاغة مستوحاة من عصر الانوار ومن نزعة حب المساواة ، بينما انبثقت عنها تلك السياسة .

جذور الوعي الطبقي

ان هذا التحالف الغريب بين الثورة الصناعية والنظام القديم يرجع إلى رفض المساهمة عن سابق عمد في فلسفة الانوار . ولقد تأثرت جميع مظاهر الحياة الانكليزية عميق التأثر بهذه الواقعة . وسوف نتناول هنا مظهرين اثنين بالغي الاهمية : التأثير الذي مارسه هذا التحالف على الوعي الطبقي للبروليتاريا ، ثم على المثقفين . وإذا ما فهمنا هذين العاملين فهمنا خصائص الحركة العمالية

الانكليزية واصولها وبنيتها والمشكلات التي تواجهها اليوم بالذات .

ولا ريب في انه لو قامت ثورة في انكلترا بين ١٨٢٠ و ١٨٥٠ ، لكانت تجذرت بسرعة ولبلغت اعلى مستوى من الاشتراكية عرفه ذلك العصر . لكن الطريقة التي تبنت بها البورجوازية الانكليزية النزعة المحافظة بدلاً من اليعقوبية جعلت ذلك مستحيلاً . فالبورجوازية ، بخلقها عالماً مغلقاً ، تسوسه قوانينه الخاصة ، حرمت الطبقة العاملة لا من التجربة فحسب ، ولا من التقاليد التي تتولد من ممارسة الثورة فحسب ، بل حرمتها ايضاً من الوعي الكامل الذي تأتي به بورجوازية مستنيرة ، اي من الوعي المجرد ، الشمولي النزعة ، الثوري بالمعنى الواسع للكلمة ، لأنه يهدم إلى الأبد التسلسلات الهرمية والامتيازات وكل صوفية المراتب الاجتماعية التي عرقلت في الماضي التقدم. إذ لما كانت البورجوازية قد قبلت بالهيمنة السياسية والثقافية لطبقة ملوكي الاراضي النبيلة ، فقد جعلت من هذه الأخيرة طبقة حاكمة ، « طبقة عليا » ، وبقيت البورجوازية بملء ارادتها « طبقة وسطى » (وعماد الامة كما تريد الاسطورة) خاضعة للنخبة من بعض الزوايا. وكان لا بد ان تتمم حلقة « التعبئة الطبيعية » بطبقة كادحة طبيعة عليها ان تعرف بدورها كيف « تبقى في مكانها » .

كان محتماً ألا تنجح هذه الخطة كل النجاح كما كانت تتوقع الطبقات الحاكمة . فمقاومة الشغيلة شوهت مشروع السادة ، ولم تسمح بتوطد هذا الشكل او ذاك من اشكال الهيمنة . وهكذا تكون الثورة المضادة، كما رأينا سابقاً ، ضد الطبقة العاملة قد عززت وعيها الطبقي وجعلتها تتجاوز اطار الديموقراطية البورجوازية وتباشر بنوع من الاشتراكية . وهكذا يكون التأخر ، المفروض من الخارج ، قد ولد التقدم . لكن الهزيمة التي كان لا مناص من ان يتكبدها هذا التيار الثوري ، والشكل الذي اخذته هذه الهزيمة ، حكما بدورهما على الطبقة العاملة بالركون طوال اجيال متعاقبة الى الاستعباد الذي اعدته لها بنى المجتمع البورجوازي الانكليزي . والضغط الهائل الذي مارسه هذا المجتمع الرأسمالي المزدهر والواثق بنفسه ، والذي كان يهدف إلى تضليل البروليتاريا وابقائها تحت

القيود ، كان لا بد أن يترك تأثيره بعد ١٨٤٨ .

بيد ان نمط الوعي الطبقي الذي ولد من هذا الضغط ونضالات البروليتاويا ابقت على هذه التناقضات . وقـــد كانت هذه التناقضات ملازمة لنجـــاح البورجوازية بالذات وملتحمة به : فمن جهة اولى ولدت الاقطاعية الانكليزيـة الكاذبة وكل البنية الفوقية المحيطة بالرأسمالية نمطاً **مغلقاً** من الوعي الطبقي لدى البروليتاريا، فهذه البروليتاريا لم تكن تعقل نفسها إلا كطبقة بين طبقات اخرى وكان لها عن نفسها تصوّر حرفي النزعة وكانت كلها قناعة بأن نمط حياتها متمايز من وجهات النظر كافة عن نمط حياة الطبقات الاخرى وبأن مشكلاتها نوعيـة خاصة بها . ولقد شده المراقبون الاجانب دوماً بكثرة التمايزات بين الطبقات في انكلترا وبالاهمية التي يعلقها عليها الانكليز : فالانتماء إلى هذه الطبقة او تلك ، ورموز هذا الانتماء هي هوسهم الجماعي . وبديهي ان مثل هذا الوعي هو من وجهة نظر الطبقة العاملة شكل من الاشكال التبعية : فاهتمامها بشروطها وحدها وبالمشكلات الخاصة بها وحدها يؤدي إلى اهمال ما يخص مجموع المجتمع ، فيصبح هذا من اختصاص الطبقة السائدة المفوضة لأداء هذه الوظيفة . وإذا مـا ربطنا هذه النزعة الخصوصية بالنزعة الانعزاليـة السياسية والثقافية ، وجدنا ان كلمة المساواة بالذات تبدو وكأنها فارغة من كل معنى بالنسبة إلى الانكليز جميعـاً . لكن حرفية الوعي الطبقي من جهة اخرى تجعل هذا الوعي غير قابل للتدبير عملياً . ان نفس الكمامات التي تسد الآفاق الثورية الكبرى ترغـــم النظر على الشخوص إلى الوقائع المباشرة للحياة اليومية . ان البورجوازية تسود بإرغامها الطبقة العاملة على التأمل والتفكير بذاتها ، بعيداً عن اسرار الدولة ، لكنها لا تستطيع ان تأمل بالتالي في تفتيتها إلى افراد يعتبرون انفسهم مجرد مواطنين في المجتمع البورجوازي . فالطبقة العاملة ، بالرغم من ضيق وجهه نظرها ، وبسبب هذا الضيق بالذات ، لا تستطيع ان تنسى شرطها الواقعي كطبقة عامـــلة . وعندما نفهم ذلك نكون قد امسكنا بمفتاح المشكلة التي تبدو ظاهرياً انها بلا حل إذا ما نظر اليهـــا المرء من الخارج : كيف لا يترافق وعـي البروليتاريا

الانكليزية البالغ الصحو للظاهرات الطبقية بنشاط سياسي كثيف وثوري ؟ أليس هدف جميع الطبقات الحاكمة تقريباً هو على وجه التحديد تدمير هذا الوعي الطبقي العظيم الخطر؟ لكن تصور البروليتاريا لنفسها ليس في الواقع إلا جزءاً مما يسمى عامة «الوعي الطبقي». فهو وعي للانقسام إلى طبقات يتجلى، على مستوى الارادة ، في نوع من السلبية ، اي في نوع من الخنوع تجاه ما يعتبره واقعة من واقعات الطبيعة، تجاه محيط او تطويق لا يمكن فهم سبب وجوده وهو أمتن من ان يمكن تعديله . إذن فهذا الوعي لا يعبر عن نفسه ، في هذا العالم المعزول، إلا كقوة من قوى العطالة لا كديناميكية ثورية . ومع ذلك ، وإذا ما أردنا ان نرى الجانب الآخر من الاشياء ، فإن هذا الوعي الواضح والدقيق يشتمل بالقوة على موقف مناضل وثوري حقاً ، نظراً إلى صحوه تجاه بعض المظاهر الاساسية في المجتمع الطبقي .

المثقفون

ثمة بلدان اخرى عرفت في تطورها مراحل شبيهة بالمراحل التي نتكلم عنها هنا . فقد عارضت البورجوازية الالمانية هي ايضاً الثورة الفرنسية و «الانوار». كما تطورت الرأسمالية اليابانية من دون اي احتكاك مع « الانوار » . وفي كلتا هاتين الحالتين حاولت الطبقة السائدة الجديدة ان تحقق نوعاً من الاندماج مع الطبقة النبيلة القديمة وان تفرض على المجتمع الجديد قيماً ما قبل رأسمالية لكنها لم تنجح في ذلك كما نجحت البورجوازية الانكليزية . فلماذا ؟

ان العامل الاساسي في ذلك هو الطريقة التي ادى بها المثقفون وظيفتهم ، وظيفة انتقاد السلطة والمعارضة وتحويل وعي الجماهير . ففي المانيا ادوا هذه الوظيفة بلا انقطاع ومثالهم في ذلك ماركس نفسه، ووجد هذا التقليد اوجه في الاشتراكية – الديموقراطية الالمانية مع كاوتسكي وروزا لوكسمبرغ وليبكنت. وبالمقابل بقيت معارضة المثقفين في بريطانيا ضعيفة ومبتورة الصلة تقريباً بالجماهير. وهذه هي مشكلة الاشتراكية العمالية الاساسية. فالعمالية هي الشكل التنظيمي الذي وجدته الطبقة العاملة امام غياب كل مجهود من قبل المثقفين لفهم،

وبالتالي تقويض الوصاية المفروضة على المجتمع الانكليزي، وللكشف عن الغايات والوسائل الثورية حقاً . يقيناً ، ان كل حركة ثورية بحاجة إلى نظريتها عن الثورة ، وليست انكلترا هي وحدها التي افتقرت اليها . لكن المشكلة كانت اخطر في انكلترا منها في اي مكان آخر ، لأن مشروع التضليل البورجوازي كان فيها اقوى وأنفذ تأثيراً منه في اي مكان آخر . لقد واجهت مثقفي العالم اجمع مهمة واحدة تقريباً تجاه تكوين الاشتراكية . لكنهم وجدوا انفسهم في انكلترا ازاء مهمة مستحيلة الإنجاز عملياً . فالنزعة المحافظة الانكليزية لم تكن رد فعل انعكاسي دفاعي لنظام رأسمالي في سبيله إلى الأفول ويحاول ان يؤخر نهايته ، بل ولدت على العكس منذ بداية الرأسمالية ، وكانت بناها غير قابلة للفصل عن حظوة هذه الأخيرة ، وهذا ما يفسر استبطان الوعي الشعبي لها : فقد كان لها ثقل الواقعة الطبيعية . ووجدت الطبقة العاملة نفسها ، بعد هزائمها الاولى ، مندمجة بهذا الوضع . وحتى لو كان هذا الاندماج يخفي مقاومة شديدة للنظام القائم ، وحتى لو كان على صلة جدلية بالرفض العنيد لكل شكل من اشكال التمثل، إلا انه لعب مع ذلك دوراً حاسماً. ان نزعة البروليتاريا المحافظة تتجاوب مع النزعة المحافظة لمجموع المجتمع . وكان قيام معركة ثقافية كبرى هو شرط قهر هذه النزعة المحافظة وشرط تحرير الديناميكية العمالية . ولم يكن احد قادراً على خوض هذه المعركة وعلى ضمان النجاح لها غير المثقفين الواعين ، الجاحدين طبقتهم ، والمتصلين اتصالاً صميمياً بحركة الجماهير. ان فقدان العلاقة الجدلية بين النظرية والممارسة هو الذي ولد ، إلى حد ما، الحركة العمالية، وهذا ما يفسر حفاظها ، بالرغم من نقاط قوتها ، على طابع قديم بالٍ . ولقد وقع المثقفون ايضاً ضحية السحر الذي مارسته النزعة المحافظة الانكليزية . فجاء رفضهم لكل احتكاك مع فلسفة الانوار ، ليترك فراغاً عجزوا عن سده ، وليترك ايضاً الحركة العاملة الوليدة محرومة من كل سند .

التريديونيونية الانكليزية

كانت هزيمة الشارتية بداية مرحلة الازدهار الكبير للرأسمالية الانكليزية ،

التي امتدت بين ١٨٥٠ و ١٨٧٥ . فقد اختفت الازمات الدورية عملياً . و« قبل منتصف القرن بقليل ، بدأ مستوى الحياة بالارتفاع بشكل محسوس . ولم يكن السبب المبدئي ارتفاع الاجور بل انخفاض الاسعار . وفيما بعد عندما عاودت الاسعار الارتفاع، زادت الاجور بالتناسب ... وحل محل التمردات والحركات الجماهيرية تنظيم فعال لكن معتدل للنقابات والتعاونيات »[١] . وهكذا بدأ عصر الاندماج. ان هذه النقابة المعتدلة ، التي احتفظت حتى اليوم بوقفها وبناها الاساسية ، هي التي شكلت اساس العمالية. وينبغي ان تنتظر عام ١٩١٨ حتى نراها تطرح على بساط البحث ، ولو لفظياً، مبادىء النظام الرأسمالي .

وفي حين كان للنقابة البدائية ، في ايام اوين ، سياسة شاملة وفلسفة مثالية ، لم تعد النقابات بعد عام ١٨٥٠ تتطلع إلى اكثر من اهداف جزئيـة ، وباتت تسعى إلى ان تجعل من نفسها مقبولة لدى البورجوازية الكبيرة الفيكتورية بوصفها مؤسسات « محترمة » . كانت النقابية البدائية قد سعت إلى تنظيم عمال جميع المهن . ثم اصبحت النقابات ، بعد الهزيمة ، ونظراً إلى تطور الصناعة ، وبوجه خاص الصناعة التعدينية ، الذي زاد من شدة التباعد بين العمال المختصين وغير المختصين ، اصبحت تنظيماً للنخبة العمالية . والمظهر الاساسي للنقابية الجديدة هو «مبدأ حماية المصالح الموظفة من قبل العامل في مهنته»[٢] . بل ان انظمة بعض النقابات الهامة شبهت وضع العامل المختص بوضح رجل ينتمي إلى مهنة حرة ، ولاحظت انه إذا كانت تحق للطبيب المختص بعض الامتيازات وانه إذا كان يحق له ان يحميه القانون من المشعوذين ، فلمَ لا ينطبق الشيء نفسه على العامل المختص الذي امضى فترة تدريبية محددة ؟ لكن طالما ان القانون لا يحمي « امتيازاته » فإن هذه المهمة تقع على عاتق النقابة . وعلى اساس هذه الحرفية الضيقة ، الموجهة ضد ارباب العمل بالدرجة الاولى ، لكن ايضاً ضد كتلة العمال

---

(١) ج. هـ. كول : « تاريخ موجز للحركة العاملة الانكليزية » — ص ١٢٦ .

(٢) س و ب ويب : « تاريخ النقابية » — ص ١٩٩ .

غير المختصين ، نظمت نقابات قوية وديناميكية . وكان قادة النقابات الجديدة يرتبطون سياسياً بالليبيرالية ، اي بحزب البورجوازية الصناعية الذي كان يقوم على عمادين اساسيين : البروتستانتية والتبادل الحر. وهكذا كان العمال متحالفين مع البورجوازية ضد الطبقة النبيلة من ملاك الاراضي الذين كان يعبر عنهم الحزب المحافظ . لكن هذه البورجوازية لم تكن ، كما في البلدان المتخلفة ، بورجوازية ضعيفة تناضل من اجل توكيد ذاتها تجاه اقطاعية كلية القدرة ورجعية . ففي انكلترا ، انتقلت المسألة الزراعية إلى المرتبة الثانية ، وكانت الارستقراطية ، حتى وهي في الحكم ، تخدم عملياً مصالح البورجوازية بحيث ان خضوع الطبقة العاملة الليبيرالية لم يكن إلا تضليلاً . بيد ان تكتيك توجيه اهواء الجماهير السياسية نحو النضال ضد امتيازات ملاك الاراضي احتفظ بفاعليته حتى عام ١٩١٤ .

انما في ذلك العصر شن انجلز هجومه الشهير : « إن البروليتاريا تتبرجز اكثر فأكثر ، واكثر الامم بورجوازية تبدو وكأنها تهدف إلى أن تمتلك ، بالاضافة إلى البورجوازية ، ارستقراطية بورجوازية وبروليتاريا بورجوازية » . ولم يكف ماركس من جهته في رسائله عن استنكار وفضح « سلبية العمال » و « حبهم المسيحي للعبودية » . لكنه لم يرتكب ، شأن الكثيرين من مراقبي ومنتقدي الحركة العاملة الانكليزية ، خطأ إلقاء كل المسؤولية على خيانه القادة . وصحيح انها نادرة الحركات العمالية التي انتجت مثل هذا العدد الضخم من الخونة الذين انتجته العمالية ، إلا ان الاتهامات المتعصبة مذهبياً التي صدرت عن المنتقدين وعن الجناح اليساري من الحزب لم تفد قط إلا في إخفاء الاسباب الحقيقيه لمثل هذه الخيانة ، اي الاسباب التاريخية المتمثلة في عطالة القادة وارتشائهم . ان العمالية نظام **لايمكن** أن يكون على رأسه ثوريون . فقد تطورت العمالية بدءاً من النقابية الفيكتورية ، ولم يكن في وسع هذه الاخيرة إلا ان تكون معتدلة . وإذا كان صحيحاً ، بصورة عامه ، التأكيد بأن التريديونيونية نمط من التنظيم البروليتاري خاص بتلك المرحلة من التاريخ التي يهيمن عليها

الرأسمال .. ووظيفتها غير قابلة للفصل عن الملكيه الخاصة »[1]، إلا انه يبقى علينا أن نفهم لمَ دللت النقابية الانكليزية الكلاسيكية عن تبعية عميقة وطويلة الأمد تجاه المجتمع الرأسمالي .

في بريطانيـــا ، وبين ١٨٥٠ و ١٨٩٠ ، لم يكن هناك من منظمات للطبقة العاملة غير النقابات. ولم يكن هناك وجود حتى عام ١٨٨٠ لأي حركة اشتراكية مهما يكن مداها. وفي الوقت نفسه كانت قدرة البورجوازية على وسائل الرشوة تتعاظم . وكان وضعها الممتاز على صعيد السوق العالمية يسمح لها بالتنازل بعض التنازلات للنخبة العاملة المختصة التي كانت تتألف منها النقابات الاولى . وكان شعور هذه النخبة بأنها تشكل جزءاً من العرق المتفوق الذي يملك جزءاً لا بأس به من العالم يشكل امتيازاً فعلياً . وبعد ١٨٨٠ ، عندما جردت الرأسماليـة البريطانية لأول مرة من بعض أسواقها ، لم يختف هذا الشعور بالتفوق ، بل على العكس نما وتعمق في جو صوفي من الامبريالية .

لم يكن في وسع العمال ، من تلقاء انفسهم ، ان يزيحوا عن كواهلهم نير هذه المجموعة من الشروط التاريخية . وقد بقي الصراع الطبقي طوال اربعين عاماً فاتراً . ونجح المجتمع البورجوازي ، لفترة من الزمن على الاقل ، في تمثل الحركة العاملة . وفي نهاية تلك الفترة، وبفضل قوة النقابات وحظوتها، تكونت عادات وتقاليد وردود فعل انعكاسية دائمة وسمت بميسمها كل المرحلة المقبلة .

ان كل الحيـاة السياسية للطبقة العاملة الانكليزية قد شرطت بهـــذه التريديونيونية . فالمسرح السياسى كان وقفاً على النقابية وحدها ، بخـلاف ما جرى على سبيل المثال في تاريخ الطبقة العاملة الالمـانية . وعندما شرع العمال ، على خجل ، في الاعوام الاخيرة من القرن، بتكوين فكر سياسي ، كانت نقطة انطلاقهم بالضرورة من النقابية . وهل يمكن اصلاً لحركة سياسية يقودها العمال ان تعرف من نجاح من غير ان تعتمد على النقابات وتستخدم قوتها واموال صناديقها

---

(١) غرامشي .

ونفوذها ؟ ثم ان النقابات عرفت في الأعوام العشرة الاخيرة من العهد الفيكتوري ، بعد اضراب عمال ميناء لندن المشهور عام ١٨٩٠ ، عرفت تطوراً كبيراً . فهذا الاضراب وما تلاه من احداث كان اشارة لبدء دخول جماهير العمال غير المختصين إلى النقابات . وقد اعيد تنظيم الحركة النقابية ، وتكونت نقابات كبيرة تضم العمال غير المختصين . وقد ارتفع عدد المنتسبين إلى النقابات في مدى بضعة أعوام من حوالي ٧٥٠،٠٠٠ إلى مليون ونصف مليون ، وبلغ مليونين في عام ١٩٠٠ .

ان هذا التطور وهذا التبدل الجزئي في طابع الحركة النقابية الانكليزية يعودان إلى ان الرأسمالية الانكليزية عرفت ، منذ نهاية احتكارها العالمي ، ازمات دورية ومصاعب . ورافق ذلك بداية حملة تحريض اشتراكي واسعة ، قامت بها اول جماعة ماركسية انكليزية (الاتحاد الاشتراكي — الديمقراطي الذي تأسس عام ١٨٦٣) والجمعية الفابية (التي تأسست عام ١٨٨٤) والحزب الاشتراكي (رائد حزب العمال الراهن) والحزب العمالي المستقل (الذي تأسس عام ١٨٩٣) . وقد ادى هذا التحريض إلى قيام ارباب العمل بهجوم مضاد انتهت عام ١٩٠١ بإلغاء حق الاضراب عملياً. وقد دفع هذان العاملان النقابات إلى العمل السياسي . لكن العامل الثاني كان وحده الحاسم : فالقادة النقابيون لم يتبينوا ضرورة عمل العمال سياسياً إلا عندما اصبح هذا العمل شرطاً لا غنى عنه للحفاظ علىالنقابية نفسها .

لقد كانت الوظيفة التاريخية للنقابية ، تلك الوظيفة غير القابلة للفصل عن المجتمع الرأسمالي كما قال غرامشي ، هي حماية مستوى حياة العمال وشروط عملهم ، مع عدم الكف عن النضال ضد آليات النظام الرأسمالي . وهي لم تكن تفترض من الطبقة العاملة بالتالي من موقف آخر غير اعتبار نفسها فرعاً خاصاً من المجتمع ، له مشاكله النوعية الخاصة. لقد كان الهدف الوحيد للنقابة الوصول إلى تطبيق قواعد اللعبة على العمال. ان مثل هذه « النزعة الاقتصادية » كما سماها لينين فيما بعد يمكن ان تستلزم العمل السياسي كما يمكن ألا تستلزمه ، تبعاً

لحاجات الطبقة العاملة ودرجة تطورها . ولقد شهدت العقود الاخيرة من القرن الطبقة العاملة الانكليزية تكتسب ، بواسطة نقاباتها ، تفهماً افضل لوحدتها الماهوية (بالتعارض مع الطابع الجزئي للروابط على اساس الحرفة) وتحاول فيما بعد نشدان مصالحها الجماعية بواسطة اشكال من العمل السياسي . لكن هذا من غير أن تتخطى حدود « النزعة الاقتصادية » .

عالم غير ماركسي

إذا تذكرنا ما قلناه عن المجتمع البورجوازي الانكليزي وعن الطريقة التي كان يخدع بها البروليتاريا، وجدنا انفسنا نستنتج بأن دخول الافكار الماركسية الى انكلترا كان يمكن أن تكون له اهمية كبيرة . افليست الماركسية هي الحل البديهي الذي يسمح بسد الثغرات الملاحظة في تطور انكلترا التاريخي ؟ لقد كانت المذهب الطبيعي للطبقة العاملة في الوقت نفسه الذي كانت فيه تركيباً لفلسفة الانوار وللفكر البورجوازي الاكثر تقدماً . وقد كان لها من التفوق على النزعة المحافظة البورجوازية ما يكفي الطبقة العاملة ، لو تبنتها ، لتتغلب اخيراً على العقبات التي عرقلت تطورها . بيد ان انجلز اعترف بصراحة ، بعد بضعة اعوام من تأسيس الاتحاد الاشتراكي — الديموقراطي ، بأنه يلاقي مصاعب : « من الواضح انه ليس من السهل على المرء ان يفرض افكاره على امة كبيرة بطريقة دوغمائية متمذهبة ، ولو كان يملك خير النظريات المتجاوبة مع شروط حياتكم الواقعية ... » . والواقع ان المهمة بدت مستحيلة التحقيق. ومن اسباب ذلك ان الماركسية ، بالشكل البدائي الذي كان يجسدها به « الاتحاد »، لم تكن تتجاوب حقاً مع شروط الحياة الواقعية لانكلترا وللبروليتاريا الانكليزية . يقيناً، لقد كانت قائمة على التحليل العام للأسس الاقتصادية لهذا الوجود. لكن السمة الاساسية للحياة الاجتماعية كانت تتمثل على وجه التحديد في ان معظم الناس ما كانوا يعون هذه الاسس، ولا يرون غير شبكة العلاقات الزائفة المنسوجة حولها. ولم يكن ماركس وانجلز قد كرسا إلا وقتاً قليلاً لدراسة هذه البنى الفوقية. ونحن لا نستطيع ان نلومهما على ذلك، لكن هذا فرض بالضرورة مشكلات على تلامذتهما الانكليز .

ان اي نظرية من النظريات لا يمكن ان توضع موضع تطبيق وان تصبح قوة ثقافية وسياسية إلا إذا كانت صدى لتجربة معاشة. لكن وعي هذه التجربة يمر بتوسط البنى الفوقية ولا يعقل إلا بصورة جزئية وغير مباشرة الاساس الذي تقوم عليه. وعلى هذا فقد كانت هناك ضرورة حيوية في انكلترا لفك ألغاز الواقع الاجتماعي ككل حتى يمكن للماركسية ان تتغلغل في الحركة العاملة. كانت الافكار الماركسية بحاجة إلى تطور خلاق كبير: فالماركسية، كما هو معروف، غير قابلة البتة للتطبيق كما هي بكل بساطة، بل لا بد من استخدامها لتطوير النظرية نفسها. لكن الانتلجانسيا الانكليزية كانت لها آنذاك، مع الاسف، مشاغل اخرى. وهذا ما حكم على السياسة العمالية بأن تكون في البداية تجريبية. وبعد عشرات السنين، عندما امتدت الحركة إلى الجماهير وشكلت تهديداً سياسياً لليبيرالية (بعد الحرب العالمية الاولى)، توجب إلى حد ما استبدال التجريبية بشيء آخر لضمان حد ادنى من الانسجام. توجب ان يردم الفراغ الذي تركه فشل الماركسيين بالتيارات الاشتراكية الاخرى، النشيطة منذ ١٨٨٠.

الاشتراكية البريطانية

كانت هذه النظريات «الوطنية» قليلة الاهمية، إن لم تكن معدومتها. ولم تكن تعكس من شيء غير الروح الفكرية الاقليمية الضيقة لبورجوازية متفائلة ومعتدة بنفسها. كانت ترجع إلى تقاليد بورجوازية من الدرجة الثالثة لتجعل منها تقاليد اشتراكية اكثر وضاعة ايضاً، فارضة على الطبقة العاملة تفكير البورجوازية الصغيرة الفيكتورية الضيق والمعتد بنفسه. كانت اشتراكية الفابيين منحدرة من المذهب النفعي، ذلك النوع من العقلانية البورجوازية المتحرزة، المحدودة، التي تبنتها الطبقات المتوسطة ابان الثورة الصناعية. وقد اصبحت العقلانية البورجوازية عقلانية اشتراكية بمجرد إحلال الدولة محل القوى السحرية العاملة على اساس المبدأ الرأسمالي «دعه يعمل»: فقد كلفت الدولة بالطريقة الآلية نفسها بتوفير «اكبر قدر من السعادة لأكبر عدد». وترى ايديولوجية الموظفين الصغار هذه انه حتى عندما تجعل الطبقة العاملة، بطريق الاقتراع،

الاشتراكية ممكنة ، فإن السلطة ستمارس في الواقع من قبل نخبة ابدية من خبراء غير ادعياء ... تكون لهم الكفاءات والخبرة الادارية الضرورية »[1] . وكانت اشتراكية الحزب العمالي المستقل تنحدر من جهتها من الشيع البروتستانتية . فمنذ القرن السابع عشر مثلت البروتستانتية إلى حد ما التمرد الشعبي على الدين « الرسمي » ، الانغليكانية التي كانت ، متجاوزة في ذلك الكاثوليكية بالذات ، دين الطبقات الحاكمة . وإذا كان الفابيون لا يملكون إلا القليل من الافكار ، غير الجديدة كل الجدة بالاصل ، فإن هذه الاشتراكية الموروثة عن المسيحية لم تكن تملك من افكار البتة . فقد كانت الشيع المنشقة ترتاب دوماً في العقل الذي كانت تربطه مع الشيطان . ومن هنا فإنها ما كانت تستطيع ان تعطي إلا نوعاً من اشتراكية تقوم على مبدأ تهذيب الاخلاق ، وتستند لا إلى تحليل موضوعي للعالم بل إلى الايمان بأنه شرير وظالم . كانت الاشتراكية تبدو قبل كل شيء كصليبية اخلاقية مدعومة بالرفض الساخط للظلم والألم .

ومن الاهمية بمكان ان ندرك العلاقة بين هذين التيارين من الايديولوجية الاشتراكية الانكليزية ، لأن هذه العلاقة تتحكم في بنية الايديولوجية العمالية . ان النواحي المشتركة بينهما كانت تكفي اولاً ليتحدا ويعملا متضافرين . كانا يقبلان (الفابيون عن قناعة ، واشتراكيو الحزب العمالي المستقل بالنظر الى عدم توفر حل افضل) بأن الاشتراكية يمكن ان تتقدم بالتطور ، وبأنه لا يمكن ان تبنى إلا على مراحل متجزئة ، منفصلة ، وبصبر . وكان هذا معناه نفي اهمية دور الاستيلاء على السلطة . وهذا الخطأ طبيعي اذا ما تذكرنا كم كان المجتمع البورجوازي يخفي وقائع السلطة ويقلل من أهمية الصراع الطبقي . ولم يكن الفابيون يفهمون العصر الرأسمالي من حيث انه « سيطرة طبقة على سائر الطبقات » ، بل كانوا يعتبرونه مجرد « مرحلة من الفوضى » ، مرحلة « عدمية ادارية » تتوسط الادارة الاقطاعية القديمة من جهة والادارة الاشتراكية والجماعية

---

(١) بياتريس ويب : « تعاوننا » – ص ٩٧ .

الجديدة من جهة ثانية . وسوف يشفي المجتمع نفسه بنفسه من هـــذه الفوضى المؤسفة ، وسوف تزيد الدولة من رقابتها وتدخلها، والدور الوحيد للاشتراكيين هو عدم معاكسة هذا الميل السوي ، والعمل في الاتجـــاه نفسه بدعمهم التأميم وسلطة البلديات. وطالما أن المجتمع الراهن ليس نمطاً محدداً من الحكم بل محض خطأ تاريخي ، فإن الاشتراكية لا يمكن ان تكون مهمتهـــا استبدال هيمنة بأخرى .

والنتيجة العملية لهذه « النزعة التطورية » كانت منطقياً « البرلمانية » . فإذا كان الهدف بناء الاشتراكية على شكل مجزأ فلا داعي لتجاوز العمل البرلماني . ألم يكن جيمس رامسي ماكونالد ، زعيم الحزب العمالي طوال ثلاثين عامـــاً ، و « شاعر الاشتراكية » على حد قوله ، ألم يكن يقول في مدائحه : « أن روح الاشتراكية البناءة تولد من الديموقراطيـــة السياسية . حين تقترب الشمس من الأرض في الربيع ، يدفأ النسيم وتزدهي حواشي الطريق بألوان زاهية . والحياة هي بجانب ساعات الربيع. كذلك فإن الاشتراكية هي بجانب الديموقراطي..» وإذا كان البرلمان الانكليزي يمثل ، في هذه الرؤية الغنائية ، « الديموقراطية » ، فإنه في الواقع يمثل أكثر منها بكثير . إن للنظام البرلماني الانكليزي ماضيـــاً عريقاً ، ولقد كان « أبو البرلمانات » هذا يملي شروطه على من يريد الدخول إليه. وبعبارة أخرى ، كان البرلمان الانكليزي مظهراً مركزيـاً من مظاهر مشروع التضليل الذي تقوم عليه الهيمنـــة البورجوازية ، كان أسطورة حية . وكانت ثنائيته التقليدية (نظام الحزبين) تعبر عن إنقسامات داخل طبقـة متحدة في جوهرها ، لا عن تعارض بين الطبقات ، ومن هنا كانت ودية العلاقـات التي تسوده والتي جعلت منه « خير نادٍ في انكلترا كلها » . وأمام وضع كهذا لم يكن أمام الحركة السياسية الجديدة للطبقة العاملة إلا أن تندمج بالنظام ، وأن تظهر كمنافس جديد ينتزع أصوات الناخبين من الحزب المحافظ والحزب الحر ، لا أن تأمل وتعمل على تبديل النظام السياسي عينه .

كان من المحتم أن تكون الغلبة في هذا الاتجـــاه للفابيين على الحزب العمالي

المستقل . فلقد كان الفابيون بماهيتهم تكنيكيين للاصلاح ، وربما كانوا ايضاً اكفأ اختصاصيين انتجتهم الاشتراكية . كان اهتمامهم كله ، جهدهم كله يتركز دوماً على ما هو ممكن مباشرة ، على اهداف محددة وقابلة للتحقيق في المجتمع كما هو . وكان حسهم الحاد بما هو ممكن ، واحترامهم الكبير للوقائع، ومعلوماتهم، وحججهم التي لا مآخذ يؤخذ عليها ، كان هذا كله يجعل منهم مصلحين فعالين. وكانت منظوراتهم تتفق بالطبع مع تصورهم « التطوري » للاشتراكية ومع مذهبهم البرلماني . وبالمقابل كان اشتراكيو الحزب العمالي المستقل ، في غالبيتهم ، من أصل عمالي ، ويفتقرون إلى التكوين التكنوقراطي . وكان تمردهم على المجتمع ، بمعنى من المعاني ، أكثر **أصالة** من تمرد الفابيين : فقد كان رد فعلهم ضد الرأسمالية عاطفياً متأججاً ، وكانوا ينظرون بعين الجد إلى الهدف النهائي للحركة الاشتراكية ويريدون ان يبدأ تغيير جذري اثناء حياتهم ، لا في مستقبل غير محدد ، بعد سلسلة لا متناهية من اصلاحات جزئية . كانوا يرفضون **غريزياً** منظورات النزعة التطورية والبرلمانية ، لكنهم لما كانوا يقبلون بهذه الاخيرة **فكرياً** ، فقد كانوا مرغمين على القبول بقيادة الفابيين . كانوا يفتقرون إلى الافكار وإلى الاطارات الثقافية التي تتيح لهم ان يصيغوا ما يتحسسونه، وكانوا يتعثرون في نزعة اخلاقية بروتستانتية جديدة ، ولا يملكون تصوراً واضحاً عما يجب أن **يفعلوه** ، عملياً ، لتحقيق حلمهم الاشتراكي . وبالمقابل كان الفابيون يعرفون دوماً ما ينبغي فعله .

وبعبارة أخرى كانت كيفيات العمل ، في حدود العمالية ، محددة عملياً من قبل الفابيين . ويمكن القول ان تقاليد الحزب العمالي المستقل كانت تمثل الجانب العاطفي من الحزب ، بينما كان الفابيون يمثلون جانبه الفكري . وامام وضع كهذا كان محتماً ان تصبح اشتراكية الحزب العمالي المستقل ، بالرغم من قاعدتها العمالية ، وبالرغم من كونها اكثر انسانية بما لا يقاس من الفابية ، معارضة يسارية ذات شكل احتجاجي عقيم . ولم يكن في وسع الحزب العمالي المستقل ، الذي كان يرفض محدودية الفابيين ، لكن الذي كان يفتقر إلى الأفكار الموجهة التي

تسمح له باعطاء تمرده شكـلاً منسجماً ، والذي كان مشلولاً داخل العمالية ، لم يكن في وسعه غير ان يشكل اقلية معارضة دائمة ، لا تملك الوسائل لاستلام الحكم بدورها .

طريق مختصر إلى الاشتراكية

إن هذه الاعتبارات تساعدنا على تعرف المشكلة الاساسية الثانية في العمالية. **فالتريديونيونية** ما كانت تستطيع ، باتساعهـــا ونفوذها ، إلا أن تهيمن على الحركة السياسية الوليدة . ان الاحراج الذي اصطدم به جميع رواد الاشتراكية قد وصفه لنا كولي (في حديثه عن الحزب العمالي المستقل) : « لقد ادركوا بسرعة أن عليهم إما أن يطلبوا تحالف النقابات وإما أن يرضوا بتطور بطيء للغاية لحزبهم ، بفضل الانتسابات الفردية ، كما كان يفعل الاشتراكيون في باقي القارة . ولما كانوا لا يريدون ان ينتظروا ، فقد آثر معظمهم الطريق السريع إلى تكوين حزب عمالي ، وان يعتمدوا على انتماء النقابات ، حتى لو ادركوا أن ذلك سيبهت أهدافهم الاشتراكية .. » . والواقع ان الحزب العمالي كان نوعاً من « طريق مختصر » إلى الاشتراكية (لكنه طريق تبين عند الاستعمال أنه أطول وأوعر مما ظن الاشتراكيون الاوائـــل ، وربما أطول في النهاية من الطريق العادي) . بيد ان عدم رغبة الاشتراكيين في الانتظار لم تكن السبب الوحيد لهذا الاختيار . أن مجموعة كاملة من العوامل دعمت القناعة بأن الاشتراكية لا يمكن ان تتطور إلا « ببطء شديد » . وقد حاولنا تبيان ذلك آنفاً . النزعة المحافظة الساحقة للمجتمع الانكليزي التي تسربت إلى الطبقـــة العاملة نفسها وزادت من حدتها الامبريالية، فشل المثقفين في مواجهة هذه النزعة المحافظة وفي تقديم أسس اشتراكية انكليزية حقيقية ، بطء تطور جميع الافكار الاشتراكية وما تلاه من بطء في تطور الحركة التي كانت منعدمة الصلات مع حركات سائر البلدان الاوروبية،الشيء الذي أدى إلى هيمنة النقابات اخيراً ونزعتها الاقتصادية الحذرة : إن هذه العوامل كلّها كانت وراء « الحل البديل » الذي انتهت إليه العمالية . وعندمـــا اتفقت النقابات أخيراً على تأسيس حركة سياسية عمالية ، رحب الاشتراكيون بدون شروط بشروطها . أن الحزب المنوي انشاؤه لن

يكون اشتراكياً ، لكنه سيقف نفسه على المصالح المباشرة للعمال ، أي سيكون ما يشبه نقابة كبرى تمثل مصالح مجموع الطبقة . وفي البدء كانت هـذه المنظمة تسمى « لجنة تمثيل العمال » . وفي عام ١٩٠٦ ، يوم حققت انتصارها الانتخابي الاول – ثلاثين نائباً – بدلت اسمها لتصبح « الحزب العمالي » . لكن إذا كانت النقابات هي التي تمول الحزب الجديد ، فإن القسم الأعظم من منظميه وقادته كان مؤلفاً من اشتراكيين . وقد انتمت الجمعية الفابية والحزب العمالي المستقل إلى الحزب الجديد بنفس صفة النقابات وقدما له إطاراته . هذا هو القالب الذي تكونت فيه الصفات المميزة للاشتراكية الانكليزية ، وهي نفس الصفات التي سيأخذها حزب العمال في مجموعه عندما أصبح حزباً اشتراكياً نهائياً عام١٩١٨ .

إن الديناميكية الداخلية لهذه الاشتراكية تفسر المشكلة الاساسية الثانية في الحركة العمالية . ففي الحزب العمالي أصبحت الفابية الاتجاه السائد ، ألى يمين الحزب . وقدمت له قادته وجميع الأفكار التي أسست عمله تقريباً . وقد كان زعماؤه جميعاً تقريباً إما فابيين علنيين(اتلي،غيتسكل)وإما فابيين ضمنيين مهما يكن في الظاهر ماضيهم واتجاههم (ماكدونالد ، هندرسون ، لانسبوري) . وقد أصبح الحزب العمالي المستقل الجناح اليسارى من حزب العمال ، الجناح الذي كان ينقض غريزياً قيادة الحزب ، لكن الذي كان عاجزاً فكريـاً عن الحلول محلها . إذن فالعمالية كان لها ، من البداية ، **يسار شديد الضعف** . وهنا تكمن مأساة العمالية الصميمية ، لأن اليسار قد عبر دوماً عن أكثر العناصر حيوية في الطبقـة العاملة ، وعن أنشط القوى الاشتراكية وأكثرهـا أصالة ، والقادرة **افتراضياً** على الهيمنة على الحزب والدولة . لكن اليسار العمالي ، إذ عـــبر عن تلك العناصر والقوى بالصورة التي شرحناها ، وضعهـا تحت تصرف اصلاحيي الجناح اليميني.وهو لم يستطع أن يؤثر حتى على القيادة ، إلا في ظروف استثنائية ولفترة قصيرة من الزمن . ولهذا أمكن للقيادة ذات الاتجاه الفابي ، المدعومـة دوماً من النقابات ، أن تضمن لنفسها الاستقرار والاستمرار ، وان تصبح نوعاً من سلالة حاكمة شبه مستقلة عن مجموع الحزب . وهذه السلطة العضوية الدائمة

حالت بدورها دون أي تطور للجناح اليساري ، وشلت تقاليد الحزب العمالي المستقل التي كان من الممكن أن تكون بداية حزب اشتراكي حقيقي . وهكذا تحولت بقايا هذا الحزب إلى معارضة يسارية لكن غير فعالة .

إن « يسار » العمالية يملك أيضاً طبيعة ووظيفة مغايرتين لطبيعة ووظيفة الاحزاب الاشتراكية الاخرى . ولاماركسيته ليست إلا أحد مظاهر طابعه المتمايز . وحزب العمال ما أمكنه أن يصبح التعبير السياسي الأكبر عن الطبقة العاملة الانكليزية وأن يبقى كذلك مدة طويلة من الزمن إلا لأن جناحه اليساري كان من النمط الذي حللناه . ولو كان يسار حزب العمال غير ما هو عليه ، لعرف حتماً الانشقاقات التي عرفتها سائر الحركات العمالية .

مراؤون وخونة

بدءاً من ١٩٠٦ لعب حزب العمال دور «مجموعة ضاغطة» لحساب النقابات . ولم تكن هذه المجموعة الضاغطة كبيرة الفعالية . فقبولها السلبي بالبرلمانية جعلها تابعة في غالب الاحيان للحزب الحر . وحتى نفهم تطور حزب العمال من بداياته يجدر بنا أن نثبت تصريحين لبن تيليت ، المناضل النقابي الذي لعب دوراً حاسماً في تأسيس الحزب العمالي المستقل وحزب العمال . ففي عام ١٨٩٣ أكد أن على الاشتراكيين أن يعملوا قبل كل شيء على اكتساب « تعاون نقابيي البلاد ، لأنهم رجال حسنو التنظيم ، يدفعون اشتراكاتهم ، اشتراكيون في عملهم اليومي ، لا على المنبر فقط ، وليسوا من الذين يصرخون مطالبين بثورة دامية ثم يلزمون عقر دارهم يوم تأتي .. » . وكان يقول إنه يفضل النقابية المتينة بروحها الواقعية واندفاعها وكفاحيتها على خمسين حزباً ثورياً وعلى « جميع خطباء القارة المسهبين .. » . تلك هي روح العمالية الاصيلة : ذرائعية تهجمية ، شوفينية مبتذلة ، مضللة بالتعارض الكاذب ، العزيز على الاشتراكيين – الديموقراطيين ، بين « الثورة » المفهومة على أنها يوم دامٍ وبين « التطور » المفهوم على انه مقادير صغيرة من الاشتراكية تضاف بانتظام إلى بعضها بعضاً . ومع ذلك فإن بن تيليت نفسه نشر ، بعد خمسة عشر عاماً ، كتاباً هجائياً مشهوراً تحت عنوان « هل

فشل الحزب البرلماني » ؟ إتهم فيه النواب العماليين بأنهم « مراؤون يخونون بدناءة الطبقة التي محضتهم ثقتها » . لكن « الحزب البرلماني » العمالي لم يكن إلا النتيجة المنطقية للموقف الذي دعا إليه تيليت نفسه عام ١٨٩٣ . ان « الرياء» و « الخيانة » ينبعان بصورة طبيعية من النزعة الاقتصادية ومن الفكر البورجوازي « المتين بواقعيته واندفاعه » الذي حامى عنه بحماسة . فالنقابيون ما كانوا « اشتراكيين في عملهم اليومي » ، والاشتراكيون الذي زعموا العكس وقالوا إن بإمكان حزب سياسي كبير أن يعتمد عليهم كما هم كانوا سياسيين وما كانوا « اشتراكيين في عملهم اليومي » . إن ملاحظة تيليت تبين بوضوح البعد الذي كانت تفتقر إليه العمالية : تربية اشتراكية للجماهير تعبد لها طريق الوعي الحقيقي في عملها اليومي . إن علاقة العمالية بالطبقة التي تمثلها هي في جوهرها علاقة **سلبية** . أنها تقبل بالطبقة العاملة وبالمنظمات التي خلقتها هذه الطبقة خلال تطورها — النقابات — على أنها معطى يفرض نفسه فرضاً ، كما هو . أنها تعتبر أن دورها ، هي التي تأخرت في دخول المسرح السياسي كجهاز لطبقة تكيفت مع شروط المجتمع البورجوازي وتشربت نزعته المحافظة ، لا يعدو أن يكون أكثر من متابعة هذا التطور . لكن النماذج التي اقتدت بها العمالية في تطورها الفكري والعملي كانت نماذج مغلوطة . وتلك هي غلطة العمالية الاساسية ، إن تكوين حزب عمالي وما يمثله من انتقال إلى الصعيد **السياسي** ليس مرحلة كسائر المراحل ، ليس تقدماً « طبيعياً » شأن أي تقدم آخر . إنما المسألة مسألة انقلاب جذري وتبدل نوعي . إن الصعيد السياسي هو صعيد السلطة : فالحزب السياسي يتطلع إلى شكل معين من الهيمنة على مجموع المجتمع ، وهدف الحزب الاشتراكي أن يستخدم هذه الهيمنة ليعيد تنظيم المجتمع . ومشكلات الهيمنة ليست من نفس طبيعة المشكلات التي تصادفها النقابات ، أو على الاقل النقابات كما وُجدت في بريطانيا حتى عام١٩٠٦ . فإذا كانت الهيمنة ما يجب أن تكونه ، أي تحولاً حقيقياً ، فإنها تفرض على طبقة محددة لم تعرف في تاريخها غير التبعية ، وعلى منظماتها ، تبدلاً واسعاً ، وتوتراً وتطلعاً إلى آفاق جديدة ، وتثقيفاً

جذرياً . والشعور بضرورة هـــذا التبدل لا ينبثق عفوياً لدى الطبقة العاملة ، وبخاصة الطبقة العاملة الانكليزية في العصر الامبريالي ، ولا ينتقل إلى القـــادة السياسيين بصورة ميكانيكية . إن الأساس البروليتاري الصرف للحزب العمالي الجديد قد حرمه من الثقافة السياسية الاشتراكية ، وفرض أن تكون اطاراته من الطبقة السائدة بالذات مثل اتلي وغيتسكل ودالتون وغيرهم .

هل هذا معناه أن الطبقة العامـــلة لا تستطيع أن تشيد حركة اشتراكية تكون معبرة حقـــاً عن طاقاتها السياسية الكامنة إلا بإشراف مثقفين ثوريين وانتلجانسيا أصولها السوسيولوجية غير بروليتارية ؟ إن مثل هذا القول هو وجه آخر ناقص من الحقيقة . فالادعاء بأن المثقفين يحركون الطبقة العاملة كالدمية ليس إلا النقيض المصطنع للادعاء بأن الحركة السياسية تولد عفوياً من الطبقة العاملة . والواقع أن العلاقة الجدلية بين القـادة والجماهير ، بين « المثقفين » و « المنفذين » هي وحدهـا التي تستطيع أن تخلق حركة سياسية بروليتارية واشتراكية حقاً (وهي علاقة تتلاشى فيها في النهـاية ، كما لاحظ غرامشي ، التمايزات بين المثقفين والمنفذين) . وغياب هذا الجدل (الذي نستطيع أن نفهمه أيضاً على أنه علاقة بين « النظرية » و « الممارسة ») جمد العمالية في قالب بقي نهائياً بالرغم من الضغوط . إن فشل المثقفين التاريخي ، أن « خيانة الكتبة » هذه التي كانت ثمرتها العمالية ، لا تعني إذن أن العمال افتقروا إلى طبقـــة من مثقفين ينحنون من عـالي حكمتهم على مشكلاتهم ، إنما تعني أنهم افتقروا إلى المفاعل الذي تحتاجه الحركة الاشتراكية لتكون ذاتها .

ان الاشتراكية ، على حد قول شاعرها في عام ١٩١٢ ، « يجب ان تنطلق من الوحدة الاجتماعية ، لا من صراع الطبقات ، لأنها الواقعـــة الأولى في المجتمع » (١) . وعلى هذا ينبغي ألا ندهش اذا كان الحزب العمالي الجديد ، بعد حياة برلمانية لم يفعل فيها من شيء سوى انه زحف ، قد اسرع في عام ١٩١٤

---

(١) جيمس رامسي ماكدونالد : « النقابية : دراسة نقدية » ـ ص ٥٠ .

يشارك في الحرب العالمية الأولى . لقد تحولت الحركة العمالية الرسمية الى اداة بيد السياسة الحكومية بسهولة أكبر مما في سائر البلدان الأوروبية . وقد لوحظ انه « عندما جاء عام ١٩١٤ ، توصل اعضاء السلك الحاكم الاصحى فكراً الى اعتبار القادة العماليين خصوماً وحلفاء في آن واحد »[١] . وبعد ١٩١٤ كفوا لمدة طويلة من الزمن عن ان يكونوا خصوماً . واشترك الحزب العمالي لأول مرة في الحكومة عام ١٩١٥ . وقد ادت الحرب ايضاً الى إضعاف النفوذ الاشتراكي داخل حزب العمال ، وزادت من حـدة الانشقاقات بين النقابيين واشتراكيي الحزب العمالي المستقل بسبب الميول السلمية التي ابداها بعض هؤلاء الأخيرين .

لكن الحرب العالمية الأولى كان لها ايضاً مفعول آخر . فهي الـتي كونت حزب العمال بالشكل الذي نعرفه به اليوم . لقـــد ارغمت ظروف الحرب الحكومة على اقامة جهاز واسع لرقابة الاقتصاد ، بما فيه الاسعار والايجارات ، وذلك في بلد عاش حتى ذلك اليوم في ظل نظام « دعه يعمل » . وقد بدا هـذا للحركة العمالية كبرهان على عدم ملاءمة الرأسمالية ، وكنوع من « اشتراكية الحرب » يمكن الحفاظ عليه وتعميمه بعد الحرب. ان صدمة الحرب قد فتحت العقول لإمكانيات جديدة ، لرغبة غامضة في عالم جديد ، وهذا ما سهل تقدم الافكار الاشتراكية . وفي عام ١٩١٧ ولد عامل الثورة الروسية . وقد شده العمال الانكليز اذ رأوا شاعر الاشتراكية وغيره من الشخصيات المماثلة يدعون الى « ان تقام في كل مدينة ، في كل دائرة مدينية وريفية مجالس لمندوبي العمال والجنود (سوفييتات) لتحريك وتنسيق نشاط الطبقـة العاملة ... ولتحقيق التحرر الاقتصادي والسياسي لبروليتاريي العالم اجمع » . ان هذا النداء الحماسي الى ثورة انكليزية على نمط الثورة الروسية سيبقى بلا غد ، لكن مجرد حدوثـه يدل الى اي حد انفتحت الحركة العمالية للتغير وللافكار الجديدة .

حزب العمال الحديث

لقد انجزت الحرب العالمية اذن ما عجزت الجماعات الاشتراكية الانكليزية

(١) ر . ميليبان : « الاشتراكية البرلمانية » ـ ص ٣٨ .

الصغيرة عن تحقيقه . فتحت تأثير هذا الضغط الخارجي الكبير قبلت الحركة العمالية في مجملها في النهاية بشكل معين من الاشتراكية : لقد بات في امكان الحزب العمالي اخيراً ان يصبح حزباً اشتراكياً لا مجرد حزب نقابي . لكن لما كان هذا الاهتداء الى افكار جديدة قد حدث في زمن كان فيه الاشتراكيون انفسهم في منتهى الضعف ، فقد بقي في اضيق الحدود . واذا كان القادة النقابيون قد تقربوا من الاشتراكية بوصفها مفهوماً مجرداً ، إلا ان ريبتهم في شخص الاشتراكيين زادت اكثر من اي وقت سبق ، وما كانوا على استعداد تام للتفكير بتحويل جذري للحزب العمالي . والشخصية الكبرى في هذه المرحلة الانتقالية كانت آرثر هندرسون ، النقابي السابق وزعيم حزب العمال ابان الحرب . لقد فهم ان الامكانية متاحة للحزب العمالي ليصبح حزباً سياسياً قومياً حقيقياً ، وان حزباً كهذا لا بد له ان تكون له ايديولوجيته : ومثل هذه الايديولوجية لا بد أن تكون اشتراكية الالهام حتى تقبل بها الجماهير في تلك الظروف . وما هي إلا خطوة واحدة الا الامام - حذرة ، تجريبية — حتى وجدت الاشتراكية الانكليزية أخيراً أداتها ، واحتلت مكانها في سماء السياسة ، في منتصف الطريق بين مجلس اللوردات وفتيان الكشافة .

وحرر مشروع دستور جديد للحزب (بيد هندرسون وسدني ويب إلى حد كبير) وتم التصديق عليه فى مؤتمر خاص في شباط ١٩١٨ . ولم تطرأ على هذا الدستور الذي ما يزال ساري المفعول إلا تعديلات تفصيلية . لقد كان هدفه اعطاء الحزب تنظيماً متناسباً مع ايديولوجيته الجديدة ومطامحه الجديدة . فحتى ذلك الحين لم يكن إلا مجموعة من منظمات «مترابطة» من نقابات وجماعات اشتراكية ، ولم يكن لديه منتسبون فرديون . ومذ ذاك بات يجمع المنتسبين كسائر الاحزاب الاشتراكية — الديموقراطية ، مع انه لم يكن حتى ذلك الحين قد عرف غير وجود عارض ، مفتقر إلى الاستقلال الذاتي ، وكان قد تطور في دائرة غير محددة ليست هي بالسياسة تماماً ولا بالنقابية تماماً . ومذ ذاك سيصبح سلكاً سياسياً حقيقياً ، ينشد اهدافاً سياسية حقاً ، ويستمد قوته من

شبكة قومية من المناضلين ، لا من دعم المنظمات الاخرى . وبكلمة واحدة ، انها ولادة جديدة لحزب العمال .

ان التغيرات الاجتماعية التي تقترحها الاشتراكية كبيرة . ان تحقيقها يتطلب اجيالاً متعاقبة ، ونضالات صعبة بدأنا الآن فقط بفهمها . والشيء المؤكد ان هذه التغيرات تستلزم مجهوداً ومساهمة فعالة من عدد كبير من الناس ، ولا يمكن ان تكون من صنع دزينة من القادة السياسيين ، او بضع مئات من النواب في البرلمان . لكن ما الوسيلة التي يملكها الحزب ليعبىء الارادة الشعبية التي تستطيع وحدها ضمان نظام اجتماعي جديد؟ان الوسيلة هي مجموع المناضلين الاشتراكيين، او ما يسمى بـ « الجماهير » فالجماهير ، من وجهة نظر اشتراكية ، هي التي تؤلف الحزب ، وهي التي تستطيع ان تحول الافكار الى قوة مادية ، وان تصبح الطليعة التي ستوجه الطاقات . ونظراً الى ما ستكون الاشتراكية ، ونظراً الى انه يتوجب على الحزب الاشتراكي ان يكشف سلفاً وقدر الامكان عن مستقبلها، فإن على الاشتراكيين ان يعلموا واضح العلم ان الحزب حزبهم هم ، وان توجيهه مسألة تتعلق بهم جميعاً . ونظراً الى ان الاشتراكية ستكون ديمقراطية بصورة عميقة ، فان على كل حزب اشتراكي ان يتطلع الى ان يكون من الاساس ديموقراطياً . ان دلالة الاشتراكية بالذات تفرض مبادىء تنظيمية معينة . واذا كان قد سبق لنا ان نوهنا ببعض النواقص الايديولوجية في التقاليد الاشتراكية الانكليزية ، فان احداث ١٩١٨ والتكوين الجديد لحزب العمال كشفت على صعيد التنظيم عن نواقص اخرى توازي الاولى وتزمتها وتجسدها في بنيان قومي كبير . وقد احتقر يمين الحزب دوماً هذه المشكلات لسبب بسيط وهو ان التنظيم الراهن للحزب يضمن له السلطة الدائمة عليه . كما رفض اليسار من جهته الاهتمام بها لأنه كان دوماً مقتنعاً (مدفوعاً بنزعته الاخلاقية المعتادة) بأنه مهما يكن التنظيم فمن الممكن هدي نفوس البشر الى القضية الصالحة بفضل الكلمة الطيبة . واذا كان الاشتراكيون انفسهم يرفضون فهم تنظيمهم الخاص ، فلا داعي لأن يكون هذا التنظيم مفهوماً على نحو أفضل من الخارج .

والحق ان بنية حزب العمال تعكس بدقة كبيرة كل تاريـــخ الحركة في انـكلترا . بنجاحها وفشلها . ولقد رأينا كيف أن النموذج المهيمن في انـكلترا على حياة ومؤسسات الطبقة العاملة قد اصبح بالضرورة محافظاً ، لا يستطيع ان يولد سوى موقف حرفي مبتور عن سائر المجتمع . ولقد كانت النقابات حارسة هذا الموقف ، وحارسة مستوى حياد العمال ايضا . وعندما احتفظت بسلطتها داخل الحزب بعد ١٩١٨ ، حافظت ايضاً على هذا الموقف . وفي حين ان المهمة الموضوعية للاشتراكية في مثل تلك الفترة ، هي اصلاح مثل هذه الرؤية للعالم ، بقيت هذه الرؤية مثبتة في قلب الاشتراكية ، وكانت الاساس ، المتين كالصخر ، الذي بني عليه الحزب . ان تجديد ولادة الحزب عام ١٩١٨ ، تلك الخطوة الى الامام نحو الاشتراكية ، كان ايضاً خطوة الى الوراء نحو الماضي ، استنكافاً عن قطع الصلات مع ذلك السياق التاريخي الذي درسنا خطوطه الكبرى . إن ما من شيء يعبر عن المعنى الحقيقي لـ « التجريبيـــة » أو « التطورية » الانـكليزية كتاريخ تكوين حزب العمال . ان تلك الفلسفة العمليـــة ، الحذرة ، الشديدة الاحترام للماضي ، التي كانت بالنسبة الى الطبقة الحاكمـة الاداة الفكرية التي لا تشوبها شائبة ، قد تبنتها ايضاً الطبقة العاملة لأنها لم تجد بديلاً يفضلها . وواضح انه اذا أبعدت عن وظيفتها الاصليـة ، عن مبرر وجودها ، فلا بد ان تنقلب رأساً على عقب وان تأخذ معنى مغايراً تماماً . ان الواقعيـة تصبح ، لدى القادة العماليين ، جنباً خالصا ، اسلوبا في الاستسلام للحدث . والحس العملي يصبح نوعا من قصر نظر متعمد ، وهرباً من التأمل النظري الذي تستلزمه الاشتراكية . واحترام الماضي يصبح صنمية تعبد رموز نفس تلك النزعة القومية التي يتوجب على الثورة الاجتماعية ان تقلبها رأساً على عقب . ولم يكن في وسع حزب العمال ، الذي كانت هذه الانشوطة تضيق الخنـاق عليه ، إلا ان يكون تسوية : لا تسوية من تلك التسويات الشريعة البارعة التي يتبـاهى الانـكليز بأنهم يملكون سرها ، بل تسوية اوقعت كل قوى الاجيال الجديدة في حبال الماضي وانهكتها في صراعات باطلة وسخيفة .

بقي حزب العمال ، رغم تحوله إلى حزب اشتراكي ، جهازاً للنقابيـــة ، « مجموعة ضاغطة » لحساب النقابات . ان جهاز الرقابة فيه ، نظرياً ، هو المؤتمر السنوي الذي يعقد عادة في اواخر ايلول او في مطلع تشرين الاول في احـــد مراكز الاستجمام الكبيرة . واكثر من ثمانين بالمئة من اصوات هذا المؤتمر تأتي من النقابات : انهـــا تمثل حوالي خمسة ملايين منتسب ، مقابل مليون من المنتسبين الفرديين . وهذا معناه ان الغالبية الساحقة من اعضاء الحزب تنتمي اليه بواسطة النقابات . وهذا ما يجعل منهم اعضاء اسميين لم ينتموا اليه بقرار فردي مدروس بل لمجرد انهم ينتمون إلى نقابات تنتمي اليه . ومما يعزز هذا الطابع « النقابي » الصرف عدم اهتمام النقابات بالمناقشات السياسية ، واقتصار مؤتمراتها على دراسة القضايا النقابية الخالصة . ومع ذلك فإن هذه الكتلة من الاعضاء غير العاملين ، الشبيهين بنفوس غوغول الميتة ، تتمتع في مؤتمر الحزب بنسبة تمثيلية تتجاوز من بعيد نسبة الاعضاء الفعالين ، تضمن لها التحكم بمصائر الحزب ، واحياناً بمصائر البـــلاد .

ولما كانت هذه الكتلة مؤلفة من نفوس ميتة ، ولا تشكل قوة سياسية فعالة ، فهي لا تستطيـع ان تمارس فعلاً هذه السلطة . وكل ما هناك انها تستخدم من قبل الرجال الذين يمسكون بزمام السلطة فعلاً ، اي من قبل المندوبـــين إلى مؤتمر الحزب . وهؤلاء المندوبون يمثلون في الواقع اطارات مختلف النقابات والاجهزة البيروقراطية التي تشرف على النقابية الانكليزية . وعلاوة على ذلك فإن عدداً صغيراً من النقابات الكبيرة يتمتع بدوره بالغالبية بين مجموع النقابات . ولما كانت النقابية الانكليزية تفتقر إلى حد المركزية والتلاحم نظراً إلى تطورهـــا ، هي الاخرى بطريقة تجريبية ، ولما كان « المجلس العام لمؤتمر النقابات » يتمتع بحظوة لا بسلطة فعلية ، فإن المفوضين النقابيين لا يمثلون في مؤتمر الحزب اتجاهاً موحداً. وإذا كانت الظروف التاريخية التي سبق ان حللناها قد مكنت الفابية من الهيمنة على مجموع الحزب والنقابات ، وحتى على الجناح اليساري المزمن الضعف ، فإن

تنظيم الحزب يعطي هذه الهيمنة اساساً دائماً ثابتاً ، وتعارض بيروقراطيته كل امكانية للتطور نحو اليسار . ولقد أظهر القادة النقابيون دوماً ارتيابهم في « المثقفين » ، واحترامهم القطري « للحس العملي » والاعتدال و « الحس السليم » . وهذا لا يمنع ان تكون زمرة معينة من المثقفين ، غير المثقفين في الحقيقة ، غير المتمردين على التقاليد ، الامتثاليين ، الدارسين في الجامعات القديمة ، الراغبين في تغيير المجتمع من غير مساس بتابواته الاساسية ، قد استلمت قيادة الحزب بشكل دائم بتفويض من بيروقراطيي النقابات . وما اتلي وغيتسكل وويلسون إلا ممثلين لهذه الانتلجانسيا الخانعة . وهكذا يتجسد الثقل الميت الذي يفرضه الماضي على الطبقة العاملة على الصعيد الايديولوجي ، على صعيد التنظيم ايضاً . ان الاشتراكية ، قوة المستقبل ، تبقى في شكلها الانكليزي وثيقة الارتباط بالماضي ، لا في افكارها ومشاعرها فحسب ، بل ايضاً في بناها .

الاشتراكية البرلمانية

يمكن القول ان العمالية خلقت لتستلب بصورة منهجية المناضل الاشتراكي ، العضو الفرد الذي دخل إلى الحزب عن قناعة سياسية وشعوراً منه بأن الاشتراكية قابلة للتحقيق في مستقبل قريب . ان العمالية تستقطب بالضرورة هذه الطاقات الثورية لأنها هي وحدها التي تمثل الطبقة العاملة وتقاليد اشتراكية وطنية . انها تستغل اشتراكيتها إذ تجعلهم يلعبون دوراً في عمل الحزب اليومي ، ثم تهجرهم في منتصف الطريق بسبب من طابعها بالذات الذي يجعلها تطرح جميع القوى التي ترفض الخنوع للمحدودية والاعتدال القصير النظر . ان « اللجنة التنفيذية القومية » التي تنتخب سنوياً في مؤتمر الحزب تضمن سلفاً غالبية يمينية فيها بفضل اصوات نفوس النقابية الميتة . وقد دلت الاحصاءات على ان النقابات تحتل ثمانية عشر مقعداً من اصل الثمانية والعشرين مقعداً في « اللجنة التنفيذية القومية » . كما تدل هذه الاحصاءات نفسها على ان هذه الغالبية قد امتثلت دوماً للخط السياسي المقترح من قبل الزعماء البرلمانيين للجناح اليميني من الحزب . ومع ذلك فإن « اللجنة التنفيذية القومية » ليست هي التي تدير الحزب . بل هي

جهاز تابع . وكذلك شأن المؤتمر السنوي ، وعملياً « الحزب » كله ، اي مجموع التنظيم . فـ « الحزب » ليس في الحقيقة إلا اداة لخدمة « حزب » آخر ، متمايز ومستقل بنفسه ، هو بالنسبة إلى الحزب الاول بمثابة الرأس من الجسم . ان هذا « الرأس » مؤلف من « الحزب العمالي البرلماني » ، اي من جميع اعضاء الحزب النواب في البرلمـان . وفي حين ان دستور الحزب وتنظيمه الشكلي يعطيان الاولوية للمؤتمر السنوي وللجنة التنفيذية القومية ، نجد ان ديناميكيته الفعليـة تضع السلطة بين ايدي البرلمانيين العماليين .

سبق ان اشرنا إلى خضوع العمالية للطقوس البرلمانية ايديولوجياً . لكن هذا الخضوع يتجلى ايضاً على صعيد التنظيم . لقد رأينا كيف ان ظهور العماليـة المتأخر على المسرح السياسي الانكليزي قد حـال بينها وبين ان تكون مجددة . ولقد وجد زمن كانت فيه البرلمانات تعبر بصورة مباشرة ، عضوية ، عن الطبقة الحاكمة وعن الانقسامات الثانوية نسبياً الموجودة داخل هـذه الطبقة . وفي انكلترا ، كما في كل مكان آخر ، كان « الاعيان » يلتقون في جمعيـة هي صورة رمزية عن المجتمع . بيد ان حق الانتخاب الذي منح للجماهير قلب طابع الحياة السياسية رأساً على عقب : فقد ادخل اليها ، او هدد بأن يدخل اليها صراع الطبقات . وكانت الطريقة الوحيدة التي تتيح لهذه القوة المهددة ان تعبر عن نفسها او تتيح الرقابة عليها وعرقلتها ، هي خلق احزاب سياسية جماهيريـة . وفي انكلترا جاء تكوين هذه الآلات السياسية الضخمة ليشير إلى ان البرلمان ما عاد في وسعه ان يكون ، كما في السابق ، السلطة العليا في قلب الدولة . لقد بات محتماً عليه ان يصبح بالتدريج مجرد ميدان لصراع الاحزاب ووسيلة لوصولها إلى الحكم : ميدان صراع وليس صوتاً وحيداً يعبر عن هيمنة اجتماعية دائمة . وهكذا تكون صوفية البرلمان قد غرقت في فوضى الصراع السياسي بين الاحزاب . لكن هـذا التطور لم يسر في مجراه الطبيعي في انكلترا . ففي الوقت الذي راح فيه حزبا الطبقة السائدة التقليديان ، المحافظون والاحرار ، يتحولان الى آلات كبيرة من هذا النوع ، نجحا في اخفاء تحولهما وفي الحفاظ على

صوفية وسيمنستر [1] وعلى واجهة الدستور الانكليزي القديم . وقد بقيت « الاحزاب » ، بالمعنى الذي نفهمه اليوم ، تابعة لجماعات الاحرار والمحافظين المنتخبين في البرلمان ، اي « للاحزاب » بالمعنى القديم وبوصفها تجمعاً للاعيان . والى اليوم ايضاً ، لا يظهر اسم الحزب الى جانب اسم المرشح في اوراق الاقتراع: فالاوهام الدستورية تريد ان يجري التصويت لشخص لا لحزب ! والاحزاب الخارجة عن البرلمان تظل ، في نظر الدستور ، اجهزة غير مؤهلة للرقابة على البرلمان او البرلمانيين ، ولا لتوجيه سياسة الاحزاب داخل البرلمان .

لقد كان هذا تكتيكاً محافظاً يستهدف تجنب مخاطر نظام الاحزاب الجديد . فقد كانت الديموقراطية داخل الحزب الشكل الوحيد للديموقراطية الممكنة بالنسبة الى الجماهير التي كانت ما تزال مستعبدة حتى ذلك الحين ، وبالنسبة الى الطبقة العاملة الجديدة والى الحركات الاشتراكية التي تسعى الى الكفاح باسمها . لقد كانت « الآلة الكبيرة » ، التي كانت تبدو عظيمة الخطر بالنسبة الى المعجبين بالماضي والمتمسكين بأذياله ، كانت تمثل بالنسبة الى الطبقة العاملة وحركاتها الاشتراكية التحرر ، والشكل الممكن الوحيد للتعبير الجماعي الذي كان يسمح لها به المجتمع البورجوازي . لكن هذه الآلة ما كانت تستطيع ان تلبي حاجاتها إلا اذا مثلت تجديداً حقيقياً، أي إلا إذا اعطت الاولوية للتنظيم الجماهيري الجديد على مندوبيه الى البرلمان ، والا اذا خلقت رابطة ديموقراطية اصيلة بين الجماهير وبين من يزعمون انهم يرفعون نضالها الى مستوى التمثيل البرلماني . وانما بهذه الصورة وحدها كان يمكن للصراع الطبقي في الواقع الاجتماعي ان يأمل بالتعبير عن نفسه في الحياة السياسية . وهذا على وجه التحديد ما يريد « الدستور الانكليزي » تجنبه . لقد مدت البرلمانية الانكليزية فخاً للحركة العمالية فسقطت فيه هذه الاخيرة ، على رأسها قبل قدميها ، ولم تتحرر منه قط . ان التطور اللاحق لحزب العمال ، كما سنعرضه فيما بعد ، لا

---

(١) قصر البرلمان في لندن . « المترجم »

يفعل من شيء سوى انه يؤكد هذه العبودية .

يلاحظ روبيرت ميكتري في تلخيصه تطور العمالية من هذه الزاوية مدى التفاوت بين اصل الحزبين الكبيرين الحديثين وبين دلالتها العميقة ايضاً : « بينما خلق الحزب المحافظ في البرلمان تنظيماً جماهيرياً لخدمة مصالحه الخاصة ، كان حزب العمال اولاً حركة لم تخلق حزباً برلمانياً إلا لتوصل صوت الطبقة العاملة الى مجلس العموم » . ثم يضيف : « بيد ان هذا الفرق الحيوي ظاهرياً سرعان ما طواه النسيان ، لأن حزب العمال .. بدأ يشبه اكثر فأكثر سائر الاحزاب البرلمانية الكبيرة كلما اصبح عدلاً لها في الحجم والقوة . وعندما بدأ الحزب العمالي البرلماني يمارس وظائفه عام ١٩٢٤ ، كان التحول قد اكتمل تقريباً » . واصبحت السلطة الفعلية كلها بين ايدي قادة الحزب العمالي البرلماني . وامحت ديموقراطية الحزب العمالي الجديدة امام ديموقراطية الدستور الانكليزي القديمة . او اصبح حزب العمال بدوره محض آلة انتخابية في خدمة البرلمانيين . وهكذا تكون الطبقة السائدة الانكليزية قد خلقت نظاماً دفاعياً مزدوجا ضد الاشتراكية . فنظام الاحزاب هو بحد ذاته (على فرض ان البرلمان تهيمن عليه الاحزاب) عقبة في وجه تطور صراع الطبقات ، بيد ان هذا النظام نفسه يحتوي على بذور امكانية تبدل او ثورة ينبغي ألا تغيب عن الانظار . ان الطقوس التي تحيط بالدستور هي سد في وجه نظام الاحزاب في شكله الحديث ، حزام واق من مخاطر العالم السياسي الحديث . والهيمنة القديمة للبرلمان على الحياة السياسية تستغل اليوم لفصل الجماهير عن قادتها السياسيين ولتحطيم الديموقراطية التي لا يمكن بدونها ان توجد اشتراكية .

ان كل شقاء العمالية يكمن في ان الاسرار شبه الالهية للطقوس البرلمانية ليست في متناول المناضل العادي . هذه واقعة يبدو ان قادة الجناح اليساري انفسهم لا يدركون اهميتها . ألم يصرح انورين بيفان ، الزعيم اليساري ، ان العمالي البرلماني يجب « أن يفسر السياسة الواجب انتاجها على ضوء النظام البرلماني وكل نهج آخر لن يفعل من شيء إلا أن يشوش الموقف »؟ لكأن بيفان لم يفهم أن

الموقف مشوش أصلاً نظراً إلى قدرة الحزب العمالي البرلماني على رقابة ما يجري في المؤتمرات السنوية ، وبالتالي على اختيار السياسة التي يتوجب عليه فيما بعد أن « يفسرها » .

تلكم هي الحلقة المفرغة التي يواجهها الاشتراكيون : وعود مستمرة بالسير نحو الاشتراكية ، وفي الوقت نفسه ابتعاد مستمر عنها. والصورة العامة للحزب تظهر لنا كيف تدور هذه الدائرة. إن نقطة ارتكاز الحزب هي الدعامة المحافظة المتينة التي تمثلها الغالبية النقابية ، وقطيع الأعضاء الأسميين الذين يتحكم قادة النقابات في أصواتهم . تلكم هي القوى التي تدعم الجناح اليميني المؤلف من الفابيين والتي تضمن لهم غالبية مريحة في المؤتمر السنوي وفي اللجنة التنفيذية القومية . لكن حتى ولو رفضت النفوس الميتة أن تسيّر كالدمى ، كما حدث مرة في تاريخ الحزب ، فإن ذلك لن يكون قاضياً بالنسبة إلى اليمين . فاليمين يستطيع دوماً بعامل رقابته على الحزب البرلماني ، أن يفقد قرارات المؤتمر السنوي كل أهمية لها . إن النواب العماليين في مجلس العموم ينتخبون من قبل ناخبي الدوائر الانتخابية ، وفقاً لمبادىء الدستور الذي يعلمهم أنهم مسؤولون بالدرجة الأولى أمام الذين انتخبوهم وبالدرجة الثانية أمام ... ضميرهم ! وحزب العمال خارج البرلمان لا يحق له أن يقف بين عضو في البرلمان وبين ضميره ! وبالرغم من هذا كله ، تُرعى لفظياً بعناية أسطورة الطابع الديموقراطي لحزب العمال .

ثرثارون ، متعصبون ، أصحاب رؤى ، ومتطرفون

تضمن دستور الحزب الجديد « المادة ٤ » المشهورة التي التزمت فيها الحركة بـ « أن تضمن للشغيلة اليدويين أو الفكريين نتاج عملهم كاملاً وأعدل توزيع لهذا النتاج ، بفضل الملكية الجماعية لوسائل الانتاج وبفضل خير نظام ممكن لإدارة جميع الصناعات وجميع الخدمات ورقابتها من قبل الشعب » . والحق أن لغة هذا النص ، على جرأته بالنسبة إلى العمالية ، لغة مهترئة وبيروقراطية : إذ يخيل إلينا أن مستقبل الإنسانية سيخرج من درج موظف صغير . وقد تكشفت الروح التي تختفي وراء هذه الكلمات على حقيقتها في أول مناقشة جرت بعد تقرير

الدستور الجديد . فقد اتخذ قرار بـ «إعادة البناء الاجتماعي » بعد الحرب العالمية ونص على « بناء تدريجي لنظام اجتماعي جديد قائم ... على تعاون ناضج عـاقل في ميدان التوزيع والانتاج ، وعلى جهد الجميع في سبيل مساواة سوية ،ومساهمة أكبر عدد ممكن في السلطة الاقتصادية والسلطة السياسية ، وتلك الروح العامة من التعاون من خلال المودة التي تميز الديموقراطية الحقيقية » . إن لغـة هذا النص المزوقة المنفوخة تحول دون الإدراك الواضح لمضمونه. لكن المتبصرين من الجناح اليساري لاحظوا غياب كل إحالة فيه إلى **ملكية** وسائل الانتاج ، ووقف شخص يدعى السيد فيرشايلد ليحتج . وقد لاحظ أن هـــذا القرار لا يتفق والدستور الجميل الذي ما يزال جديداً كل الجدة ، وأنــه يمكن تفسيره على أنه دعوة إلى « التعاون » بين العمال وأرباب العمل . وألح قائـــلاً : « يطالب القرار بإنشاء جيش من البيروقراطيين والخبراء ، من غـير أن يعترف لمجموع العمال بالحق في توجيه وسائل الإنتاج لصالح الطبقة الممثلة في هذا المؤتمر ... وانبرى أبو الفابية عينه ، سدني ويب ، ليردّ على فيرشايلد ممثل اليسار الذي لم يكن ويب يرى فيه كما صرح في مكان آخر ، سوى مجموعة من « الثرثارين المتعصبين ، أصحاب الرؤى ، والمتطرفين» . واعترف ويب بأن الدستور يتضمن فعلاً ما أشار إليه فيرشايلد ، لكنه أضاف بأن هناك عملاً كثيراً أمام المؤتمر وبأنه «لا يستطيع أن يضيع وقته في تكرار المبادىء الكبيرة المعادة المرددة ، إذن فلم يكن المبدأ الاشتراكي الأكبر الأمل الأكبر الذي يجسده الحزب ، سوى فكرة مكررة ، في نظر ويب والغالبية الحاكمة ، يجدر تناسيها أثناء عمل الحزب العيني. وخلاصة القول أن الاشتراكيه يجب أن تبقى مكانها ، في الدستور وإن كان من الممكن أن يأتي هذا أو ذاك من الناس ليبدي إعجابه بها ، أو ليشير إليها في اللحظات العاطفية . أمـــا الثرثارون ، المتعصبون ، أصحاب الرؤى المتطرفون الذين يتمنون أن يربطوهـا بصورة حية بالعمل الواقعي لحزب العمال ، فينبغي أن يُبعدوا ويقصوا. ولقد تلقوا درساً آخر عند مناقشة القرار السابع المتعلق بالبطالة. فقد نجح هذا القرار في إغفال كل إحالة إلى سبب البطالة ، النظام الرأسمالي. فاعترض أحدهم بقوله: ألا يجدر بنا أن نهاجم

النظام الرأسمالي صراحة ؟ فانبرى ويب من جديد ليرد على الاعتراض وقال : « لا فائدة على الاطلاق من العودة من جديد إلى فكرة قديمة مكررة معادة. لقد سمعنا مثل هذا الخطاب عشرات المرات ، ولقد أصبح مملاً رتيباً » . الرأسمالية علة الداء الاجتماعي ، والاشتراكية دواء هذا الداء : هذا ما كان يعين حزب العمال يعتبره « فكرة معادة مكررة » منذ تأسيس حزب العمال الراهن . ومن الخطأ أن نفكر بأن قادة الحزب قد أمكن لهم أن « يخونوا » المبادىء الاشتراكيه في هذه اللحظة الدراماتيكية أو تلك من تاريخ الحزب . فقد كانت « الخيانة » دوماً جزءاً لا يتجزأ من الحزب . وهي لا تعود ، كما يقول اليسار غالباً ، إلى رياء بعض الأفراد أو إلى انحطاطهم الأخلاقي ، بل هي نتيجة منطقية لكل اتجاه الفابية . إن التطورية أو « التدرجية » تفصل فصلاً مطلقاً الحالة النهائية للاشتراكية إلى مستقبل افتراضي ، وتقيّم التقدم الذي تحققه كل مرحلة من المراحل الضرورية في حد ذاته وبمعياره الذاتي ، أي بمعيار المجتمع الراهن . أما اليسار فيريد ، على العكس ، أن ينظر إلى كل خطوة تخطى إلى الأمام خلال ارتباطها بالهدف النهائي : وهذا ما يعتبره التطوريون مطلباً متعصباً ، متطرفاً .

إن المهمة الموضوعية لليسار في مثل هذه الحالة هي أن يتغلب **ديالكتيكياً** على هذا التوتر عن طريق تركيب إيديولوجي وعملي يربط ضرورة الاصلاحات الفورية بالمثل الأعلى البعيد لمجتمع اشتراكي . لكن يسار حزب العمال ، العاجز عن الارتفاع إلى مستوى هذه المهمة الصعبة ، يجد نفسه مضطراً إلى الاكتفاء بتوكيد موقفه على نحو ثقيل غليظ ، وإلى الاستسلام لنوبات من السخط والاستنكار ليست هي في الحقيقة سوى الوجه الآخر لتبعيته الايديولوجية . ولقد رأينا كيف أن الجناح اليساري يمثل إلى حد ما الجناح العاطفي من الحزب ، وينبغي أن نضيف هنا بأن موقفه الانفعالي هذا عاجز كصرخة خرساء. والواقع أن اليسار العمالي يمثل انفعالية **عصبية** : فهو لا يستطيع أن يفهم طبيعته المتناقضة ، لكنه في الوقت نفسه **يرفض** أن يفهمها ليخرج من تناقضاته . إنه يشكو من الوطأة التي تثقل عليه ، لكنه يظل وفياً للعمالية ، مؤثراً حلماً سيئاً على واقع

أشق عليه أيضاً. وهكذا يكون «الطريق المختصر» إلى الاشتراكية قد تكشف عن أنه أشبه بالمنحدر الذي يدحرج عليه سيزيف صخرته . لكن ألن يكابد اشتراكيو الحزب من خسارة أفدح أيضاً إذا انفصلوا عن العمالية ؟ إن فشل الحزب الشيوعي في إنكلترا وعقم عدد من الشيع اليسارية يحذرانهم من هـــذا الخطر . ومن هنا فإن التوتر الكبير الموجود داخل الحزب لم ينفجر قط .

الاتحاد علة الضعف

ما هو تبرير العمالية الأول ، التبرير الذي قدمه الاشتراكيون عند ولادتها ، والذي ما يزال يقول به أنصارها اليوم ؟ مـــا الذى أعلنت عنه جميع مؤتمرات حزب العمال وطالبت به لمنع كل انشقاق جدي ولحفظ هـــذا النظام المليء بالتناقضات ؟ إنه **وحدة** الحركة العاملـة : فطوال التاريخ الذي عاشته الطبقة العاملة أمكن المحرومين ، الذين شتتهم الاستلاب الرأسمـالي إلى ذرات متماثلة منفصلة ، أن يفهموا أنفسهم ويؤكدوا ذواتهم كطبقة بفضل اتحادهم في عمـــل جماعي . وهذا هو على وجه التحديد العنصر الأكثر إيجابية في العمالية . لكننا رأينا أي معنى متناقض ورجعي تعطيه العمالية لهذه « الوحدة » والواقع أن الحكمة العمالية تشتمل ، في كل مرحلة من مراحل تطورها ، على ميول كثيرة متناقضة : فهي تلتفت مترددة إلى المستقبل في الوقت نفسه الذي تتكبل فيه بقيود الماضي ، وهي في آن واحد نتاج الرأسماليه ونتاج القوة الاجتماعيه القادرة على الاطاحه بالرأسمـــالية . وكل لحظة من لحظات فكرها وعملها تتوزع بين موقف تمردي وموقف تبعي . وكل حركة موحدة لا بد أن تعكس هـذه التناقضات . ودلالتها الأخيرة تتعلق بالعنـــاصر التي ستتغلب على الأخرى ، وبالطريقه التي تعبر بها تلك الحركة عن تناقضات الواقع وتعدد علاقتها . ولقد رأينا كيف أن النزعة المحافظة في إنكلترا أثقلت بوطأتها على العمال ، وكيف أن الوعي الطبقي العمالي تميز دوماً بالتبعيه . وهذا معناه أنه لا بد ليسار ثوري من أن يسيطر على مشروع التوحيد هذا الذي تمثله العماليه ، وأن يعتـبر أن واجبه الأول هو إصلاح طبيعة الوعي الطبقي التقليدي الذي قـــامت عليه العمالية .

والحق أن وحدة العمالية قد شلت التفاعل الحر بين الاتجاهات ، وحبست الاشتراكية الانكليزية بدلاً من أن تحررها ، وشوهت تطورها كلياً .

ان اداة تطور العمالية التراجعي هذا كانت النقابات ، والغلبة الدائمة للنقابية على الاشتراكية . وليس الهدف من هذا ان نحاكم النقابات . وبصورة إجمالية لم يكن في وسعها ان تكون غير ما كانته ، وفي الاطار الذي قدمه لها حزب العمال لم تكن تستطيع ان تسلك غير السلوك الذي سلكته . تلكم هي كل مأساة العمالية . إذن نظراً إلى قوة النقابية الفائقة وضعف الاشتراكية وتنافرها في انكلترا ، كان لا بد ان تحبس الاولى الثانية وتخنقها . وهكذا دفع اليسار الانكليزي غالياً ثمن « الوحدة » : فقد لجمت هذه الوحدة انشط قوى الطبقة العاملة واكثرها حيوية طوال نصف قرن من الزمن وسلمت زمامها لسلالة فابية راسخة الدعائم .

لقد عرف حزب العمال الكثير من التطورات والتقلبات خلال الأعوام العشرين التي تلت ١٩١٨ . فقد زاد تدريجياً من نسبة تمثيله في البرلمان ، وحل محل الحزب الحر في دور الحزب الرسمي المعارض ، وألف اول حكومة عمالية في عام ١٩٢٤ . وبالرغم من ان هذه الحكومة لم تحقق شيئاً ايجابياً ، إلا انها كانت اقل نحساً على الحزب من الحكومة العمالية الثانية بين ١٩٢٩ — ١٩٣١ . فقد تحملت هذه الاخيرة وطأة « الازمة الكبرى » من غير ان تكون مستعدة لها ، وكانت مهمتها ان تعيد الى الرأسمالية البريطانية صحتها ، الشيء الذي اضطر ماكدونالد وغيره من قادة الحزب الى العمل ضد مصالح الطبقة العاملة « لإنقاذ الجنيه » ، والى تخفيض الاجور وتعويضات البطالة ، وتمردت النقابات ومعها الجناح اليساري . ولما خاب أمل ماكدونالد من قلة اندفاع الطبقة العاملة في تطبيق مبدأ تعاون الطبقات ، تخلى عن الطبقة العاملة وعن الحزب الاشتراكي ليشكل « حكومة قومية » مع الاحرار والمحافظين . ولقد استمر حزب العمال في الحياة بعد انسحاب ماكدونالد وبعد الهزيمة المذلة التي ألحقتها به « الحكومة القومية » من غير ان تشهد صفوفه انشقاقاً كبيراً ، وتخلى عن الزعماء الفرديين .

لكن من دون ان يتخلى عن التقاليد الاساسية التي يمثلونها . وقـــام اليسار بمحاولات تمرد صغيرة ، لكنه ظل في مجموعه وفياً للحزب .

كانت الحكومة العمالية الثالثة بين ١٩٤٥– ١٩٥٠ اهم حدث عرفته العمالية منذ ١٩١٨ . وبالرغم من انه كان يتمتع بتأييد شعبي ساحق وبغالبية كبيرة في البرلمان ، لكن لحظة الانتقال إلى الافعال كانت لحظة ازمة ايضاً . اذ ما كانت العمالية ، من قوى متنافرة ، تستطيع ان تعبر عن طابعها الحقيقي من دون ان تعرض وحدتها الظـــاهرية للخطر . وهكذا يكون انتصارها السياسي نذيراً بانقساماتها الداخلية وفشلها . وهذا هو مفتاح كل ما سيحدث لحزب العمال منذ ١٩٤٥ حتى اليوم .

أوج العمالية

كانت الحرب العالمية الاولى قد **صنعت** حزب العمال . اما الحرب العـــالمية الثـــانية فقد أعطته فرصته التاريخية الكبرى التي لم يسبق لأي حزب اشتراكي ان عرفـــها . فقد هزت الحرب بنيان النزعة المحافظة الانكليزية وزعزعت اسسها بالذات . وعلى حين غرة اكتشفت الطبقة السائدة انها بحـاجة الى الطبقة العاملة اذا كانت تريد أن تبقى على قيد الحيـــاة . واختفت كتلة العاطلين عن العمل ، وتحسن وضع العمال بمعجزة . وتراجعت البنية الطبقية شبه الاقطاعية وجميع التابوات الاجتماعية التي ترافقها الى المرتبة الثانية ، وادخلت « اشتراكية الحرب » اتجاهاً الى المساواة ، بل نوعاً من ايديولوجية بروليتارية نصف بطولية تتناقض مع كل ما كان معروفاً قبل ١٩٣٩ . وبدلاً من « دعـــه يعمل » تولت الدولة تخطيط الاقتصـــاد ومراقبته . وبعد ١٩٤١ ، اصبحت الشيوعية شائعة الموضة ، مع التحالف السوفيـاتي . وصحيح ان هذه اليقظة كانت تجمدها الى حد ما صفتها القومية النزعة ، كما يتضح ذلك من خطابات تشرشل الحربية المشهورة . لكن ذلك لم يكن ، بالرغم من كل شي ، سلبياً كل السلبية من وجهة نظر الاشتراكية . فالحرب قد انجزت نصف ثورة . وفقدت الرأسمالية حظوتها ، وارتبط اسمها بالبطالة والازمة الاقتصادية . واصبح الرأي

العام مفتوحاً على المستقبل ، قابلاً للتأثر . وخالج الجميع حلم بمجتمع جديد يتجاوز كل ما امكن للدعاية الاشتراكية ان تقوله حتى ذلك الحين . ثم ان الحرب لم تقوض انكلترا . فقد ظلت ، اقتصادياً ، امة كبيرة ، وكانت ، سياسياً ، بمنجى من كل تهديد بالتدخل . ومن هنا فإنها لم تعرف اياً من العقبات التي منعت في بلدان اخرى تطور الاشتراكية او حرفته . ولقد كان هذا حظاً فريداً أوحد .

ولم ينتهز حزب العمال هذه الفرصة . ذلك ان القادة العماليين ، بعد ان خدموا تحت اشراف تشرشل في الحكومة الائتلافية ابان الحرب ، اصبحوا اكثر برلمانية واعتدالاً ايضاً. وابتعدت اكثر ايضا الافكار التي يقترحها كل عمل ثوري ، فكرة الهيمنة والنضال في سبيل الوصول اليها ، فكرة الصراع الطبقي التي هي اساس الحرب السياسية . واكتفى حزب العمال بالتقدم بضع خطوات الى الامام على طريق التطور المرسوم منذ زمن بعيد. وينبغي ان نذكر انه نجح على الاقل في هذا الهدف المحدود ، بفضل الظروف الملائمة ، وذلك بعكس الحكومات العمالية السابقة . فقد وضعت الفابية موضع تطبيق . وكان هذا كافياً لتفجير مأساة العمالية . ذلك ان الايديولوجية الانكليزية تعتبر التطبيق حجر المحك لكل واقع ولكل قيمة ، ويرى الفابيون في ذلك قانوناً لم يكفوا لحظة واحدة عن شرحه . والحال ان الفابية هي التي وضعت هذه المرة موضع امتحان ، ولم تنجح . لقد كانت الذرائعية ماهيتها ، جوهرها (مقابل « تعصب » و « مثالية » اليسار).والعمل نفسه سيبين الآن أي وهم كان وهمها ، وأي شعوذة كانت ايديولوجيتها .

نجاح الفابية وفشلها

ان البرنامج العمالي لعام ١٩٤٥ ، « لنواجه المستقبل » ، ينبع بخط مستقيم من بيان ١٩١٨ الاول ، من « العمالية والنظام الاجتماعي الجديد » اللذين قال بهما سدني ويب . كان البرنامج يقترح تأميم مناجم الفحم ، والغاز والكهرباء ، والمواصلات الرئيسية ، وبنك انكلترا ، وصناعة الحديد والفولاذ . وكان يقال

عن هذه الصناعات والخدمات انها « ناضجة للملكية العامة » . كما نص البرنامج على ان مجموع الاقتصاد يجب ان « يخطط » باتجاه الصالح العام ، لكن سلطات الحكومة على القطاع الخاص كانت في الواقع محدودة للغاية وفي تناقص مستمر : لقد كان التخطيط المذكور يفتقر الى نظرة شمولية لكامل الاهداف التي يريد ان يحققها ولكيفية الوصول إلى ذلك ، ومن هنا كان أثره على الأقتصاد هامشياً . ولم تكن الحكومة العمالية تملك المعلومات والاحصائيات الضرورية لتخطيط اولي . وفي ميدان الخدمات نص البرنامج على خطوات كان الناس جميعاً بالاصل متفقين على ضرورتها، والشيء الجديد فيه نصه على مجانية جميع الخدمات الطبية . وفي مجال السياسة الخارجية كان هدف حزب العمال الاول أن يكون وسيطاً وصلة وصل بين الولايات المتحدة الاميركية والاتحاد السوفيـــاتي . لكن أول مؤتمر دولي حضره اتلي ووزير الخارجية الجديد ، ارنست بوفان (السكرتير السابق لنقابة المواصلات والعمال غير المختصين) كان كافياً للتشكيك في قدرة الحزب على اداء هذا الدور . وقد فوجىء روزفلت ووزير الخارجية الاميركية بيرنز ، بعدوانية بوفان تجاه الروس . وفي ٢١ شباط ١٩٤٦ القى بوفان خطاباً في مجلس العموم شرح فيه وجهة نظره في الاستعمار ، فقـال : « لست انوي التضحية بالامبراطورية ... فسيؤدي ذلك الى انخفـاض محسوس في مستوى حياة ناخبينا » .

وعندما حلّ عام ١٩٤٨ ، كان هذا البرنامج قد نفذ كله تقريباً. ولن ندخل هنـا في تفاصيل التنفيذ . وبصورة عامـــة ، اعترف الجميع في النهاية ، حتى المحافظون ، بضرورة اصلاحات العمالية . وكان الاستثناء الاكبر مشروع تأميم صناعة الفولاذ: فبقدر ما كان التأميم مفيداً للصناعات المنهارة والخاسرة كالمناجم وسكك الحديد ، بقدر ما كان الرأسماليون حريصين على ابقاء صناعة الفولاذ ، التي هي صناعة اساسية وبالغة الاهمية ، تحت رقابتهم الخاصة . وقـــد اجلت الحكومة تنفيذ هذ الجزء من البرنامج إلى النهاية ، وأبدت تهاوناً كبيراً عندمـا نفذت التأميم ، بحيث سهل على حكومة تشرشل المحافظة ان تلغي التأميم بعـد

١٩٥١ . والمهم بالنسبة الينا ان نلتقط الاتجاه العـام لتطور المجتمع الانكليزي بدءاً من ١٩٤٨ ، وان نفهم العلاقة بين هذا التطور وبـين الآفاق « التطورية » التقليدية للفابية .

كان الاصلاحيون الفابيون قد آمنوا بامكانية سلسلة من اصلاحات جزئية تنتج عنها في النهاية الاشتراكية . وما كانوا يفكرون بأنـــه من الممكن ان تنتصب عقبات حقيقية في وجه هذا التطور الطويل الأمد . بل كانوا يرون انه يكفي ان تبدأ مسيرة الاشتراكية حتى تستمر إلى النهاية بفعل ميكانيكية الديموقراطية الصرف . وكانت حكومة ١٩٤٥ – ١٩٥٠ العمالية تمثل نقطة انطلاق هـــذه المسيرة . لكن حزب العمال ، بعد انجازاته الاولى ، فقد في الواقع الثقة بنفسه . وبدلاً من ان يجد طريقه ، تاه . وبدلاً من ان يدفع به النجاح إلى امام ، شجعه على العطالة والهمود ، الشيء الذي ادى إلى تراجعه . وهكذا خسر حزب العمال انتخابات ١٩٥١ ، وخسر بنسبة اكبر ايضاً انتخابات ١٩٥٥ وانتخابات ١٩٥٩ . وتترجم ثبوط همة العمالية في صراعات داخلية . وتحول الامـــل الذي خامر الجماهير في عام ١٩٤٥ إلى لامبالاة ، بل إلى عداء ، الشيء الذي لم يكن تفاؤل الفابيين « العاقل » يحسب حسابه . وهكذا تكون الاشتراكية قـد اصطدمت بجدار غير منظور ، القى بها إلى الوراء ، إلى البلبلة والعجز .

ماذا حدث ؟ ان الناخبين لم يدلوا بأصواتهم بالصورة المتوقعة . لماذا ؟ لأن اصلاحات العمالية لم تكن كما كان يعتقد زعماء العمالية انها ستكونه : مراحـــل معلنة عن المستقبل الاشتراكي ، « جزراً صغيرة للفضيلة الاشتراكية في محيط الجشع الرأسمالي » . وما منعها من ان تكون هـــذا ؟ اولاً ، الشكل المحدود والبيروقراطي الذي اعطي للتأميمات : فقد عارض القادة العماليون دوماً رقابة العمال المباشرة . وثانياً ، كون هدف القطاع العـام الخاسر « خدمة الجمهور » ، وكون « الجمهور » في الواقع صناعات القطاع الرأسمالي . ولم يكن في وســـع صناعات الدولة ، المتخبطة بين سياسة حكومية غير حازمة وبين ضغط القطاع الخاص ، إلا أن تكون تابعة لهذا الاخير ، فتصبح بالتالي اداة بعث الرأسمالية

واداة تحقيق ازدهارها وازدهار الايديولوجية الهادفـــة إلى إغراق العمالية في الاعوام الخمسين . ان ما اهملته الفابية او قللت من اهميته هو تعقيد العوامل التي حادت بقوى الاشتراكية عن مجراها ، ومن هذه العوامل الديناميكية العامـة لمجموع النظام ، وبنية الهيمنة التي تمتد جذورهـــا في تنظيم معين للاقتصاد وفي مؤسسات معينة ، والتي تتجسد في طبقة سائدة . هـذه هي القوة الفائقة التي انتصبت في وجه المقادير التدريجية التي زعمت العمالية انها ستخلق منها الاشتراكية والتي حادت بها عن طريقها ، والتي دمجت العمالية في نهاية الامر بالبنية العامـة وجعلتها تخدم النزعة المحافظة .

لقد اصطدمت الاشتراكية الانكليزية بعقبة كأداء عام ١٩٥١ ، وأبرز امتحان الممارسة القاسي العيوب الاساسية في برنامج الحركة ومبادئها . وكان لا بد من اعادة نظر شاملة ، فيما إذا كانت العمالية ما تزال تحرص على مستقبلهـا . لكن بطء ردود الافعال تجاه الازمة والترددات ادانت بلا استئناف «تجريبية» العمالية المزعومة . فقد برهنت العمالية عن عجزها عن استخلاص الدروس من تجربتها في الحكم. وإذا كان صحيحاً ان الممارسة هي الرائز القيّم الوحيد للنظرية، وانه منها تولد الافكار وتستمد معناها الحقيقي ، لكن الممارسة بالمقابل لا تحمل في ذاتها هذه الحقيقة إلا إذا وجدت على ضوء الافكار ، وإلا إذا بقيت ، بالرغم من اولويتها ، على علاقة جدلية مع النظرية ، تاركة لهذه الاخيرة استقلالاً ذاتياً وقيمة حقيقية . وبعبارة اخرى ، ان الصحو الفكري الكبير هو الشرط اللازم لكل تجريبية جديرة بهذا الاسم ، اي لكل تجريبية قادرة على التكيف بصورة حية ، مباشرة ، مع مختلف التجارب وعلى استخلاص الدروس منها . والحال ان « التجريبية » الانكليزية ليس هذا هو شأنها ، وهي لا تعدو ان تكون سوى لامبالاة مقصودة بالافكار ، سوى « نفي للايديولوجيـة » . وهكذا ، وبالرغم من انه ثبتت في عام ١٩٥١ خرافة « التطوريـة » و « التدرجية » ، لم تفعل العمالية من شيء سوى انها تشبثت اكثر بأساطيرها .

لا يمكن لأحد ان ينكر ان حكومة ١٩٤٥ – ١٩٥١ العمالية كانت ناجحة

من بعض الزوايا . كما لا يمكن لأحد ان ينكر انها فشلت في مشروعها ، من زوايا اخرى . ذلكم هو على وجه التحديد درس التجربة الذي لم تبد العمالية استعداداً لتقبله . لقد كانت الاصلاحات العمالية ضرورية في حد ذاتها ومن حيث نتائجها المباشرة ، وقد استقبل بعضها بترحاب . لكن في المجتمع لا يمكن ان يوجد شيء « في حد ذاته » ، ولا يمكن لشيء ان يكون له معنى « في حد ذاته » . فالمعنى الحقيقي يستخلص من العلاقة مع مجمل المجتمع في لحظة محددة. وينجم عن هذا ان كل ظاهرة اجتماعية تعني شيئاً إذا نظر اليها كعنصر خاص ، وتعني شيئاً آخر إذا نظر اليها في سياقها . ومن هنا فإن الاصلاحات ليس لها من معنى اشتراكي إلا إذا جرت في اطار استراتيجية تستهدف قلب المجتمع بالذات ، اي البنية التي تحمي الهيمنة البورجوازية وتخضع كل الباقي لأغراضها : انها ليست اصلاحات اشتراكية إلا إذا نُظر اليها ونفذت عبر منظور ثوري . وإذا لم تناضل الاشتراكية في كل لحظة ضد القوى العدوة ، وإذا لم يمتد مجال عملها على قدر امتداد الهيمنة البورجوازية ، فإنها ستُحبس وتشل ، وستتلاشى طاقتها الثورية . ولقد كان وعي هذه الحقيقة قاضياً على الفابية وعلى كل متاعها الايديولوجي . فلقد قوض اسس العمالية التي دعمت الفابية حتى عام ١٩٥٠ .

ان حزب العمال لم يعرف كيف يغتنم الفرصة الثورية التي اتيحت له عام ١٩٤٥. ولقد خيم ظل هذا الفشل على تطور الحزب بدءاً من ١٩٥٠، وهو يفسر إلى حد كبير ويلسون والويلسونية . ولقد بدا على العمالية ، بعد عشر سنوات من هزيمتها في عام ١٩٥١ ، انها تهيم على وجهها مع الاحداث ، محاولة برخاوة ان تكتشف صيغة جديدة . ثم بدا ، مع تبدل الموقف جذرياً باتجاه مناسب لحزب العمال ، ان مجيء ويلسون يسد الفراغ بمعجزة ، ويضع حداً للانشقاقات والخلافات التي أصبحت مزمنة الوجود داخل الحزب ، ويوطد من جديد الوحدة القديمة . ان قوة ويلسون تنبع إلى حد كبير من أن الحزب يرى فيه الرجل الذي يستطيع ان يمحو الخطيئة الاصلية ويستعيد البراءة .

العمالية المقيدة

طوال الاعوام الخمسينيات عاش حزب العمال تحت وسواس فشله . لكن نادراً ما نقع في المناقشات التي جرت في تلك الفترة على دوافع الاشياء الحقيقية. ان الصراع التقليدي بين اليمين واليسار ازداد حدة ، لكنه احتفظ على الاجمال بطابعه السابق مع ان الموقف الموضوعي كان قد تبدل تبدلاً عميقاً . فالمجتمع لم يعد كما كان بعد العهد العمالي الاول ، وكانت المشكلات ايضاً قد تغيرت . وكان على العمالية ، شأن سائر الاحزاب اليسارية في اوروبا ، ان تواجـــه مصاعب جديدة في مجتمع رأسمالي هو في ازدهار مستمر وبمنجى من الازمات نسبياً . وكانت الثورة المتعاظمة على الاستعمار ، والبلبلات الكبيرة التي أحدثها على الصعيد الايديولوجي والدولي سقوط الستالينية في عام ١٩٥٥ ، تفرض عليها ان تعيد التفكير في نفسها . وإذا كانت لم تعرف كيف تتدبر امرها بالصورة الواجبة ، فهذا يعود جزئياً بلا ريب إلى بلبلتها هي نفسها . ولما كانت اللاحركة مستحيلة في عصر كل شيء فيه يتحرك ، وكل شيء يتفجر ، فإن ترددانها وعطالتها كانت تشكل في الواقع تراجعاً ، وساهمت في ما سماه احد المؤلفين « الافول المعنوي المكشوف للحركة العمالية » (١) . وهكذا بدا ان حزب العمال ، تحت ضغط الرأسمالية المنبعثة ، المغتنية بمناهج جديدة وجاذبية جديدة ، الديناميكيـــة أكثر من أي وقت مضى ، المعززة مواقعها بتشريعات حزب العمال بالذات ، بدا أنه يتراجع باستمرار ويتشبث بمواقع ومواقف لا مستقبل لها .

إن تجربة ١٩٤٥ – ١٩٥٠ الحاسمة قد وضعت العماليــة في مفترق الطرق ، فبات عليها أن تقرر أي طريق ستسلك . كان الطريق المباشر إلى الاشتراكية ، الذي كان الهدف القديم للحزب والذي لاءم معه جميع آلياته ، قـــد ضاع في الرمال . ولم يعد هناك من شيء يربط حياة الحزب اليومية بذلك النوع من قوس القزح المستعصي المنال الذي أطلق عليه اسم « الاشتراكية » . إذن فقد كان

(١) ريمون ويليامز : « الثورة الطويلة » – ص ٣٠١ .

على الحزب إما أن يتخلى عن هدفه ، وأما أن يعاود الانطلاق من نقطة الصفر ويجد طريقاً جديداً إلى هدف جديد ومفهوم على نحو أفضل. كان هذا الاختيار الثنائي الحد محتماً ، مهما يكن المصير المقرر لكلمة « الاشتراكية » . يقيناً ، إن في إمكان التحريفيين الاشتراكيين – الديموقراطيين دوماً أن يحتفظوا بالكلمة وأن يستخدموها لتسمية نمط محدد من المجتمع الرأسمالي ، كما كان في الإمكان أن ينسب إلى الكلمة نفسها تصور ثوري جديد . لكن بعد ١٩٥١ بدا على العمالية إنه ما عاد يمكنها أن تؤخذ بسحرها .

لقد كان رد الفعل المنطقي للاشتراكية الفابية أمام هزيمتها هو أنها كفت عن أن تكون « اشتراكية » بالمعنى القديم للكلمة وأصبحت قطباً جديداً للمعارضة في العالم السياسي الانكليزي : نوعاً من نزعة اصلاحية خالصة لا تلبك نفسها بأيديولوجية . والنقاط القوية في هذا الموقف ، والتي يمكن أن تغري مجموع العمالية ، واضحة : استمرار الأرتباط بالماضي وبـ « التجريبية » الاشتراكية الانكليزية ، وفي الوقت نفسه قطيعة مع الماضي ، مع « التطورية » ومع عقيدة الاشتراكية القديمة الملبكة ، الشيء الذي يوحي بظاهر من تجديد جريء . ويضاف إلى ذلك **نزعة شعبية** معترف بها علناً أكثر من الماضي . فقد كانت الاشتراكية مرتبطة ، ولو بصورة باهتة ، بفكرة وجوب تكوين الرأي العام وفق معايير أكثر عدلاً ، وكان دورها التربوي يتحدر من المثل الأعلى الاشتراكي بالذات . في حين أن الفابية ، في موقفها الجديد ، باتت تريد أن تعطي الناس ما يريدونه : أي أنها وضعت نفسها على مستوى ايديولوجية استهلاكية . وكان هذا الموقف التكنيكي يفترض هيمنة « الخبراء » ، لكنه كان ينجو بنفسه من تهمة الدكتاتورية التكنوقراطية بتأكيده أنه لا يفعل إلا ما يريده مجموع الناس .

كان الطريق الثاني الذي يمكن للعمالية أن تسير فيه متعارضاً جذرياً مع الطريق الأول ، وكان يقود إلى لب مشاكل الاشتراكية . وكان يتطلب عملاً نقدياً واسعاً لكل النقاط الضعيفة في الاشتراكية العمالية ، ولا سيما تصور

الحزب للاشتراكية . ولم يكن ذلك ممكناً إلا إذا أعيـــد النظر جذرياً في الأورثوذكسية الفابية على الصعيد الأيديولوجي . وكان من الضروري أيضاً أن تنعكس إعادة النظر هذه على بنية الحزب وتنظيمه .

لكن ههنا على وجه التحديد كانت تكمن الصعوبة . فأزمة الفابية قـــد أتاحت أخيراً للجناح اليساري الفرصة التي طالما انتظرها ليؤكد نفسه على أنه الاختيار الوحيد الممكن . ولقد بدا أن نهاية « الاشتراكية الانكليزية » جعلت من الممكن مجيء الاشتراكية إلى انكلترا . لكن اليسار لم يكن قادراً البتة على أن يقطع صلته بهذه الصورة الحاسمة بالتقاليد العمالية ولا بما كان هو نفسه يمثله داخل الحزب. وإذا كان قد أمكن لليمين أن يرد على فشل ١٩٥١ حسب منطقه الخاص ، إلا أن اليسار لم يستطع أن يفعل الشيء نفسه . فلقد رأينا كيف أن الدور الوحيد الذي بقي له هو دور المعارضة الدائمة « العصابية » . وهـــذا بالضبط ما منعه من اغتنام فرصته ، وحكم عليه بأن يستنفد قواه في دور عقيم. إن الجناح اليساري من العماليـــة ، طوال فترة الأعوام العشرة التي تلت هزيمة ١٩٥١ والتي كانت غنية بالتبدلات والافكار الجديدة ، لم يكف عن المراوحة في مكانه ، وكأنه مقطوع الصلة بكل التيارات الحيوية . والواقع أن اليسار لم يستطع ، طوال الأعوام الخمسينيات ، أن يضع حداً للصلات التي تربطه بماضٍ ميت ، أسطوري . وكان يعتبر أن الموقف القديم التقليـــدي للحزب موقف صحيح ، وأن الوفاء له واجب لمن يريد أن يتقدم . وما سبب الداء الذي يعاني منه الحزب إلا **خيانة** اليمين عام ١٩٤٨ للاشتراكية . وما الدواء إلا العودة إلى ظروف ١٩٤٥ التي كفلت للحزب انتصاره وتقدمه على الضبط حتى عام١٩٤٨. وفي مؤتمر الحزب عام ١٩٥٥ إنبرى أحد الحضور يقول : « إذا كنا نريد إقناع عمال هذا البلد ، ينبغي أن نعود إلى الاشتراكية كما عرفناها في السابق .. إن على حزبنا أن يعود بلا تأخر إلى المبادىء الاشتراكية التي قام عليها » . كيف لم يدرك اليسار أن مثل هذه المواقف مسدودة الافق ؟ كيف لم يلحظ أن أزمة العمالية المميتة هي على وجه التحديد نتيجة لتلك المبادىء الاشتراكية المقدسة

التي قام عليها الحزب ، وأن موقف ١٩٤٥ هو بالضبط الذي قاد إلى الفشل ، وأنه كان من الواجب في عام١٩٥٥ إعادة النظر في الأيديولوجية ، ونقد المرحلة التي تولى فيها الحزب الحكم ، وباختصار اتخاذ موقف شمولي منسجم يستحق فعلاً اسم « الاشتراكية » ؟

وبالنتيجة ولدت الويلسونية وشروط الحزب الداخلية من وضع « تفاهم فيه اليسار القديم واليمين الجديد لحزب العمال ضمنياً على تجنب كل تحليل جدي وكل اعادة نظر[1] » . وجاءت الهزيمة الانتخابية الثالثة في عام ١٩٥٩ لتعطي الجناح اليميني وزعيمه غيتسكل ذريعة لشن هجوم كبير بهدف هدي الحزب إلى الأفكار الجديدة ما بعد الاشتراكية . فقد زعم اليمين إن الهزيمة الانتخابية تتفسر بتعلق الحزب بأفكار بالية كتأميم وسائل الانتاج ، وأن هناك ضرورة عاجلة لتبديل دستور الحزب بحيث يتضح صراحة أن الحزب يؤيد « الاقتصاد المختلط » (وهذه ثورية للدلالة على اقتصاد رأسمالي احتكاري مع قطاع عام مهم) . وراح غيتسكل يقول إن عيب الحزب هو تعلقه هذا بمثل عليا باتت بالية بنتيجة عمل الحكومة العمالية ،وما نجم عنه من تحسن في سلوك الرأسماليين. ومن هنا أخذ الصراع شكل خصومة حول المادة المشهورة .

وبخلاف ما كان متوقعاً ، لم ينتصر اليمين . وهذا يعود ، مهما بدا ذلك غريباً ، إلى نفس تلك النزعة المحافظة التي مكنت اليمين من البقاء مدة طويلة في القيادة . وحتى نفهم ذلك ، لنتذكر كيف أن الطابع المغلق ، الحرفي للمجتمع الانكليزي، قد أمكنه أن يحافظ على بعض القيم الايجابية بالنسبة إلى الصراع الطبقي ، وأن يسمح للطبقة العاملة بأن تقاوم التمثل ، حتى ولو كانت غارقة في نزعة محافظة سكونية ، وإنما بجدار من هذا النوع اصطدم غيتسكل والتحريفيون . فقد كانوا يتقدمون بأسرع مما ينبغى ، وإلى أبعد مما ينبغي ، بحيث عجزوا عن جرّ حلفائهم التقليديين في إثرهم . لقد غفلوا ، وهم يدعون

---

(١) ريمون ويليامز — المصدر المذكور آنفاً — ص ٣٣٣ .

إلى التخلي عن عبادة الاشتراكية القديمة ، عن أن الغالبيــة التي تدعمهم أشد تعلقاً بالماضي منهم ، وأن المادة ٤ ، التي مضى على وضعها أربعون عاماً ، قــد أخذت طابعاً تأسيسياً .

لم يكن اليسار قادراً وحده على إلحاق الهزيمة بغيتسكل . ولذا ينبغي ألا نعتبر حادثة المادة ٤ نصراً له . لكنها كانت حادثة في وسعه استغلالها: وبعبارة أخرى كانت نصراً من الدرجة الثانية . وقد تلا هذا النصر بعد فترة وجيزة من الزمن حادث دراماتيكي آخر ، كان أبعث على المفاجأة وأكثر فائدة أيضــاً لليسار .

الفرصة الأخيرة « لليسار الهرم »

بالتوازي مع حملة غيتسكل التحريفية تطورت حركة أخرى خارج الحزب . إن الحملة من أجل نزع السلاح النووي قد أخذت بسرعة أبعاداً قومية ، ولاقت أنصاراً بين الشبيبة بوجه خاص ، لكن أيضاً بين قطاعات عديدة من الحركة العمالية . ولقد ساهم اليسار بدوره في الحركة من كل قلبه وعمل على دفع الحزب بكامله إلى تأييدها . ولأول مرة في تاريخ الحزب كان النجاح حليفــه ، ففي الاجتماعات السنوية السابقة لمؤتمر الحزب عام ١٩٦٠ ، تقرر أن تدعم غالبية مندوبي النقابات سياسة التخلي عن الأسلحة النووية من طرف واحد ، وكان ذلك يتعارض مباشرة مع سياسة الدفاع القومي التقليدية لقادة الحزب . وبنوع من معجزة ، هزت « النفوسُ الميتة » والبيروقراطيةُ نير الخضوع لاعتــدال اليمين عن كاهلها . فقد تسرب الخوف من الابادة الذرية إلى خنادق النزعة المحافظة النقابية ، وتزعزعت بنى العمالية لأول مرة في تاريخها . وكان هــذا أول نصر مباشر لليسار في مسألة هامة ، بالرغم من جهود غيتسكل الخطابية إبان المؤتمر .

كان العام الذي تلا مؤتمر ١٩٦٠ أمرّ الأعوام التي مرّت على حزب العمال . فقد رفض غيتسكل أن يأخذ بعين الاعتبار قرار المؤتمر السنوي وأعلن أنه لا يمكن أن يتبدل شيء في السياسة الرسمية لحزب البرلمان . وكانت حجته في ذلك التقاليد التي تنص على أنه لا يمكن لأي هيئة من خارج البرلمان أن تتدخل في ما

يجري داخل قدس الأقداس ، مجلس العموم . وحيث الصحافـــة البورجوازية غيتسكل . ووجدت فيه شخصاً قادراً على تشكيل « حكومة قومية » عند الحاجة . وكان على اليسار أن يناضل بلا هوادة إذا كان يريد أن يستفيد من انتصاره وأن يضع إرادة الغالبية موضع تنفيذ . وإذا لم يفعل ذلك فلا أمل له في إحراز انتصارات أخرى ولا في استلام الزمام ذات يوم . لكن الجنـــاح اليساري من حزب العمال كان يفتقر إلى الحد الأدنى من«اليعقوبية »التي تستطيع أن تضع أمثال غيتسكل و « الدستور الانكليزي » في مكانهم . وقد جاء رد اليمين في العام الذي تلا المؤتمر على شكل حملة واسعة سميت « الحملة من أجـــل الاشتراكية الديموقراطية » . ولم تتأخر النقابات عن التراجع عن موقفهـــا في مؤتمر ١٩٦٠ ، وعن دعم الخط الرسمي بفضل دعاية كانت تطرح سؤالاً أساسياً : « هل تريدون انكلترا عاجزة عن حماية نفسها ؟ » . يقيناً ، إن كسباً محققاً بمثل هذه الوسائل البيروقراطية لا يعني شيئاً كبيراً في حد ذاته . لكن ما كان له دلالته هو غياب معارضة موائمة ، وكانت هذه هي نقطة الضعف الاساسية في اليسار . فالمشكلة الذرية لم تكن قابـلة للفصل عن مجموع كامل من المشكلات ، لا على صعيد الدفاع القومي والسياسة الخارجيـــة فحسب ، بل أيضاً على صعيد الدستورية المقدس ، وعلى صعيد العمالية بالذات كبنية وتنظيم ودلالة . وما كان اليسار يستطيع أن يحقق النجاح لهجومه المضاد إلا إذا أعاد طرح كل شيء على بساط البحث . وهذا ما عجز عنه ، فقضي عليه .

إن المرحلة التي تلت تدمير اليسار هذا كانت مرحلة استقرار داخل الحزب . فقد استعاد غيتسكل هيمنته المطلقة على الحزب بعد عامين من متاعبه في مؤتمر ١٩٦٠ . وتحت قيادتـــه عارض العماليون محاولة المحافظين الانضمام إلى السوق الأوروبية المشتركة ، متحججين بأن مثل هذه الخطوة من جانب المحافظين هي « خيانة للكومنولث » . واليسار نفسه الذي اتهم غيتسكل بأنه خائن عـــام ١٩٦٠ بات يرى فيه الآن قائداً يميل أكثر فأكثر إلى التقدميـــة واليسارية ، وذكياً بما فيه الكفاية لأنه اختـــار حملة صليبية معنوية قادرة على توحيد كلمة

الحزب . وافتقار اليسار إلى الايديولوجية هو الذي سمح بمثل هذا التقلب ، فقد كان خياره الوحيد الدائم هو إما الاستقالة من الحزب والانسحاب منه والتهديد بإحداث انشقاق ، وإما خضوعه وتعاونه . أما أن يفرض الاشتراكية داخل الحزب ثم خارج الحزب ، فقد كان ذلك مستحيلاً عليه .

علامة الاستفهام الخالدة

هوذا إذن الحزب الذي ورثه هارولد ويلسون عام ١٩٦٣. ولقد رأينا كيف انه يستمد صفاته من الوضع التاريخي الخاص بالطبقة العاملة ومن علاقات هذه الطبقة مع المجتمع البورجوازي . فالمجتمع الانكليزي ، بإقامته تمايزات صلبة بين الطبقات ، قد حجر الصراع الطبقي ، فنجمت عن ذلك العمالية ، تلك الاشتراكية - النصفية التي لم يكن في وسع الطبقة العاملة تجاوزها والتي كانت تلجم وتغذي في آن واحد حربها الباردة ضد المجتمع . ولم تكن هذه الطبقة العاملة ، اسيرة البنى الفوقية البالية ، تستطيع الانفصال عن المجتمع البورجوازي والتقدم بحركة مستقلة نحو سيطرة البروليتاريا على المجتمع . فقد كانت تحتاج إلى الاداة الضرورية لذلك ، اعني الفئة المثقفة القادرة على معاكسة تيار المجتمع وعلى بلورة القوة الجديدة الساعية إلى التعبير عن نفسها ضد المجتمع القائم ايضاً . ان الطبقة العاملة لم يكن في وسعها ان تؤكد ذاتها في حركة سياسية تنبثق من النقابات وتظل مرتبطة بها إلا إذا تخلت عن الطابع الحرفي التقليدي لهذه النقابات . لاحظ هـ. ج. كول في عام ١٩٦٣ : « ان حزب العمال انعكاس للنقابية ولا يستطيع الهيمنة عليها » . لكنه اضطر ، كما رأينا ، بدافع مقتضيات العمل السياسي ، إلى السيطرة عليها . ولم تكن اطاراته السياسية والفكرية غير الانتلجانسيا القديمة الامتثالية . ولم تلق هذه الاطارات ، المستخدمة بالاصل لمنع الطبقة العاملة عن الانفصال عن التقاليد ، لم تلق كبير مشقة في استلام زمام قيادة الحزب ، واستطاعت ان تقمع تطور كل ميل ثوري . .وهكذا وجدت الطبقة العاملة نفسها اسيرة تلك العمالية التي سمحت لها بالتعبير عن نفسها . اما اليسار الذي كان عليه ان يبدل النظام باتجاه الاشتراكية ، فلم يفعل من شيء

سوى انه ازداد عجزاً . ان « الاشتراكية الانكليزية » بدلاً من ان تفجر بنى المجتمع ، اصبحت جزءاً لا يتجزأ منها .

ان هذه الخصائص قد ظلت تميز حزب العمال في عهد هارولد ويلسون ايضاً . والتجربة التي كان يجب ان تظهر للاشتراكيين ان العمالية هي تسوية غير مقبولة (وزارة ١٩٤٥ — ١٩٥٠) لم تضع حداً لهذه التسوية . لقد برهنت ، من زاوية موضوعية ، على افلاس « الاشتراكية » الفابية ، لكن ، ذاتياً ، كان اليمين الفابي هو وحده القادر على الرد على التحدي بطريقته الخاصة إزاء عجز اليسار . وبقيت جميع الاسئلة الكبيرة التي يمكن ان تطرح بصدد العمالية بلا جواب واضح . وإذا ما استمر حزب العمال في خط ١٩٤٥ – ١٩٥٠ ، فكيف يمكنه ان يقول عن نفسه انه ما يزال اشتراكياً ؟ كيف يمكن للاشتراكيين انفسهم ان يزعموا هذا الزعم ؟ ان حزب العمال لا يستطيع ان يستمر في ان يكون كما كان في الماضي : فإما ان يصبح اخيراً حزباً اشتراكياً اصيلاً ، وإما ان ينحط الى مجرد حزب امتثالي يحافظ على التقاليد الليبرالية القديمة .

إلا ان العهد الويلسوني ليس مجرد استطالة للماضي كما درسناه . يقيناً ، ان الحزب لا يستطيع ان يهرب من المشكلة الاساسية المطروحة عليه ، لكن كل شيء يتجلى تحت ضوء جديد ، لا لأن العمالية تبدلت من الداخل ، بل لأن الشروط الخارجية تتغير بسرعة كبيرة . ان الحزب ، الذي ولد في عصر من الجمود واللاحركة ، والذي كون نفسه ببطء كلما أفلت الامبريالية ، راح يشهد اختفاء النزعة المحافظة التي كانت تطوقه من جميع الجهات . فهوذا المجتمع الانكليزي يدخل عصر التغير . واصبح لا بد من ان تطرأ تبدلات على جميع القطاعات . وهذا يعني بالنسبة الى العمالية فرصة جديدة ، وكذلك مشكلات جديدة تنضاف الى القديمة .

نهاية النزعة التقليدية

ان الوزارة المحافظة التي خلفت العماليين عام ١٩٥١ خاضت كفاحاً غير طليعي للحفاظ على اشكال الهيمنة التقليدية . لكن هذا العمل اكتفى بالحفاظ

على الماضي بمرونة، من غير ان يسعى الى اعادة توكيده بعدوانية . وهذا الموقف الحذر قاد المحافظين الى القبول بإصلاحات العماليين الاجتماعيـة والى تجنب كل نزاع عنيف اكثر مما ينبغي يمكن ان تسببه الحركة العمالية او النزعـة المعادية للاستعمار . والاستثناء الوحيد لهذه القاعدة الاستراتيجية ، قضيـة السويس ، أكد صحة هذا الموقف بالاضافة الى الخسائر الفادحة التي أنزلها بالمحافظين . لقد كانت هذه استراتيجية طبقة ناضجة ، واثقة بنفسها ، لا تخشى ان يتجاوزهـا احد الى اليمين . ولم يظهر ميل الى اليمين اكثر عدوانية إلا مؤخراً ، وتجـاه فشل الموقف التقليدي . ولقد حدث هذا الفشل عندما انفرضت نهائياً التغيرات التي تتجاوز كفاءة التجريبية الهرمة . فقد كانت الواقعية التي اشتهرت بهـا الطبقة الحاكمة الانكليزية تسمح لها بالتكيف مع نقاط تفصيلية في عـالم راسخ الأسس . لكن هذا الأمان الكبير تزعزع شيئاً فشيئاً بعـد ١٩٥١ ، على اثر انهيار الامبريالية الانكليزية والتقدم الضخم الذي حققته الرأسماليـة الاميركية والاوروبية والذي افقد الرأسمالية الانكليزية امتيازاتها واظهر للعيـان بلى تنظيمها . واصبح وضع الرأسمالية الانكليزية في السوق العالمية هامشياً وعارضاً، وفي تفاقم متزايد ، وظهر عجزها عن مبـاراة منافسيها الرئيسيين . واذا ما اضفنا الى ذلك تضخم النفقات العسكرية خارج البـلاد (كنتيجة مباشرة للامبريالية وما تقتضيه من «مسؤوليات ») وتقلب أسعار النقد النادر، اتضحت لنا أسباب تلك السلسلة من الأزمات الصغيرة التي عاشها الاقتصاد الانكليزي . ولولا القرض الهام الذي قدمته الولايات المتحدة عام ١٩٦١ ، لما نجت الحكومة من الأزمة الأخيرة التي كانت أخطر هذه الأزمات ثم غرقت البلاد في حالة من التبعية والركود الاقتصادي تقارب الافلاس الشامل .

إن نتائج هذا الوضع الحرج لا تحتاج أهميتها إلى بيان . لم يكن أي عـلاج تكنيكي صرف وقصير الأمد يستطيع أن يعوض الاقتصاد الانكليزي عن تأخره، فأسباب هذا التأخر لا تندرج ضمن نطاق النظريات الاقتصادية البورجوازية، بل تعود إلى طبيعة المجتمع بالذات ، فالنزعة المحافظة التي تبنتهـا البورجوازية قبل

قرن من الزمن بقلب مفتوح ، كثمن وضامن لنجاحهـــا ، قد أصبحت سرطاناً يحول دون أي تطور اجتماعي – اقتصادي . إن البنى نفسهـا التي كانت عظيمة الفاعلية قد أصبحت ملبكة وباليـة ، لكن لم يكن التخلص منها سهلاً . ولذا فإن الأزمة الراهنة هي أزمة اجتماعية عامة أكثر منها أزمة إقتصادية صرفاً . والآفاق الجديدة التي انفتحت للعمالية قد ولدت من النتائج السياسية لهذا الانعطاف التاريخي .

إن هذا الوضع كان يفرض إصلاحات كبيرة على صعيد البنية التحتية والبنى الفوقية معاً . كان لا بد من عقلنة المؤسسات والأعراف والمواقف والأفكار، ومن إعادة النظر في عدد من الأصنام والطقوس، ومن تجديد التعليم الفني والعلمي، ومن إقدام الصناعة على إنفاق المـال من أجل البحث العلمي ، ومن إلغاء التسلسلات القديمة بين الطبقات وكل ما يعرقل الحركية الاجتماعية والجغرافية ، ومن الخلاص من عبادة الماضي و « القدامى » التي كانت تعتبر أساساً لكل حكمة ، ومن أن تعيد الدولة النظر في الخطوط الكبرى لتدخلها في الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، وباختصار كان على الرأسمالية الانكليزية، التي هيمنت على العالم من غير أن تنفصل عن ماضٍ نصف إقطاعي ، أن تنتقل على نحو مباغت إلى سن الرشد .

لكن المحافظين كانوا عاجزين عن هذا كلـــه ، لأنهم على وجه التحديد ممثلو الطائفة التي ولى زمانها ، والتي حصّلت تربيتها الايديولوجية في ظل تشرشل . ومما زاد الطين بلة بالنسبة إليهم أن اللورد هيوم المتمسك بالتقاليد هو الذي خلف مكميلان في رئاسة الحزب . وهكذا انهار النظام المحافظ (ومعـــه كل النزعة التقليدية الانكليزية وسلـّم قيمها) بينما كان المحافظون ما يزالون في الحكم . ولهنيهة من الزمن بدا ممكناً أن يسد انبعاث الحزب الليبرالي الفراغ الذي خلقـه هذا الانهيار ، لكن الليبرالية السياسية لم تكن قابلة للانبعاث . ولم يكن هناك في الواقع سوى حل واحد ممكن .

ولهذا انفتح الأفق من جديد أمام العماليين لاستلام الحكم ، ولأسباب لا دخل لها بجهود الحزب في هذا السبيل . ولقد كانت اللحظة الحرجة فشل المفاوضات بين إنكلترا والسوق المشتركة . والحق أن هذا الموقف ، من بين جميع المواقف

التي اتخذها المحافظون ، كان وحده الذي يبدو متلائماً مع متطلبات الأزمة ، باعتباره تخلياً فظاً عن الماضي وفرصة ثمينة للرأسمالية الإنكليزية المعرضة لمنافسة الأوروبيين . وقد عارض العماليون ، كما رأينا ، الإنضمام إلى السوق المشتركة متذرعين بحجج ملتبسة وعاطفية ،أولها الدفاع عن الكومنولث . لكن المشروع فشل لحسن حظهم ، وأمكن لموقف العماليين الذي كان سيكون مشؤوماً عليهم فيما لو حدث الإنضمام ، أن يبدو موقفاً حكيماً . وفي ذلك الوقت تقريباً توفي غيتسكل وحل محله هارولد ويلسون .

واجهة العماليين الجديدة

مع ويلسون ، بدا الحزب بدون التباس حزب مستقبل جديد ، معقلن (لفظياً على الأقل) . ولقد رأينا كيف أن تطور اليمين العمالي اتجه نحو تبني أيديولوجية محايدة سياسياً ، « تكنوقراطية » . كما رأينا كيف أن اليسار هزم في عهد غيتسكل وكيف أنه انتصب بالرغم من كل شيء ليدعمه أثناء المناقشات حول السوق المشتركة . وهكذا تكون وحدة الحزب قد توطدت من جديد ، وأُصيب اليسار بضعف يكاد يكون نهائياً . ومن مفارقات الأمور أن هذا الوضع كان الشرط الضروري المسبق لانتخاب قائد يميل إلى اليسار نسبياً . إذ يتبين بوضوح مما قلنا آنفاً أن حظوظ شخص يساري بالارتفاع إلى مستوى زعامة الحزب معدومة تقريباً . لكن في ظروف ١٩٦٣ الخاصة ، حيث كان اليسار شبه منسي ولا يمثل أي تهديد ، وحيث كان مرشح اليمين شخصاً لا يطاق ، مال قسم لا بأس به من الرأي المعتدل داخل حزب العمال البرلماني إلى الوسط ، لأنه لم يجد موقفاً أفضل من ذلك . وقد كان لويلسون ماضٍ يساري ، لكنه كان قد تعاون مع قيادة غيتسكل . وكان « مشروعه للسنوات الأربع» الذي نشره عام ١٩٦١ وثيقة في غاية الاعتدال . وكان هذا التطور يسمح بأن تعلق عليه الآمال وبأن تغفر له أخطاؤه الماضية ، لكنه ما كان يسمح في الظروف العادية بتصويت غالبية اليمين له. بيد أن شخصية منافسه التي لا تصدق،جورج براون، جعلت الواقع يتجاوز الخيال . فقد كان براون ، نائب غيتسكل والنقابي

البيروقراطي المدعوم من النقابيين في حزب العمال البرلماني ، نتاجاً غريباً لكن نموذجياً للعمالية . كان قد بدأ يشتهر ويتميز عندما كان وزيراً للدفاع في حكومة الظل العمالية بدفاعه المشبوب عن القنبلة الهيدروجينية . واستمر في تميزه بطلبه فصل اللورد راسل لأنه لم يدفع اشتراكه ، أو بظهوره على شاشة التلفزيون في حالة شديدة من السكر بعد اغتيال كينيدي ليرثي الرئيس السابق بإسم الحزب، وإذا ما أضفنا إلى ذلك جلفه ورؤيته البيروقراطية للأشياء وشعبيته السوقية ، فهمنا لماذا لم يواجه ويلسون كبير مشقة في هزمه .

كان معنى هذا الانتخاب على الصعيد الايديولوجي غامضاً : ان صدفاً متضافرة جاءت الى السلطة بشخصية ملتبسة . لكن ويلسون برر سريعاً وقوع الاختيار عليه . فقد دلل على مهارته بتركيزه في شخصه كل التطور اللاحق لتقاليد القيادة ، وبإعطائه اياها بعداً جديداً ، طعماً جديداً . كان يجمع بين عناصر ترضي التقليديين (ماضٍ بروتستانتي ، كشفية ، شباب جدير وكادح) وبين الاندفاع ومواهب الحدس والخيال التي يمكن ان يتطلبها التحريفيون من الجيل الجديد . وكانت له وجاهته : فقد كان يملأ شاشة التلفزيون في حين ان غيتسكل المسكين كان يضيع فيها . وطبيعي ان ميوله السياسية الماضية كانت تجعله مقبولاً من اليسار . لكن فطنته السياسية الكبيرة واهتمامه البالغ بوحدة الحزب جعلاه مقبولاً من الجميع . وفي المؤتمر السنوي الاول الذي تلا انتخابه ، في تشرين الاول ١٩٦٣ ، عرض الفكرة الأساسية لدعاية الحزب في الانتخابات القادمة : العلم و « الثورة الصناعية » الجديدة التي جاء بها التأليل. ان على حزب العمال ان يصبح حزب العلم والتكنولوجيا ، وان يعمل على ضمان تطورها السريع وعلى مراقبة نتائجها على الصعيد الاجتماعي ، حتى « يراقب الانسان الالة بدلاً من أن يكون خاضعاً لها » . كانت هذه الطريقة الجديدة في ربط العمالية بمستقبل محايد ، رياضي ، لماع ، تستند جزئياً الى رأيه في المجتمع الانكليزي : فمنذ ان تجاوزت الصناعة الالمانية الصناعة الانكليزية قبل خمسين عاماً بات واجباً التركيز على العلم والتكنولوجيا . لكن ما لعب دوراً حاسماً هو قابلية

هذه الفكرة للتصديق . فحتى الصحف المحافظة رحبت بها. ولا يوجد انسان ، أو لا يوجد تقريباً انسان يعادي العـــلم . ولقد اغفل ويلسون ان يقول انه في المجتمع الاشتراكي وحده يمكن للانسان أن « يراقب الآلة » وان هناك ألف مظهر آخر لا علاقة له بالتكنولوجيا له اعتبـــاره ، لكن هذا لم يضعف قوة فكرته ومداها المبـــاشر . وفي هذا الصدد لا يمكن لأحد أن يماري في مهارة ويلسون الدعائية .

عبادة الشخصية

تأكدت سلطة ويلسون على الحزب بدون منازع . وسكتت الانتقادات من تلقاء نفسها ، الشيء الذي لم يشهد قط في تاريخ الحزب . والحق ان في السياسة الانكليزية ميلين يميزانها عن سياسة البلدان الاخرى . من جهة اولى الميل إلى مركزة السلطة أكثر فأكثر بين ايدي الحكام والقادة كانعكاس للتبدلات في بنى الدولة الرأسمالية . والنتيجة المنطقية لهـــذه النزعة الاستبدادية صعود شخص أوحد الى السلطة . وقد رأينا كيف ان بنى العمالية ما كانت تستطيع أن تحول دون هذا الميل . فالحزب خاضع لزمرته البرلمـــانية ، وهذه الزمرة خاضعة للوزارة أو لوزارة الظل ، وهـــذه تخضع بدورها لرئيس الوزراء أو لرئيس الوزراء المحتمل . والميل الثاني هو اللقاء السياسي بـــين الاحزاب التي تتنافس « لكسب أصوات الوسط ، اي « الجماهير » الاضعف تسييساً . ففي الفترة الانتخابية أو ما قبل الانتخابية يجهد المعسكران الرئيسيـــان لتدوير الزوايا وللتخفيف من حدة الا ختلافات ... [1] » . ومع هذا الميل ، الذي تأكد في انكلترا منذ ١٩٥٥ ، تتجاوب حاجة متزايدة إلى تحديد الفروق الثـــانوية ، السطحية ، بين الاحزاب : صورة اعلانية معينة ، شخصية زعيم ، الـــخ . وويلسون والويلسونية يمثلان تأليه هذين الميلين داخل حزب العمال .

ان البرنامج الذي خاض به حزب العمال الانتخابات التالية لا يكاد يختلف عن البرنامج الذي صاغه غيتسكل : تأميم صناعة الحديد والفولاذ ، والشحن ،

---

(١) : اندريه غورز : « الاستراتيجية العمالية الرأسمالية الجديدة » — ص ١٨ .

والتنهيج الاقتصادي ، وانشاء صناعات عـامة جديدة ، ووضع حد لاحتكار اراضى البناء عن طريق شرائها من قبل الدولة ، وتحسين الخدمات الاجتماعية . وفي ميدان السياسية الخارجية عودة الى الرغبة القديمة في تكوين جناح ليبيرالي أو « يساري » داخل منظمة حلف شمالي الاطلسي (على سبيل المثال معارضة مشروع القوة الضـاربة المتعددة الاطراف) . ومن المؤسف ألا يكون مبدأ الحلف الاطلسي بالذات قد وضـع موضع تشكيك . وبالطريقة نفسها يترافق الوعد بزيادة المعونة للبلدان المتخلـّفة بتوكيد « التزامات » انـكلترا التقليدية تجاه امبراطوريتها (قبرص ، عدن ، ماليزيا ، هونغ كونغ ، الخ) .

والجديدهو الاسلوب،الرنينالخاص الذي اعطته شخصية ويلسون لهذا البرنامج. لكن هل هذا يكفي لتبرير الأمل الذي ايقظه ويلسون لدى اليسار كله ، في انـكلترا وفي الخارج ، كما لو انه منقذ الاشتراكية ، ومختلف جذرياً عما امكن للعمالية وللاشتراكية — الديموقراطية ان تقدماه في الماضي ؟

ليس بالضرورة . صحيح ان ويلسون ، بالمقارنة مع كانته حتى اليوم قيادة حزب العمال ، يمثل بعض التقدم . فهو إذا كان يتابع تقاليد العماليين في ازدراء « النظرية » ، أو « اللاهوت » كما يسميها ، لكن لديه من صحو الفكر أكثر بكثير مما كان لدى الزعماء السابقين . وهو أكثر قابلية من اسلافه لتلقي أفـكار اليسار وضغطه . وبخلاف اتلي وغيتسكل يبدو بمنجى من نزعة عداء الشيوعية الضيقة الـــتي أصبحت الشغل الشاغل للكثير من الحركات الاشتراكية — الديموقراطية . والاهم من هذه الخصال الشخصية كلهـا انتاؤها (بصورة سلبية ايجابية معاً) إلى مرحلة قطعية مع الماضي ، وتغير مرحلة تشهد اختفاء الكثير من العقبات الماضية التي كانت تحول دون اي عمل ، من دون أن يأتي شيء ايجابي جديد للحلول محلها . وهذا ما يجعل ويلسون يبدو كقـائد يساري ممكن في اطار التقدم الذي يمكن أن يتحقق اذا ما اغتنم الاشتراكيون الفرصة التي يتيحها لهم انهيار الدول القديمة . وهـذا هو سر الأمل الذي ايقظه . لكنه ، وبعامل تناقض لن يدهشنا ، لم يستطع أن يجـذب اليه هذه الثقة الكبيرة إلا

بتجسيده في الواقع جميع الميول التي تعارض امكانية استغلال الازمة باتجـــاه اشتراكي . ان الرأسمالية وعمـــلاءها يجهدون لسد الفراغ الذي خلفته النزعة المحافظة القديمة، بفضل ايديولوجية وطرائق في العمل تتفق مع تدعيم الرأسمالية وتجديد شبابها : ان الرأسمالية تأخذ اليوم مظهراً عقـلانياً ، محباً للمساواة ، مادياً ، عصرياً ، ساعية إلى اجتذاب المستهلك التائق إلى الحركة . والويلسونية تواجه هذا التحدي وتطرح نفسها على انها تكنوقراطية فتية مندفعة قادرة على بناء المستقبل على هذه الاسس . بيد انها تحمل في ذاتها مع ذلك امكانية أن تكون شيئاً آخر، امكانية بناء المستقبل على أُسس اشتراكية ، وتجاوز متطلبات رأسمال الاحتكارات . ترى هل هذه الاستطاعة التي يبدو ان حزب العمال أمكنه أن يحتفظ بها ، بالرغم من كل التـــاريخ الذي درسناه ، هي استطاعة واقعية أو لا ؟

يسار جديد

حتى يمكن استغلال الوضع الانتقالي باتجاه اشتراكي ، لا بد أن يكون هناك يسار . لكن ما اليسار الذي يمكنه أن يمـارس نفوذاً على القيادة العمالية ؟ لقد رأينا كم يشكو اليسار التقليدي في الحزب من ضعف: فهو على عطالته قد تدهور أكثر أيضاً مع انتصار غيتسكل والهـــالة الرسولية التي تحيط بويلسون فهل تطور إذن يسار جديد ليجسد المنظورات الاشتراكية ؟ وهل نجده في مكان إلا خارج الحزب ؟

نستطيع ، بمعنى من المعاني ، أن نجيب بنعم. إن تاريخ العمالية قد بيّن بشكل لا يدع مجالاً للشك الطابع الوهمي للتقاليـــد الاشتراكية «الوطنية» . لكن إذا كان لا بد أن تستند هذه التقاليد إلى شيء أكثر إيجابيـــة ، فمن الواجب أن نتساءل عن الأسس التي يمكن أن يتم عليها ذلك . فما المراكز الحيـة ، في الطبقة العاملة أو في الحركة العمالية ، بين المثقفين أو بين الشباب ، التي يمكن أن تنبثق عنها اتجاهات جديدة وضغوط جديدة ؟

واضح ، عبر هذا المنظور ، إن النقابات هي التي تمثل القطاع – المفتاح (أي

الأساسي). فالنقابات كما رأينا هي أساس العمالية ، وعن طريقها شاركت الطبقة العاملة في بناء الحركة. لكن نزعتها المحافظة هي أيضاً التي شلت دوماً الحزب وجهود الاشتراكيين . ولو أمكن شفاء النقابات من تصلب الشرايين هـــذا ، لتحولت العمالية ولانفتح عالم جديد أمام الاشتراكية الانكليزية . ودراسة هذا الموضوع بالذات تقودنا إلى لب تناقضات المجتمع البورجوازي .

إن نزعة الطبقة العاملة والنقابات المحافظة كانت مرتبطة دوماً جزئياً بالنزعة المحافظة للمجتمع بأكمله. وعندما شق تطور الرأسمالية طريقه إلى « التحديث » و « العقلنة » كان محتماً أن يجر خلفـــه النقابية ، سواء أشاءت أم أبت . وقد فرض هذا الميل على عمل النقابات شروطاً مغايرة تماماً للشروط التقليدية . وهكذا وبعد أعوام كثيرة شغل فيها الحزب السياسي مركز المسرح ، عادت النقابات من جديد لتصبح طليعة النضال العمالي وحاملة رايته . فتحديث الانتاج وعقلنتـــه يتطلبان قبل كل شيء تجميد الأجور لمدة من الزمن . لكن هـــذا شيء مستحيل طالما ان النقابات في انكلترا ما تزال متمسكة بسياستها المطلبية القديمة المتعلقة بزيادة الأجور . ومن هنا أصبح الحل الوحيد هو إشراك النقابات في تخطيـــط التطور الاقتصادي حتى تحد من مطالبها المباشرة آنيـــاً مقابل حصولها فيما بعد على زيادات منتظمة . وأهم ما في الأمر أن المشكلات التقليدية للنقابية ، سواء أكانت إدارية أم اقتصادية أم حرفية ، اصبحت بدون أي امكان للالتبـــاس **مشكلات سياسية** . وما عاد قادة النقـــابات قادرين على الاحتماء خلف نزعتهم الحرفية التي كانت تسمح لهم بأن يصموا آذانهم عندما يطلب إليهم اتخاذ مواقف في غير المجال الاقتصادي الصرف . ثم إن هذه الاثارة السياسية الجديدة تخلو من كل اصطناع . فالنقابات مرغمة على أن تدرك إنه إذا كانت هناك مشكلة ، فهي ترجع إلى السلطة الواقعيـــة التي لها على المجتمع وعلى تطوره : ولهذا السبب يحاولون أن يجعلوها تحد بل تضحي بهذه السلطة « في سبيل المصلحة القومية ». إذن فمسألة السلطة ، وهي مسألة مركزية في السياسة كانت الايديولوجية الفابية القديمة تحاول ان تخفيها تحت ستار « التطورية » ، قد شقت طريقهـــا إلى النور

بكل جلاء لأول مرة .

إن الوضع الجديد قد بدل من الآن النقابية . وكان أهم تحول تسمية سكرتير عام جديد لمؤتمر النقابات، جورج وودكوك، مكلف بإصلاح بنية الحركة وبتعزيز سلطتها المركزية . والهدف النهائي لوودكوك هو بكل وضوح القبول بالبرنامج النيور رأسمالي للتعاون بين النقابات والدولة ، تحت شكل أو آخر ، باعتبار ان النقابات « تعترف بمسؤولياتها » في مجال التنمية الاقتصادية ونالت الاعتراف بأن لها كلمتها في التخطيط . وهذا معناه إنه يمثل إتجاهاً يمينياً صريحاً من حيث النتائج السياسية الممكنة لهذا الموقف . ان المعنى « السياسي » للأحداث يبدو بالنسبة إليه على انه تخلي النقابات عن كل اتجاه « حزبي » أو « طبقي » داخل منظمة مراقبة من قبل الدولة . بيد أن حملة وودكوك تظل مع ذلك مفيدة : فهي سترغم النقابيين على الخروج من سباتهم وعلى تحديد وجهات نظرهم في أهم المواضيع .

إن المحافظين، بالرغم من قبولهم بتدخل الدولة وبمشاركة النقابات في التخطيط الاقتصادي ، لم يحققوا نتيجة تذكر ، وهذا هو أحد العوامل الأساسية لأزمتهم العامة . وعلى هذا فإن حزب العمال والحكومة العمالية المحتملة سيواجهان المشكلة كاملة . وإذا كان على العمالية ان تنجح في « تحديث » النظام الاقتصادي بأنجح مما فعل المحافظون ، فلا بد لها أن تنجح أكثر منهم في سياسة العائدات وأن تقنع النقابات بتوقيع نوع من عقد مع الدولة . فهل سيكون ويلسون قادراً على النجاح حيث فشل الحزب الرأسمالي التقليدي ؟ إذا تحقق ذلك فإنه يكون قد أدى أكبر خدمة يمكن لحكومة عمالية أن تؤديها للبورجوازية ، وعليه أن يتوقع الاصطدام بسد من آراء « الخبراء » وافتتاحيات الصحف . لكن ، كما في مثال وودكوك ، سيكون الحزب رابحاً على المدى القصير إذا ما اصطدم بمشكلة من هذا النوع . وسوف تظهر تكنوقراطية ويلسون الديماغوجية على وجهها الحقيقي . وإنه لواضح ، بمعنى ما ، إن ويلسون ووودكوك يمثلان خطرين متوازيين على الطبقة العاملة والمستقبل الاشتراكي ، وأنهما يتكاملان

ويتكاتفان إلى حد ما . لكن ربما كان من المحتم ان توقظ قوى من هـذا النوع الحركة العمالية من خمولهـا . فنظراً إلى الشروط التي شرحناها ، كان من غير المعقول أن تكون قوة إشتراكية صريحـة هي أول من يتعرض لمشكلات الرأسمالية الجديدة .

فيما وراء التكنوقراطيين

إن الحزب العمالي الذي يتزعمه ويلسون والحركة النقابية التي يحلم بها جورج وودكوت يمثلان بداية عصر جديد بالنسبة إلى الطبقـة العاملة والاشتراكية الانكليزية . ومن الممكن أن ينتهي بدونهما . فهنـاك عناصر اختمار أخرى في الموقف الذي لا يكف عن التحول ، ومن الممكن أن تكون نقطة انطـلاق لتطور جدلي . وليس من المستبعد من جهة أخرى أن تحول اتجاهـات مضادة الاحـداث في مجرى آخر . إن أسباب التفاؤل لا يمكن أن تستمد من هذه النقطة أو تلك في برنامج الحزب ، ولا من شخصية هارولد ويلسون ، بـل بالأحرى من العلاقات الجديدة بين ما يمكن لحكومة عمالية ان تنجزه وبين الوضع العام . إن عمل حكومـة كهذه لا يمكن أن يقبـل على أنه مجهود صابر للاقتراب بضعة سنتمترات من جنة الفابيين من خلال تطور يتقدم بدرجات لا تكاد تدرك . فالحمايات القديمة قد اختفت مع الجزر الكبير الذي ذهب بالقيم والعادات المتوطدة . ونظراً إلى غياب كل يقين قاطع ، فإن العمالية لن تستطيع الافلات من التمحيص النقدي لكل ما ستفعله ، وسوف تتعرض لتيـارات من آراء متباينة ، وربما ستتاح لها فرصة تثقيف نفسها عميقاً . إن موجة عارمـة من الإيمان والتفاؤل والحماسة الشعبية حملت حزب العمال إلى سدة الحكم في عام ١٩٤٥ . ولا شيء من هذا في عام ١٩٦٤ . إن على العمالية أن تتجسس طريقها تجسساً في صعودها لشغل المكان الذي تركه النظام القديم المتوفي فارغاً . إن الأوراق الرابحة التي تملكها ليست كثيرة . الانتهازية السياسية العبقرية لقائـد فرد ، حيرة خصمها المزمنة ، بلاغة غير متماسكة أثارت بـين الجماهير فضولاً متسامحاً لا أكثر . ومع ذلك فإن هذا الموقف الصعب ، السديمي ، حافـل

بالوعود اكثر بكثير مما كانه موقف ١٩٤٥ الخـــادع الذي لم يسمح باستخلاص الدرس من الفشل والذي لم يخلف من شيء غير البلبلة والرجوع الى النظام السابق. ونستطيع الى حد ما ان نشبه وضـع اليسار الانكليزي بوضع سائر الطبقات ، سائر المجتمع : فبعد قرون من الانطواء على الذات والركود وعبادة الماضي ، يجد نفسه بحاجة الى الفوضى كما يحتاج النبات الى الماء ، لأن اللايقـــين وانعدام التابوات لا يمكن إلا ان يفيده .

من المؤكد تقريباً ان الحكومة العمالية القادمة ستحرك حملة للبحث عن افكار جديدة : وحتى اذا لم يحدث ذلك فإن التغيرات الراهنة توجد حاجة ماسة الى منظورات واهداف جديدة . فما القوى التي يمكنها التجاوب مع هذه الحاجة ، وما السبيل الى الحيلولة ، امام هذا اللايقين ، دون توطد قيم اشتراكية – ديموقراطية جديدة بنفس القوة التي توطدت بها القديمة ؟ اننا إذ نطرح هذا السؤال نتطرق من جديد الى الفكرة الرئيسية في دراستنا : مشكلة المثقفين وعجزهم عن تقويض قلعة الهيمنة البورجوازية وعن منح الحركة الاشتراكية ايديولوجية اكثر ثورية . ان مشكلة كل اليسار الاشتراكي «الجديد» في انكلترا تتوضح على ضوء هذا الماضي. فما الفرص المتاحة لتكوين جيل من المثقفـــين قاطع صلاته بالتقاليد وقادر على الاشارة ، فيما يتعلق بالسلطة ، الى اختيار يكون له معنى بالنسبة الى النقابات والعمال ؟

من هذه الزاوية ايضاً يمكن اعتبار الموقف أحفل بالوعود مما كان عليه منذ تأسيس حزب العمال قبل ستين عاماً . فانهيار التقليدية يمس المثقفين عن قرب ، وهو حد كبير من عملهم . ان حاجة المجتمع الى «تجديد» (وهي حاجة تتجاوب في نهاية الأمر مع حاجة الرأسمالية الانكليزية الماسة العاجـلة الى خلق شروط جديدة للعمل) وجدت بسرعة دعاتها المتحمسين بين المثقفين . واصبح عـــدد المدافعين عن النزعة المحافظة الهرمـة نادراً للغاية أمام ابطال التكنوقراطية والعقلنة . وقد انضم مجموع الرأي الليبيراي الى معسكر هؤلاء الاخيرين . ان العدد الضئيل من الناس الذين عارضوا التجديد والتحديث يدل دلالة قاطعة على

ان النظام القديم قد مات ودفن . بل يمكننا القول ان امتثالية جديدة قد حلت في فترة وجيزة من الزمن محل القديمة (امتثالية تقدمية إن جاز التعبير) . والنزعة المحافظة المتنامية التي تلت عام ١٩٥١ (بسبب الخيبة التي احدثها النظام العمالي جزئياً) قد اخلت الساح لنزعة تقدميــة لا تقل عنها عمومية وتسير ، عن وعي او لا ، باتجاه القيم الجديدة ومقولات النيورأسمالية . ولكأن المثقفين الانـكليز حزموا أمرهم على أن يكونوا دعامة المجتمع القديم ، بنفس التصميم الذي ابــدوه عندما كانوا دعامة المجتمع القديم .

بيد ان الاورثوذكسية الجديدة غير قابلة للمقارنة بالقديمة . ولن تصبح مثلها غطاء لجميع الآراء المسبقة يخنق كل ما هو مغاير لها . فالايديولوجية القديمة كانت بنية متينة ومعقدة ، متعددة الوجوه . وبالمقابل فإن الايدلويوجية البورجوازية الجديدة التي ما تزال في مرحلة الولادة هشة نسبياً . انها تبدو كدعاية أكثر منها عالماً شاملاً يصعب ، ان لم نقل يستحيل الافــلات منه . ان البورجوازية ، بفقدانها الامبراطورية البريطانية ، قد فقدت ايضاً قدرتها السحرية على المثقفين وبالتالي على الطبقات المحكومة .

من الصعب اصدار حكم مسبق على التطور القادم ، أو تقرير القيمة الواقعية للميول الثقافية اليسارية التي تحاول توكيد نفسها في هذا المناخ الجديد من الحرية . ان المثقفين ما عادوا بحاجة إلى خلع نير الماضي ، لكنهم لا يستطيعون الافلات من الازمة العامة للفكر الاشتراكي ، المشتركة بين جميع البلدان التي بلغت هذه الدرجة من التطور ، والراجعة في أسبابها إلى الستالينية التي كانت عامل تقهقر وشلل . لقد كانت التقاليد الماركسية في انـكلترا ضعيفة ومحدودة ، وعاجزة كل العجز عن مقاومة ضغوط الستالينية . ومن هنا كان الميــل إلى توحيد الماركسية بالستالينية ، وهو ميل رافق أول محاولة راشدة لخلق ايديولوجية مستقــلة لليسار ، ونعني بها محاولة « اليسار الجديـــد » . لكن بالرغم من السديمية والتجزئة ، فإن هناك انتلجانسيا يسارية في سبيلها إلى الولادة تتميز عن حراس الليبرالية والنيوررأسمالية .

ان تطور العامل « الذاتي » ، المتمثل في موقف المثقفين ، سيتعلق في ختام الأمر بتطور الموقف « الموضوعي » الذي درسناه آنفاً ، اي تغيرات الصراع الطبقي في الوضع الجديد وردود فعل النقابات (وبالتـــالي حزب العمال) والحاجات الجديدة التي ستظهر ابان ذلك . والشيء الجديد هو على وجه التحديد امكانية التكلم عن مثل هذا الجـــدل . فمن جهة يستدعي الموقف الاساسي الاقتصادي والاجتماعي تغيراً في العلاقات بين الطبقات . ومن جهة ثانية ، وعلى صعيد الوعي والإنشاء النظري ، توجد على الأقل بداية انطلاق لقوة ذاتية قادرة على مواجهة التغير ، بصورة أكثر ايجابية لا على تحمله سلبيـاً فحسب . ولقد رأينا كيف ان الوعي الطبقي ، مهما يكن راسخ الجذور ، كان سلبياً نوعاً ما في انكلترا، وبالتالي فهو لا يلعب أي دور في الصراع الطبقي الناشط. لكن الشروط الاجتماعية والثقافية لهذه السلبية هي في طريقها إلى الاختفاء ، في حين يتفاقم الصدام موضوعياً، إذن فسيأتي وقت، قريباً ، يمكن فيه تحويل هذا الارشاد من الوعي الطبقي إلى أداة فعالة ، إلى محرك للصراع الطبقي الاقتصادي والسياسي. ان الطريق المؤدية إلى تحويل نوعي للصراع الطبقي شاقة وغـير مأمونة . وهل كان في الامكان أن تكون على غير ذلك ، لكن مجرد انها تبدو ممكنة ، ومجرد ان العقبات القديمة العصية قد انهارت ، ان مجرد هذا يشكل واقعة هامة تسلط ضوء الاشتراكية على العمالية كما على كل شيء آخر .

« الازمنة الحديثة »

تشرين الثاني ــ كانون الاول

١٩٦٤

فهرس

		الصفحة
تقديم	جورج طرابيشي	٥
الماوتسية	اسحق دويتشر	٩
فشل الخروتشفية	» »	٥٣
تيارات الشيوعية الثلاثة	» »	٨٣
الكاستروية : المسيرة الطويلة لأميركا اللاتينية	ريجي دوبريه	١١١
التولياتية	جان بول سارتر	١٥٣
الفانونية	جان بويون	١٦٩
مصاعب الاشتراكية في افريقيا السوداء	ر . ديبيني	١٨٣
الاشتراكية الانكليزية	توم نيرن	٢٠٧

هـــذا الكتاب

هـــذا الكتاب يضم عـــدة دراسات وابحاث معمقة عن الماوتسية والخروتشيفية وتيارات الشيوعية الثلاثة والكاسترويه والتـولياتية والفانونية والاشـــتراكية في افريقيا الســـوداء والاشتراكية الانكليزية .

وقد نشرت جميع هذه الدراسات في مجلة « الازمنة الحديثة » التي يشرف عليها جان بول سارتر . واشترك في كتابتها كل من ســارتر نفســه واسحق دويتشر وريجي دوبريه وجان بويون ور . ديبيني وتوم نيرن .

وهي لاتتقارب في منهجها الاشتراكي العلمي فحســب ، بل ايضاً في روحـــها . انهـا تبدو ، من اكثر من جانب ، لكاتب واحد . انـها تصب كلهـا ، بروحها ومواضيعها و كتابها ، في مصب واحـد : الثورة الاشـتراكيـة ، مهما تعددت ظروف الزمان والمكان .

وما احوجنا نحن العرب الى مزيد من الاطلاع على هـــذه الدراسات ونحن نسلك طريق الاشتراكية .

الثمن : ٤٥٠ ق. ل. ــ ٥٧٥ ق. س. ــ ٨٥٠ مليماً

سارتر وآخرون
تجارب اشتراكية
دار الآداب ـ بيروت